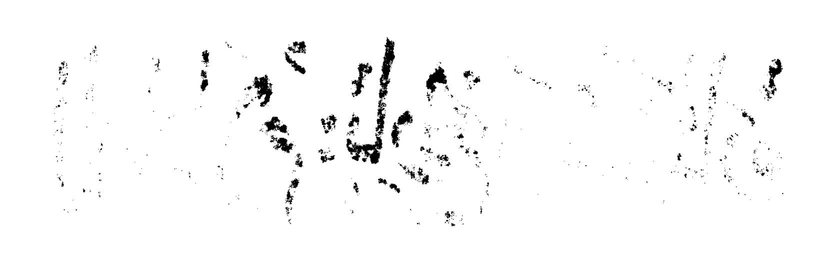
الإسلام: تاريخ وحضارة

أنور الجندي

دار الاعتصام



بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام: تاريخ وحضارة

عندما بزغ فجر الإسلام تغيرت مفاهيم كثيرة فى العالم ، وقدم الإسلام قيما جديدة بهرت البشرية وكتبت للإسلام التفوق ، وفتحت قلوب الناس له ، وأمدته بالنصر وجمعت الأمم تحت لوائه ومن مزاياه أن كل من دخل فيه لم يرتد عنه فلقد أعطى الإسلام عطاءاً باذخاً أسعد القلوب وأيقظ العقول ، وكانت آيته الكبرى هى الالتقاء بالفطرة وموافقة طبائع الأمـــور وإصالة الارتباط بالله الواحد صانع الوجود ومدبره حيث البدأ منه والانتهاء إليه .

وكان أعظم ما قدمه الإسلام ذلك الإيمان بكل ما أرسل الله تبارك وتعالى من رسل وما أنزل من كتب والارتباط بذلك التاريخ لموكب النبوة منذ بدا البشرية والاعتزاز به حيث تول القرآن يذكر بطولاتهم وموافقهم فى سبيل تحرير العقل البشرى من زيغ الوثنية وتحرير النفس البشرية من ضلالة الإباحية ، حيث رفع الإنسان من العبودية للصنم وللإنسان وعبادة الله الواحد .

وهذا هو عطاء الإسلام الحقيقى ؛ أن حرر البشرية من ذلك الارتكاس الذى ساقتها إليه أهواء البشر ، وذلك الفساد الذى تهاوت إليه وكانت الأمم بعد أن ذاقت الذلة والهوان تتطلع إلى ضوء كريم يهديها ويحررها من ظلمات طغيان أباطرة الرومان وأكاسرة الفرس وفراعنة مصر حتى جاء الإسلام فأشرق ذلك الضوء على النفوس فدخلت فى دين الله أفواجاً .

وسرعان ما سيطر الإســـلام وامتد رواقه ، وزلزل الأرض تحت مواقع الظالمين واكتسح الامبراطورتين ، وأقام رايته وأعلى كلمة الله فكان ذلك من المعجزات التى يتحدث عنها المؤرخون باحثين أسبابها دهشين لتحققها فى الوصول

إلى أطراف الصين شرقاً وإلى نهر اللوار غرباً فى ثمانين من السنين ، ظنا منهم أن هناك عوامل مادية هى التى [illegible] الأمة دون الالتفات إلى العناصر الروحية والمعنوية ، وتلك القوة المؤمنة الصامدة التى ملأ بها محمد رسول الله قلوب أصحابه وأضاء بها نفوسهم فاندفعوا مؤمنين بأنهم على الحق ، وأنهم منتصرون سواء أكان ذلك النصر [illegible]

وكان القضاء على الوثنية : أعظم أحداث عالم الإسلام الجديد .

وكان القضاء على لغات كثيرة [illegible] انطوت وانزوت وحلت محلها الفصحى لغة القرآن وكانت صيحة الإسلام : [لا إكراه فى الدين] علامة على الحرية الدينية ثم قدم الإسلام مفهومه الجديد للحضارة : الحضارة بمعنى العمل من أجل بناء المجتمع الربانى على مفاهيم التوحيد والإيمان وإقامة الميزان : بإحلال الحلال وتحريم الحرام، والإيمان بالمسئولية الفردية والجزاء الأخروى والسعى فى الأرض وعبادة الله فى حسن معاملة خلقه .

كان مفهوم الحضارة ذلك الإيمان الوثيق بأن الناس لآدم وآدم من تراب وأنه لا فضل لأعجمى على عربى ولا لعربى على أعجمى إلا بالتقوى وأن الناس سواسية كأسنان المشط .

وأنه لا إستعلاء للدماء ولا للعروق ولا للأجناس ولا للقبائل ولا للأحساب وإنما الحكم فى أمور الناس جميعاً عملهم ، الفضل للتقوى .

وكان أساس مفهوم الحضاره : وحدة الخالق ووحدة الخلق ، والعقل أساس المعرفة وتكامل العقل والقلب والروح والمادة والدين والدولة .

ذلك هو مفهوم الحضارة الإسلامية ، وهو غير مفهوم المدنية المادية القائمة على بناء المدن والعمائر والمساجد .

وكان أعظم معطيات الإسلام أنه ورث كل الحضارات والمدنيات والفلسفات فكشف عنها وأخرجها وهضم خيرها وصحح أخطائها واستوعب عطائها واتسع

صدر الإسلام الاعتراف للعلماء والأمم السابقين بالفضل على ما قدموا لا يبخسون شيئاً ، وأن العلم ملك للبشرية كلها ، تأخذه من أي إنسان ، مهما اختلف دينه ومحلته ، وأن نطلب العلم ولو في الصين .

ولقد نقب المسلمون عن الحضارات القديمة فاستخرجوا كنوزها المدونة ، حضارة اليونان والرومان ، وحضارة بابل وأشور وحضاره منف ومصر وحضارة الفرس والهند فنقلوا هذا التراث إلى اللغه العربية وكشفوا عن صحيحه فصهروه في بوتقتهم وعن زيفه فرفضوه .

وأقاموا المنهج العلمي التجريبي الذي تشكلت عليه الحضارة الحديثة إنطلاقاً من عبارات القرآن المضموة (١) أقرأ . (٢) أنظروا ماذا في السموات والأرض (٣) قبل هاتوا برهانكم .

وآية العظمة في حضارة الإسلام أنه اشتركت في بنائها كل العقول على اختلاف الأجناس والعناصر والديانات ، ولقد تكون الفكر الإسلامي معتمداً على مفاهيم التوحيد والعدل والرحمة والاخاء البشري في إطار اللغة العربية فأقام مفاهيم قلوبهم وأرواحهم مستمدة من القرآن الكريم وحده وما عرف علماء المسلمين تلك العنصرية البغيضة التي تقول هذا فارسي وهذا تركي وهذا عربي فقد صاغ القرآن هذه النفوس فجعلها إسلامية قرآنية خالصة .

وكذلك أسهمت كل العناصر التي دخلت في الإسلام في إقامة النظام الإسلامي ووصلت إلى مكان القيادة والصدارة بحكم الفرس والديلم والسلاجقة والترك العثمانيون والمماليك لأنهم يحكمون بلا إله إلا الله محمد رسول الله .

ومن أجل هذا تعددت بها كبرى الحضارة الإسلامية ومنابعها في كل من دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وسمرقند وبخارى والبصرة والكوفة والقيروان وفاس وغرناطة وكلها كانت تنقل العلماء بين مواطن الإسلام وذهب رحالتهم من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق يحملون جواز سفر

موحد هو (لا إله إلا الله) وأمضى ابن بطوطة ربع قرن كاملة فى رحلة من المغرب إلى المشرق تزوج فيها وولد له .

وهكذا اختلطت الدماء وانصهرت الأجناس تحت لواء لا إله إلا الله فأصبحت الأمة الإسلامية شعباً واحداً وأصبح الإسلام دين وقومية وحضارة .

(٢)

لقد صنع الإسلام للحضارة مفهوماً أصيلا قام على التفرقة بين الحضارة والمدنية فالحضارة الإسلامية (كما يقول الدكتور عبد الستار رمضان) مركب متكامل متفاعل من المبادىء الروحية والمطالب المادية ، ولقد كانت قيمها الروحية منطلقاً أساسياً للنزعات المادية وإنه فى ظلها تفاعلت كل الآراء والمبادىء والأهداف واصطبغت بصفة روحية مثالية وكان لهذا أكبر الأثر فى المحافظة على وحدة الأمة الإسلامية من الناحية العقلية والروحية حتى بعد انحلال الوحدة السياسية التى كانت تربط البلاد الإسلامية برباط حكومة واحدة .

ومن هنا يتبين خطأ النظرة التى تريد ، أن تقدم الحضارة الإسلامية من متطور مادى فى مجال العمارة وحدها فإن مفهوم الحضارة الإسلامية أوسع من أن ينحصر فى إطار الفكر الغربى فى نظرته للحضارة ، كما أن مفهوم اللغة أوسع من أن تنحصر فى مفهوم اللغويات لأن الإسلام دين يتجه إلى قيادة الإنسان بكل مطالبه إلى حياة راقية تتحقق فيها مطالبه المادية مع أشواقه الروحية : هذا التوازن الذى جاء به الإسلام هو ما امتازت به حضارته على سائر الحضارات التى سبقته . فالإسلام ليس نظاما دينيا فحسب بمعنى أن تكون أحكامه وعقائده وأخلاقياته قاصرة على تهذيب النفس وتقويم العقيدة والسلوك ولكنه منهج حياة ونظام شامل لكل مرافقها . يجمع بين طهارة المعتقد وتقديم السلوك مع نظام كامل فى المال والاقتصاد والاجتماع والسياسة داخل الدولة وخارجها وللمعاهدات والمواثيق الدولية .

ومن هنا فإن ذلك يكشف حقيقتان طالما ردد الاستشراق زيف دعواه فيهما

الأولى : خطأ القول بمديونية الحضارة الإســلامية لتراث الحضارتين اليونانية والرومانية فإن الإسلام قدم منهجاً جديداً مخالفاً تماما لمنهج هاتين الحضارتين وتراثهما ، ومن الخطأ أن يقال أن الإسلام ليس له دور فى تشكيل حضارته اللهم إلا المظهر الخارجى فقط وإن ما ردده بعض كتابنا فى هذا الصدد نتيجة انبهارهم بالحضارة اليونانية كان صادراً عن قصور نظر لحضارتنا وعجز عن فهم ، الذاتية الخالصة ، والتميز الواضح العميق لحضارة الإسلامية وإن فكرة الحرية المطلقة التى تتحدث عنها الحضارات المادية ، إنما تعنى إلى التحرر من الارتباط بالدين وبالأخــلاق التى يحقق التوازن النفسى والاجتماعى .

الثانى : خطأ المحاولات التى تريد أن تحصر الإسلام فى دائرة العبادة وتهذيب السلوك وتجاهل نظامه الجامع الشامل لكل مرافق الحياة . وهى نزعات كما يقول دكتور محمد عبد الستار فى بحثه الذى اعتمدنا عليه فى هذه الفقرة — تريد أن تعود بمفهوم الإسلام إلى ما كانت عليه المسيحية فى العصور الوسطى فى ظل الأنظمة الكنسية ولا ريب أن رأى الغربيين فى الدين إنما ينطبق على دينهم هم ولا ينهض أن يكون منهجا لقيادة الحياة ، وبذلك انعزلت الكنيسة عن الدولة ، وظهر منهجان فى التربية لا صلة لأحدهما بالآخر ونظامان فى الحياة لا يجمع بينها رباط وهما الاتجاه الدينى والاتجاه المدنى .

وقد استمد الإسلام مفهوم حضارته من القرآن الذى كانت غايته ، إحداث علاقة تقوم على الترابط والانسجام بين عناصر الوجود كله ، ولا ريب أن دعوة الحق تبارك وتعالى المتكررة إلى تذليل ، الأرض وما فيها للانسان وتطويعها له هى من الأسس الحقيقية لهذه الحضارة ودعوة الإنسان إلى العمل .
[وهو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه] .

ومعنى (ذلولا) أى مذللة لا تأبى عليه وهى بكل ماتحمله على ظاهرها وباطنها من إمكانيات وما يحيط بها من غلاف جوى كل ذلك مسخر للانسان وهى دعوة للإنسان إلى (١) استغلال هذه الامكانيات (٢) اكتشاف القوانين العلمية التى يستطيع الوصول بها إلى أحسن وجه للاستغلال (٣) تذكير الإنسان بمبدأ المحاسبة لهذه النعم . (٤) توجيهه ليكون الاستغلال لخير الانسانية لا لدمارها

هذه هى صبغة الحضارة الاسلامية ومفهومها كما رسمها القرآن ، فالصانع للحضارة الاسلامية هو الإسلام نفسه ،ولا يمنع هذا من أن يكون الاسلام قد ورث تراث الحضارات القديم وغربله وكشف عن صالحة فهضمه واساغه وعن رديئة فرفضه، فقد واجه الاسلام الانماط الحضارية عن الامبراطوريتين الفارسية والرومانيه فاخذ منها مالا يتعارض مع روح الاسلام والتوحيد الخالص ثم بنى عنها وفق منهجه الأصيل .

ولاريب أن الاستاذ محمد عبد الستار رمضان قد وفق فى بحثه هذا الذى اعتمد على القرآن الكريم فى تصور الحضارة الاسلامية وتميزها عن الحضارات الفارسية واليونانية والرومانية والفرعونية : هذا الميراث الذى واجه المسلمون إنماطه الحضارية فأخذ منها ما لا يتعارض مع روح الاسلام القائمة على التوحيد الخالص ثم بنى عليها وفق منهجة الأصيل .

وقد قرر الاسلام عدة أصول أساسية فى هذا الشأن :

أولا : إن الله تبارك وتعالى هو الصانع لكل ما فى هذا الكون ، وإنه هو المعلم للانسان والكاشف له عن أسرار الطبيعه فعليه أن يخضع عمله كله لمنهج الله ، وأن يعرف ويشكر ويذكر دائما هذه الصله بين المالك الحقيقى وبين المستخلف فى أمور الحياة ، أما هذا الاستعلاء الكاذب الذى يظهر فى طوابع العلم الحديث فهذا إنكار لقدرة الله وهو مصدر فساد الحضارة واضطرابها حيث ينحرف بها الانسان إلى أهوائه ظنا منه أنه هو المتصرف بها ، ذلك أن هدف الحضارة الاسلامية هو أن تحقق سعادة الانسان وطمأنينته وهى تجعل من الانسان محوراً تدور عليه توجيهاتها ولذلك فهى تهدف إلى ضبط سلوك الإنسان حتى يسعد بهذه الحياه ويطمئن على مستقبله فيما وراءها وهى ليست قائمة على العسر والتحكم وكلها معقولة العلل فأوامر الشريعة الالهية ونواهيها لا تؤدى إلى كبت أمور فطرية عزيزية ،

ويقر الاسلام ترتيب الموجودات هذا الترتيب التنازلى :

الله — الإنسان — الكون

فالله (تبارك وتعالى) هـــو القوة المؤثرة فى الانسان والكون وبالضرورة فإن وجوده تبارك وتعالى ليس كوجودهما وهو الوجود المطلق والانسان هو أشرف مخلوقات الله (ولقد كرمنا بنى أدم) .

والكون بجميع أجزائه مسخر للانسان

(وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره)

ومن هنا يتبين أن مفهوم الاسلام للحضاره جمع بين المعنوى والمادى، وجعل الاخلاقية حاكمة للحركة ، وقد أعلن الحق سبحانه وتعالى تطويع المادة للانسان وأن الماده مسوقة إلى الانسان فى إطار دلالتها على الخالق سبحانه وهى مادة : دائتسخير،سخر وما فى معناها : إن الماده بحكم مخلوقيتها لله سبحانه وتعالى وبطبيعة مهمتها لا يمكن أن تتأبى بذاتها عن آداء رسالتها وكونها مسوقة إلى الانسان فى إطار دلالتها على الخالق سبحانه وتعالى ومن هنا يظهر خطأ المفهوم الغربى الحضاره والعلم حيث يظن أهله أنهم هم الذين اكتشفوا وهم الذين ابتدعوا وهم الذين صنعوا ويستطيلون بهذا الوهم فيتحكمون فى العطاء الذى اعطاهم الله أياه ويتحدثون على أنه الطبيعة ويجيزون لانفسهم حرية توجيهه إلى الباطل والظلم والاستعلاء فيعطون أنفسهم ويمنعون غيرهم .

وهذا هو سر هزيمة الحضاره وفسادها وعوامل إنهيارها فلا بد أن تعود الحضارة إلى الاقرار بالصانع الأول والذى علم الناس العلم وفتح لهم آفاق المعرفة والعلم . وهذا هو مصدر الصراع فى هذه الحضارة وفى المجتمع الغربى .

وقد عبر الفيلسوف المسلم إقبال عن هذا المعنى : الرجل العصرى يجد نفسه فى ورطة فمذهبه الطبيعى قد جعل له سلطانا على قوة الطبيعة لم يسبق إليه لكنه قد سلبه إيمانه فى مصيره هو ، والانسان العصرى قد أغشاه نشاطه

العقلى عن توجيه روحه إلى الحياة بالروحية الكاملة تتغلغل فى أعماق النفس فهو فى حلبة الفكر فى صراع صريح مع نفسه ، وهو فى مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية فى كفاح صريح مع غيره ، وإذا كان المسلمون يرغبون حقاً فى تحرير حضارتهم من التبعية للغرب فإن عليهم أن يغيروا موقفهم المتخلف إلى واقع حضارى ممتاز وإن ذلك يتوقف إلى حد بعيد على تغيير نظرتهم إلى عالم الطبيعة بحيث ينظرون إليه كما صوره الإسلام على أنه مجال لحركة الإنسان وسعيه ومعرفته فى ضوء مبدأ الاستخلاف فى الأرض والاستعمار فيها فالسبيل إلى ذلك هو الإسلام نفسه وإعادة فهم الإسلام من جديد فى ضوء عطائه الذاتى وتجديد الصلة والترابط بين عالمى المادة والروح .

يقول أقبال : العالم المادى ليس شيئاً فى نظر الإنسان بل أنه مجلى للنور الذى يضىء جوانب النفس البشرية باعتبار أنه شاهد على خالقه وعلى هذا فتوكيد المعنى الروحى فى حياة المسلم لا يكون باستبعاد القوى المادية وإنما يتحقق تنظيم علاقة الإنسان بهذه القوى على هدى النور المنبعث من العالم الموجود فى أعماق نفسه .

هذه هى قاعدة الأساس الفاصله بين حضارة التوحيد وبين الحضارة الغربية :

المسلمون يردون الأمور كلها إلى الله ويتحركون فى مسيرة الحياة والمجتمع والحضارة بأخلاقيات التقوى والرحمة والأخاء البشرى والله هو الصانع الحقيقى ، والمعلم للإنسان والمسخر للكون والمذلل للقوى لتكون فى خدمة الإنسان والكاشف له عن أسرار الطبيعة ، وشكر هذه النعمة يكون بأن يتحرك فيها الإنسان لا لخدمة أهوائه ومطامعه ولكن لتكون كلمة الله هى العليا ولبناء المجتمع الربانى وهـــذا هو المعنى الذى كشف عنه الفيلسوف جارودى والذى كان العامل الأساسى فى دخوله الإسلام .

(٣)

أعلن جارودى أن الحضارة الغربية تموت وتنتحر لأنها خالفت الفطرة وأن سادتها (ديكارت ثم جاليلو ثم مالرو) أعلنوا أن الانسان سيد دروب الطبيعة التى سيطر عليها ولكن بعد خمسة قرون من التجربة وصلنا إلى نتيجة مؤادها إن الطبيعة مخزن للمواد الأولية . وموضع لبقايا الانسان وفضلاته مما جعلنا فى حالة تدمير مستمر للطبيعة وهذا يتعارض مع ما قرره القرآن الكريم من إن الانسان هو خليفة الله فى الأرض وهو مسئول عن إيجاد التوازن الطبيعى .

وإذا كان المنظرون للفكر الغربى الرأسمالى يرون إن الانسان هو (ذئب) فى مواجهة غيره من البشر فإن هذا يعنى أننا سلبنا من الانسانية (البعد الالهى) ولم يبق فى الانسان سوى بعض الاهتمامات والأغراض الملحة ويصبح الخير كما يقول أفلاطون فى كتابه (الجمهورية) هو وجود أقوى الرغبات الممكنة لدى الانسان والعثور على وسائل إشباعها .

هذه فى نظر — جارودى — هى الجوانب اللاخلاقية وهى الأسس التى ارتكزت عليها الثقافة الغربية .

إن الثقافة الغربية التى تمجد الفرد هى التى أتاحت لكاتب ألمانى شهير أن يقول عن شعبه : نحن جميعاً أصفار وهتلر هو الذى يجمع كل هذه الأصفار إلى جانبه ويمنح الجميع المعنى : هذا الايمان بالفرديه المطلقة أدى إلى ظهور الدكتاتورية .

ويقول : إن خمسة قرون من الثقافة الغربية حرصت فيها على البعد الالهى أو تقريره للإنسان بواجهة يصطدم بها كمفهوم ، إن ترجمة كلمة الاسلام إلى اللغات الأجنبية بمفهوم الجنوح السلبى ترجمة غير أمينة والأفضل أن يكون استجابة الانسان إلى نداء ربه والتعبير الاسلامى هو : إسلام الوجه لله .

وهكذا يرى جارودى أن سر هزيمة الحضارة الغربية هى غياب البعد الالهى عنها وعن المجتمع الغربى .

يقول : ان حضارتنا الغربية حالياً فى سبيل الموت لا لأنها تفتقد الأساليب ولكن لأنها تفتقد الغايات .

هذا هو أذن الوجه الخطير لأزمة الحضارة الغربية . أزمة المعنى ، ان علمائنا الوضعيين وفنانينا الذين فقدوا الوجهة الصحيحة وكتابنا المتشائمين يجسدون هذه الأزمة بدلا من أن يساعدونا على التغلب عليها .

وفى العالم الاشتركى فقد تناسب الاشتراكية الرسمية القيم الروحية فى هذه الحياة . ألا يمكننا أن نخرج من هذا الطريق المسدود الذى وصلنا اليه بعد هزيمة الغرب المضاعفة وتدخل من جديد المعنى وهو بحق البعد الأسمى وهذا هو طريق نفس التقاليد الدينية التى أستقبلها الغرب سواء كانت اليهودية أو المسيحية .

إن التراث الاسلامى لم ينقل إلى الغرب إلا بطريقة مشوهة ، فقد ألتهمت أوربا أحد أشكال الحضارة الاسلامية إلا وهو العلم التجريبى الذى يختلف عن العقلانية اليونانية والمدرسة التى تسود فيها فلسفة أرسطو (المدرسة المسيحية) ولكن الغرب أكتفى بهذه الظاهرة فقط وفقد هكذا نصف هذه الفلسفة العقلانية الاسلامية مع أن الذى يميز العلم الاسلامى ككل هو أنه لا يفرق ابداً بين الاستخدامين اللذين يقوم عليهما العقل الانسانى : إلا وهما البحث عن الأغراض من ناحية والتأمل والاستنباط واللذان يسمحان للمرء أن يرتفع من الأحداث إلى القوانين والنواميس ، ومن ناحية أخرى أن يرتفع من غايات بسيطة إلى غايات أسمى حتى يلمس ما يشعر المرء بضآلته أمام اللانهاية لهذه الاجراءات ، هذا الذى أصاب العقل الغربى جعل الانسان الغربى يتسائل دائماً عن الكيف أى عن الأسلوب ويغفل السؤال عن الأسباب .

وفى هذه الاساليب التى قد نعتبرها مقدسة فإن من أعظم انتاج العلم والفن فى الغرب ليس فى خدمة الإنسان وفى سبيل تفتحه وتحرره أو لأية أغراض إنسانية ولـكن فقط فى خدمة التنمية كنتيجة ولخدمة السيطرة كسيطرة والعنف كعنف فهو إذن فى خدمة هدم الطبيعة والإنسان وليس لخلق مستقبل أفضل له .

(٤)

يرى باحث مسلم (قيصر أديب ماخول) أن فساد مفهوم الحضارة الماديه ترجع إلى أن ينسى الإنسان أن الله هو مصدر القوة أو السيادة كما أنه مصدر المعرفه ، وإنه يفشل فى إدراك أن القوة والمعرفة هما صفتان من صفات الروح ويتعين أن نحافظ عليهـــا بأمانة أى أن نستعملها لتنفيذ أوامر الله التى ترتبط بالهدف من وجوده على الأرض وبمصيره النهائى منها — أن الإنسان قد استخلف فى الأرض وأعطى القوة والعلم أمانة ووديعة (أنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا — سورة الأحزاب .

إن هذه الآية توضح بشكل مثير وواضح أن الإنسان قد أساء إلى الأمانة أى أنه كخليفة قد تصرف بطريقة غير مسئولة وانتهى به الأمر إلى أن صار ظلوما جهولا على الأرض ، ذلك أن نفس القدرات والخبرات التى قصد أنها اختبار الإنسان ومساعدته على التكامل قد استخدمت لتكون العقبات التى تمنعه من التقدم على طريق التكامل . ويمكن توضيح التناقض الإنسانى الظاهرى أكثر من ذلك على النحو الآتى :

أن الله يمنح الروح مقدرات المعرفة والقوة (أو السيادة) كما أنه يعطى الإنسان الجسد وخيرات الأرض لمساعدة هذه القدرات على الظهور لتأخذ شكلا محدوداً من خلال العمل فى الحياة المادية والعلاقات الاجتماعية وأن الطريقة التى تظهر بها هذه القدرات والأسلوب الذى يستخدم به الجسد

وخبرات الأرض إنما هى اختبار للانسان ، إن من طبيعة الإنسان وتكوينه العقلى القبول بأن الله هو ربه وأن فهمه — أو ذلك الجزء العاقل من روحه — هو الذى يشهد بوحدانية الله ، غير أن الإنسان بما ركب فيه من جسد فيه ضعف معين يظهر فى شكل النسيان ، أن نسيان الانسان ربه كمصدر القوة والمعرفة وهما صفتان من الصفات الإلهية ، أن نسيان الله كمصدر للقوة أو مالك الملك هو الذى أدى بآدم إلى الوقوع فى الغواية — أن النزعتين اللتين أدتا بالإنسان إلى الشرور والآلام على هذه الأرض وعبر مراحل التاريخ هما الرغبة فى القوة المطلقة ، والاعتقاد بأنه يستطيع أن يعيش إلى الأبد فوق هذه الأرض وسوء استعمال القوة يؤدى بالإنسان إلى أن يكون ظالما غير عادل ، كما أن نقص المعرفة أو سوء استعمالها يؤدى إلى أن يكون فى نهاية الأمر جاهلا وفى كلتا الحالتين ينسى الإنسان إن الله هو مصدر القوة (أو السيادة) كما أنه هو مصدر المعرفة . إنه يفشل فى إدراك أن القوة والمعرفة هما صفتان من صفات الروح ويتعين عليه أن يحافظ عليها كأمانة ، أى أن يستعملها لتنفيذ أوامر الله التى ترتبط بالهدف من وجوده على الأرض وبمصيره النهائى فيها . فبين الله أن من ينسى الله فإن الله ينساه ويحذر الإنسان بقوله :

(لا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون).

ومن الواضح أنه عندما ينسى لإنسان نفسه فإنه ينسى طبيعه وجوده على الأرض وإذا نسى طبيعته فإنه ينسى ميثاقه مع الله — ذلك الميثاق الذى يؤكد على أن طبيعة الانسان ذاتها تقبل الله ربا .

إن مثل هذا النسيان من شأنه أن يؤدى بالانسان إلى أن يرتكب الظلم فى حق نفسه .

(٥)

ويؤكد الأستاذ إسماعيل الفاروقى فى بحثه : التوحيد هو جوهر الحضارة الإسلامية أن التوحيد هو لب الإسلام وجوهره حيث :

(١) الفصل بين الخالق وبين خلقه (٢) تحقيق إرادة الخالق فى كونه

(٣) الالتزام بقبول إرادة الله هدفا وغاية فى الطبيعة وفى المجتمع .

(٤) الإيمان بدور الإنسان فى هذا الكون تحملا للمسئولية وتعميراً لكون الله واستثمارا بضرورة وحدة الأمة الإسلامية .

هذا هو الجوهر الذى ميز الحضارة الإسلامية عن غيرها بالسبق والأصالة فى مجالات العلوم الإنسانية والصوفية .

١ — مفهوم الإسلام فى التوحيد :

الحقيقة عالمان : عالم الله وعالم الخلق ؛ ينفرد بعالم الله موجود واحد لاشريك له هو الله جل جلاله ، هو الخالق الوحيد الفرد الصمد ، أما عالم الخلق فهو عالم الزمان والمكان لكل ما احتوياه من موجودات وحوادث ثنائية ، الحقيقة نهائية قاطعة ، ينفصل العالمان عن بعضهما انفصالا تاما كونيا ووجوديا ، لاحلول ولا اتحاد ولا وحدة وجود ولا تجسد ، ولا يمكن للمخلوق أن يسمو بنفسه إلى مرتبة الخالق ، وبهـــذا يخالف التوحيد مفهوم الفلسفة الصوفية وبعض مذاهب الهندوكية التى أذابت الدنيا فى الله ورفضت الاعتراف بأية حقيقة سوى الله ، المفهوم المغلوط يرى أن العالم المخلوق وكل مافيه لا وجود له ولا حقيقة البتة وإنما هو خيال عابر ، ويخالف التوحيد بالمبدأ ذاته المصريين والأغريق القدماء والطاوية الصينية الذين أذابوا الله (تعالى سبحانه عما يصفونه) فى مخلوقاته ، فقالوا : أنه هو فرعون بلحمه ودمه أو النبات الأخضر أو النيل بمائه ، أو الشمس بحرارتها وضوئها أو مجموع المخلوقات أو أن كل مخلوق الله إذا انتفخت صفاته وتضخمت إلى درجة اللانهاية .

وقد ابتعدت المسيحية كل البعد عن التوحيد عندما دعت أن الله حل فى جسم بشر وتجسم فيه فأصبح المخلوق خالقا ، وإنها لميزة الإسلام الأولى أنه

ركز على حقيقة العالمين أو الطبيعتين — الله الخالق والعالم المخلوق ، وعلى تمام انفصالهما عن بعضها البعض طبعا وطبيعة وأصلا وفرعا وبداية ونهاية .

وبذلك تميز الاسلام وما سبقه من تراث التوحيد الذى جاء به الأنبياء من قبل عن عالم الهند والصين المجاور شرقا وعن عالم مصر والاغريق المجاور غربا فالتوحيد هو جوهر الحضارة الاسلامية،وهو الذىأعطى الحضارةالاسلامية هويتها وهو الذى يربط بين أجزائها وهو الذى يطبع كل مايدخل إليها منعناصر فيؤسلمها ويطهرها فتخرج من عبورها فى التوحيد متجانسة مع كل ماحولها .

هناك خمس حقائق :

(١) عالم الله وعالم الخلق .

(٢) لاصلة بين الخالق والانسان والمخلوق إلا عن طريق الوحى الذى أنزل على النبى . لاعن طريق الاتحاد والحلول أو التألية

(٣) إطاعة أمر الله وإدراك أن للكون خالقاً صنعه .

(٤) لعالم الخلق غاية من وجوده : هى تحقيق إرادة الله .

(٥) فى الانسان قوةعلى تغيير نفسه وتغيير مجتمعه وتغيرالطبقة المحيطة به

أن أسوأ مانزل بنا من كوارث فى العصر الحديث هو انتزاع وحدة الأسلوب من حضارتنا وذلك بإدخال عناصر غريبة على حياتنا دون أن نصهرها ونسويها ونخرجها التخريج الذى يجعلها نسقا متوحدا .

أسلوب العيش (الملبس . بناء بيته . تأثيثه)

العلوم الانسانية والاجتماعية تتناقض مع معطيات الاسلام وخاصة مفهوم الفصل بين الدين والسياسة .

العالم كله مبنى علىإرادة الله وأوامره، وتجريد الطبيعة من كل قوة غيرالله .

ليست المسيحية دين توحيد بل دين يؤكد تجسد الآلة فى الطبيعة ويعتمد التناقض مبدأ للمعرفة لذلك لم تنتج المسيحية علوما طبيعية مدى ألف سنة

تحكمت فى عقول الناس ولم ينتج المسيحيون العلوم إلا بعد أن تحرروا من عدم التوحيد الذى فرضته عليهم المسيحية وبعد أن انتقلت إليهم علوم المسلمين .

وحكمت الهندوكية والبوذية أسيا وجنوب شرقها مدى ألف سنة ولم يتقدم أهلها إلى مستوى الفكر العلمى ولكن ما أن اسلموا ووحدوا الله حتى حققوا وانجزوا بنفس السرعة .

الأمانة التى جاءت فى القرآن (إنا عرضنا الأمانة) هى تحقيق إرادة الله الأخلاقية فالانسان وحده هو قادر على تحقيقها لأنها تتطلب الحرية والاختيار ، إنسانية الانسان فى الحضارة الاسلامية تختلف عن إنسانيات الحضارات الأخرى فالأغريقية ألهته والهت معه فساده ، والمسيحية اسقطته وجعلته كتلة خطيئة لتقدم لالهها تفسيرا لطلبه كعملية انقاذ وتخليص ، الهندولكية صنعتـــه درجات وطبقات من أسفل سافلين حيث لايرجى أمل إلى طبيعة البراهمة المقربين وذلك بتمييع شخصيته بانتقالها من جسد إلى جسد أما البوذية فقد حكمت على الانسان والحياة كلها والوجود كله بأنه شر وفساد .

والانسان فى الاسلام مكلف باشباع غرائزه وحاجاته ، ومكلف بتنمية موارد البشر وإدراك سنن الطبيعة وسنن النفس وسنن المجتمع والتوحيد لايعرف الرهبنة ولا الانعزال عن الناس ولا الزهد فى الدنيا ولا التنكر لها .

« الوازع الأخلاقى يحل التناقض ويحل « الصراع » .

الباب الأول

عطاء الحضارة الإسلامية

إذا ذهبنا نستعرض عطاء الحضارة الإسلامية نجد أن هناك تراثاً ضخماً في مختلف المجالات، في المسجد، وفي العمارة، وفي القضاء، وفي حقوق الإنسان وفي التعليم ونجد معطيات إسلامية في الثقافة والفقه والبروتوكول عطاء متميز له طابع التوحيد الخالص، إبداعي جديد لم تعرفه الأمم ولا الإنسانية من قبل مصدره القرآن الكريم الذي أعطى البشرية علامة رشدها ودخولها مرحلة العالمية، واللغة العربية التي شرفت بنزول القرآن بها، وشريعة ربانية محكمة، جاءت لتعطي النفس الإنسانية أشواقها ومطامحها وتبني مجتمعاً ربانياً خالصاً، على إنقاض حضارات المادية والوثنية والإباحة الفارسية الرومانية والفرعونية ومن ثم فإن هذه المعطيات جديدة باهرة نضرة، من شأنها أن تكشف أمام عقول الشباب المسلم وأرواحه ذلك الإيمان العميق وذلك الفصل الصادق بأسبقية العطاء للبشرية مالم نكن تعرضه من قبل.

تتجلى هذه الحقائق فيما يسمى «المصطلح الشريف».

وفي مفهوم العمارة الإسلامية.

وفي مفهوم الكتابة والخط والفقه.

وكيف تغلبت العربية على اللغات التي كانت قد سبقتها.

كل هذا عطاء واضح مضيء..

(١)

الجذور التى لمعت فى الإسلام

هى التى صنعت المفكرين وليس العنصر أو الجنس أو الدم

لا وجود لطبيعة إنسانية غير تلك التى تنتج عن حافز حضارى عتيد بعقل وقلة فى الجزء غير العاقل من الكائن الإنسانى، ليس الموروث هو المهم من الأمر ، بل المهم تعبيره وكذلك ليس الفرد هو المهم ولكن المهم دوره.

ودوره وتعبيره ليسا نتيجتين للوراثة وأحرى بهما ألا يكونا نتيجتين للسلالة وإنما هى نتيجة لديناميكية الوقائع والقيم التى تواجهها كل حالة بعينها

إن الصراع بين تأثير البيئة والوراثة قد مضى وقته ، لا شأن للسامية أو الآرية فى عبقرية الفكر الإسلامى ، فنحن لاننكر أن كثيرين من مفكرى الإسلام تحدروا من أصل عشر عربى إلا أن المسألة ثانوية جدا لا أهمية لها ، أن المقولات الاجتماعية (بيئة ، دور ، تعبير ، موقف ، دلالة ، إطار نسبى) هى التى لها الصدارة بالقياس إلى المقولات الفردية (فطرة ، سلالة ، غريزة ، وراثه) التى لا وجود لها إلا فى عقول أصحابها .

ومعنى ذلك أن عقوبات الإسلام تدين فى مواهبها لا إلى اعتبارات ضيقة ذلك طابع فردى إذ هذه الاعتبارات تتساوى منها جميع الامم إحصائيا وإنما تدين بها إلى مواقف وملابسات اجتماعية ، أى أن الحضارة الإسلامية العربية الكبرى التى نشأ منها أصحاب هذه العبقريات تدين إلى المواقف التى وقفوها من هذه الحضارة ، إلى القيم التى تتضمنها وإلى الأدوار التى وسدت إليهم ، وإلى المسئوليات التى كان عليهم أن يضطلعوا بها وهم يعيشون هذه الحضارة ، وبكلمة مختصرة إلى المثل الأعلى الجديد الذى كان العرب يحملون مشعله .

إن الأفكار عندما تغزو الناس تفعل منهم فعلا سحريا حتى ليصبحوا وقد اعتنقوا هذه الأفكار شيئاً آخر يختلف عنهم قبل اعتناقهم لها . لذلك فإن عرب ماقبل الإسلام ليسو هم أنفسهم عرب مابعد الإسلام ، كذلك الأمم المغلوبة التى دخلت فى الدين الجديد لم تظل هى نفسها كما كانت قبل أن تدخل فيه . أنهم فئة من الناس ألبتهم أفكار جديدة فأصبحوا قوما جددا ، أن الأمة ليست كومه من الأفراد ، ولا تنحل إلى مجموع أصول أعضائها .

فالفلاسفة والمفكرون ممن يغزو إليهم السطحيون عظمة الفكر العربى الإسلامى لأن بهم نفحه آريه إنما يدينون بعبقرايتهم لا إلى تكوينهم الدينى ، ولا إلى نفحاتهم الآرية المزعومة بل إلى الجذور التى لمت فى الإسلام والتى ترعرعوا فى وقدتها ولذلك فإنى اعتبرهم نتاجا عربيا إسلاميا .

إن مفكرى الإسلام من الأعاجم لا يدينون بعبقرياتهم إلى السلالات التى كانوا ينحدرون منها وإنما يدينون البيئة الجديدة التى شكلتهم .

دكتور محمد عبد الرحمن مرحبا (بتصرف يسير)

(٢)

حقوق الإنسان

أعلنها الإسلام قبل الثورة الفرنسية والأمم المتحدة

أعلن الإسلام حقوق الإنسان كاملة مكتملة منذ أربعة عشر قرنا قبل أن تعلن فرنسا بعضها فى الثورة الفرنسية منذ قرنين وقبل أن تعلنها الأمم المتحدة بنحو ثمانين وثلاثمائة وألف عام ، أعلنها الإسلام فى وقت كان مجرد تشوق الإنسان إلى الله يعرف بعض حقه وإن يعتز بكتابه وأن يصبح حراً فى مجتمعه ، أعلنها لا لشعب بعينه ، ولا لأمة دون أمة ولكنه أعلنها للناس جميعاً فالاسلام لم يحمل أحداً بالقوة على اعتناقه ، وأعلن

أن حرية العقيدة مكفولة فى ظله وتحت رايته ولم يستحب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى دعوة طفيل بن عمرو الدوسى حين رغب أن يرسل معه قوة محاربة على حمل قومه على الاسلام بالقوة وقال : عد إلى قومك فادعهم وارفق بهم وجاءه عليه السلام صحابى من أهل المدينة يسأله أن يحمل ولديه على الاسلام بالقوة فنزل قول الله تعالى :

(لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) — البقرة .

ولم تكن حرية العقيدة وحدها التى عنى بها الاسلام ولكن هناك الحرية الشخصية وحرية القول والنقد والمراقبة (ما نسميه الحرية السياسية) والحرية والمدنية للمتمتع بأهلية التصرف .

أحمد عبد المنعم البهى

(٣)

فن كتابة القرآن الكريم

دراسة المخطوطات الأثرية الاسلامية :

دراسة حفظ المصاحف وما تنطوى عليه من بدائع الفنون والزخارف فنا قائما بذاته لو وقف الاخصائى كلها على دراسته لانقضت سنوات حياته كلها وهو يستكشف من ذلك مالم يسبق معرفته من عجائب هذا الفن ودقائقه .

اطلع الشيخ طاهر الجزائرى على مصحف خطى قديم فى جامع الورد بدمشق مما وقفه الأشرف برسباى ، وهذا المصحف ينبغى أن يعد من عجائب الدنيا ويذكر كاتب هذا المصحف فى ديباجة حررها من أوله أنه وقف على مصاحف مكتوبة بخطوط مشايخ من كتاب العجم فوجدهم التزموا بالتزامات كثيرة ساعدهم عليها دربهم ومارستهم فنون الخط ولكنهم لاجل أن يقوموا بما التزموه وقعوا فى عيوب كان ينبغى

اجتنابها ، مثل كتابتهم بعض حروف الكلمة الواحدة في آخر السطر وبعضها الآخر في أول السطر الذى بعده ومع ما وقعوا فيه من مثل هذا العيب فإن بعضهم وفى بما التزمه وبعضهم قصر عن الوفاء واقصى فنون البدائع التي التزموها كانت دون العشرة .

أما الخطاط العرقى الذى قام بكتابة هذا المصحف العجيب فقد التزم فى كتابه ثلاثين التزاما ، وقد وجدنا بخط شيخنا الشيخ طاهر الجزائرى بيان بعض هذه الالتزامات فمنها أن الثلاثين جزءا التى يتألف كتاب الله عز وجل من مجموعها قد جعل الكاتب كل جزء منها فى ٢١ صفحة كاملة من غير زيادة ولا نقص ، إلا الجزء الأول والجزء الأخير فقد جاء كل واحد منها فى ٢٤ صفحة لأجل التذهيب والتزيين المعتاد فى أوائل أمثال هذه المصاحف النفيسة وأواخرها .

الالتزام الثانى : أن الجزء الذى رقمه وتر (إلى ١ ، ٣ ، ٥ ، ٧) الخ ينتهى بالصفحة اليسرى .

الالتزام الثالث : أن أول كل صفحة يبتدىء ببداية آية وآخرها ينتهى بنهاية آية .

الالتزام الرابع : أن كل سجدة من الأربع عشر سجده المعروفة بسجدة التلاوة عند أبى حنيفة مكتوب آخرها فى آخر سطر من سطور الصفحة المكتوبة فيها .

إلى غير ذلك من الالتزامات التى بلغت ثلاثين بعدد أجزاء القرآن .

وأنت ترى أنه بينما كان أئمة المسلمين وفحول علمائها يقفون حياتهم على خدمة القرآن الكريم جهد طاقتهم وعلى قدر ما بلغته المعارف البشرية فى أزمانهم، كل عالم من جهة إختصاصه ، فبعضهم من جهة اللغة وعلوم اللسان والبيان وبعضهم

من جهة الفقه واستنباط الأحكام والتوسع فى التشريع بحسب مقتضيات الأزمنة والأمكنة وبعضهم من جهة المبادىء الخلقية وتهذيب النفس البشرية وبعضهم من جهة الاستدلال على بديع صنع الله فى كائناته بما وصلت إليه العلوم الكونية والعقلية فى عصورهم فإن الخطاطين وأهل التخصص فى الوراقة والتذهيب والتجليد بلغوا هم أيضا غاية الغايات فى خدمة كتاب الله بمعارفهم ومداركهم وفنونهم ودقيق أذواقهم رحمهم الله جميعاً .

محب الدين الخطيب (الفتح م ١٦)

(٢)

توالت عمليات التحسين فى رسم الحرف العربى ، وشاركت فيها عناصر إسلامية وأجناس بشرية مختلفة ، شأنها شأن معالم الحضارة الإسلامية الأخرى وعلى الرغم من تقدم فنون الطباعة وتطور الحرف الطباعى على حساب الابداع الفنى فقد بقى ليد الخطاط العربى على مستوى الفرد مكانتها ومرونتها وعطاؤها الفنى الفريد ، ولعل أول ما أصاب الخط العربى من تطور كان فى حركات الشكل والحروف الهجائية ، وبحلول القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) كان قد ظهر نوع من الخط الكوفى يتسم بالرشاقة والدقة ، وهو النوع الذى يعرف اليوم باسم الكوفة الشرقى ، وظل النظام فى حركات الشكل والعلامات الهجائيه الأخرى ثابتاً طوال الفترة التى امتدت حتى القرن السابع الهجرى (السابع عشر الميلادى) حيث حدث تطور على مستوى آخر ، فقد حل الورق مكان الرق وبدأ الخطاطون يدخلون الألوان أكثر فأكثر لإضاءة زخارفهم وإخراج نسخ من القرآن الكريم فى كتاب واحد .

وكان مرجع هذا الاهتمام الوحيد هو الاهتمام بالقرآن الكريم والعناية بحفظه قربه إلى الله تعالى ، لحرص المبدعون من المسلمين — على مر العصور على إبتكار أشكال فنية للحرف العربى .

ولمعت أسماء فى عالم المخطوطات القرآنية افنت عمرها فى كتابة المصحف الشريف مرات عديدة ، مما كان له أبعد الأثر فى إبراز خصائص الفن الإسلامى

وتحديد سمات مراحله المختلفة وإثرائه بلمسات من المهابة والروحانية النابعة من وجدان الفنان المسلم التى كان يستشعرها حينما يخط بيمينه أحرف آيات القرآن الكريم .

وقد كان لجمال هذا الخط أثره فى كثير من النفوس : يقول محمد زكريا الأمريكى المسلم أن رؤية لهذه الخطوط واللوحات وهو لا يعرف العربية ولا ينطق بها ولكن مشاعره تأثرت به فلما فهم نص القرآن بمساعدة بعض الأصدقاء المسلمين يقول : لم يعد أمامى أى بديل عن قبول الإسلام وإعتناقه وهكذا فعلت .

وقد وفق الله هذا الخطاط الأمريكى المسلم إلى عمل عشرات اللوحات .

(٤)

العمـــــارة الإسلامية

يبدو النور فى العمارة الإسلامية أساساً .

وفى هذا تختلف هنا عن مثيلتها المسيحية حيث فضلت على الكنيسة عنصر الظلمة والانقطاع عن الحياة حولها .

بدا هذا التناقض فى أشد صورة إيلاماً فى مسجد قرطبة الجامع كان متفتحاً على ما حوله وفى جانبه الغربى المواجه للقبلة حدائق البرتقال ، وأعمدة المسجد رشيقة مرتفعة ومن النوافذ يتدفق الضوء ، كان المسجد موجة من النور تتلاقى مع نور القرآن الكريم يتلوه الامام فى صلاته ويفسره العلماء ويتعلمه المصلون وعندما انحسر الإسلام عن قرطبة واستولى المسيحيون على المسجد حولوا جزءاً منه إلى الكنيسة تبلغ مساحته نحو ١٤٪ ولاختلاف الطبيعتين أغلقوا النوافذ والكثير من فتحات المسجد بحيث أصبح مساحة من الظلمة يحتاج زائره إلى نور صناعى فى النهار وهكذا يتأكد عنصر النور فى العمارة والحياة لا يكون مجرد ضوء ولكن بمفهوم الهداية وحتى المساجد التى بنيت فى أقطار يشتد فيها البرد حاول المعمار المسلم أن يؤكد عنصر الضوء بالنوافذ الطويلة الملونة لتتسع المساحة ويصبح النور جمالا وزخرفا .

ويمكن تتبع العناصر المعماريه لبيان الترابط بينها وبين العقيدة من خلال نماط عديدة ؛ منها الأطباق النجمية في جوانب المنابر ودقة النظام الهندسي وجماله وتشابكه بحيث تستريح العين إلى رؤيته وهي تتنقل فيه من جزء إلى جزء في نظام ووضوح وبروز للمكونات الصغيرة والكبيره والتى ترمز إلى هندسة يتوازن منها الجزء مع الكل والصغير مع الكبير والفرد مع المجتمع والوحدة مع التنوع .

كل هذه عناصر من الألفة والفن الإســلامى وهو فن غير مسبوق في عناصر ليست زخرفية كما زخرف اليهود والنصارى كنائسهم فتلك تعمد على الشخوص أساسا ومشاهد حياة أنبيائهم وقديسيهم وهي مشاهد فيها تصوير البشر والملائكة وآفاق السماء والقصص الدينية بينما الزخرفة الإسلامية تعتمد على الخط والهندسة والتجريد وهي أساليب غير مسبوق في التعبير الفنى .

(٥)

القضاء : قاض مسلم يحكم بخروج الجيش الإسلامى من سمرقند

أن حكم القاضى بخروج الجيش الإسلامى من بلد فتحه لا شبيه له في حياة الأمم الأخرى، وهو حكم أصدره قاض مسلم على جيش مسلم بأكمله يترك البلد الذى فتحه واستقر فيه حينا ، وهو حكم أحدث دويا هائلا وصدى بعيداً في حاضرة الخلافة وفي جوانب الدولة وبين القواد والجيوش وأهل البلاد المفتوحة وذهل له حتى المدعون في هذه القضية .

لقد فتح المسلمون مدينة (سمرقند) التى اشتهرت في الاسلام بعد ذلك بأنها من مواطن الثقافة والحضارة الإسلامية وهي اليوم إحدى حواضر في جمهورية أزبكستان في الاتحاد السوفيتى .

فتحها سعيد بن عثمان في عهد الأمويين ، ثم فتحها عنوة بعد ذلك (قتيبة بن مسلم) في عهد الوليد بن عبد الملك المتوفى م ٩٦ هـ ٧١٥ م

هناك رواية تقول أن أهل سمرقند غدروا بالمسلمين وأجلوهم عنها فرد قتيبة على صنعهم هذا بالتوجه إليهم بجيش كبير فتح به بلدهم ، وترك بها حامية كبيرة منه حتى لا يعاودوا الغدر بالمسلمين . ويقول رواية أخرى أن سعيد بن عثمان فتحها صلحا على مال يؤدونه للخليفه فلما مات وتولى بعده قتيبة بن مسلم قيادة الجيوش الفاتحة لأرض خراسان ، استغل هذا المال الذى يدفعونه وفتح بلادهم عنوة دون أن يخطرهم بنقض العهد السابق وإيذانهم بالحرب .

الروايتان رواهما أبو عبيدة بن معمر بن المثنى المتوفى ٢١٠ هـ ولم يرجح واحدة منها على الأخرى إلا أن منطق الحوادث يؤكد رجحان الثانية على الأولى . ومعنى ذلك أن ابن قتيبة قد فتح سمرقند غدراً وهـذا أمر تأباه تعاليم الإسلام ، ذلك أن الله تعالى يقول مخاطبا نبيه الكريم فى شئون الحرب والمعاهدات :

[وإما تخافن من قوم خيانة فأنبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين] الأنفال

ومفاد هذه الآية إنه إذا كان بين المسلمين وقوم آخر بين عهد ، وخشى المسلمون عدم وفائهم به فلهم الحق فى رد عهدهم إليهم ولا يبادرونهم بالحرب وهم على توهم بقاء العهد ، لأن هذا يكون خيانة فى نظر الإسلام .

والذى فعله قتيبة من أهل سمرقند كان من هذا القبيل ، وقبله أهلها على مضض خشية أن ينكل بهم ، فلما مات وآلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز عام ٩٩هـ وبلغ أهل سمرقند عنه ما ملأ أطراف الدولة وجوانبها من عدله ونصرته للحق ووفائه وبغضه للظالم ، أنابوا عنهم وفداً يلقى الخليفة يشكو له ما كان من قتيبة معهم ، قالوا للخليفة أن قتيبه غدر بنا ظلما وأخذ بلادنا .

وكتب الخليفة إلى سليمان بن أبي السرح عامله على سمرقند كتاب قال فيه : أن أهل سمرقند شكلوا ظلما أصابهم وتحاملا من قتيبة عليهم فإذا أتاك كتابي هذا فأجلس لهم قاضياً يقضى بالحق فى هذه الظلامة .

واستمع « جميع بن حاضر الناجى » قاضى سمر قند إلى ظلامتهم واستدعى شهودهم عليها ثم استدعى شهودا من الجيش الذى حضر الموقعة مع قتيبه فشهدوا بالحق ، شهدوا بأن قتيبه لم ينبذ اليهم عهدهم بل فأجأهم يفتح بلادهم عنوة

فلما وضح الأمر أمام القاضى أصدر حكمه قويا بجلجلا ناطقا بعدالة الإسلام وسماحته . قال القاضى : على الجيش الإسلامى الذى فتح سمرقند بقيادة قتيبه أن يتأهب للخروج منها فورا وكذلك يخرج منها المسلمون الذين دخلوها بعد الفتح وبعد أن يتم هذا ينابذ الجيش أهل سمرقند على سواء (أى يرد اليهم عهدهم السابق مع سعيد بن عثمان) فاما صلح أن أرادوا وأما حرب إذا لم يختاروا الصلح .

كان للحكم رجة فى أنحاء سمرقند إذما كان يتصور أحد أن تعاليم الاسلام تمضى على هذا النحو وتعطى القاضى أن يأمر الجيش بالخروج من بلد فتحه واستقر فيه ولما أخطر الخليفة بالحكم جاء الرد تنفيذ الحكم بحزافيره . وعندئذ أصدر أمره إلى الجيش بالتأهب للرحيل وإلى المسلمين المؤمنيين بمغادرة سمرقند . وفجأة جاء وفد من أهل سمرقند إلى الوالى وابلغوه أنهم تشاوروا فيما بينهم بعد هذا الحكم الذى ما دار فى خلدهم لحظة واحدة أن تعاليم الإسلام لا تضيق بمثله . وأنهم ما كانوا يتوقعون أن هناك قاضيا يجرؤ على مطالبة الجيش الفاتح بالجلاء عن بلد فتحه، أمام هذا وإمام حسن المعاملة لا يسعهم إلا أن يعلنوا تنازلهم عن حقهم والمطالبة ببقاء الحال على ماهو عليه لأنهم لن يخشوا بعد اليوم عذر من ولا ضرا ينالهم وكان ذلك سبب إسلام الكثير من أهل سمرقند: أحمد عبد المنعم البهى (العربى - ١٩٦٦) .

(٦)

المسجد : المركز السياسي للدعوة

اتخذ المسلمون فى الأجيال الأولى مساجد هى قطع من الأرض فصلوها عن

غيرها بخندق يصونها من ولوج الناس اليها دون طهارة ويمنع كذلك دخول الحيوانات اليها وفى بلاد الإسلام جميعا مساجد ليس لها جدران أوعمد أوسقوف وإنما هى مساحات صغيرة مصونه عما حولها بأى صورة تفرش بحصير أونحوه ليقوم الناس فيها بصلواتهم . هذه المساجد البسيطة ترمز ببساطتها إلى جانب هام من جوانب العقيدة الإسلامية فإن عقيدة الإسلام سهـــلة واضحة لاتعقيد فيها ولاتكلف فيها والذين يعجبون بوضوح الإسلام وبعده عن التكلف يعجبون بوضوح الإسلام وبعده عن التكلف يعجبون بهذه المساجد المبسيطة .

يقول القس الكاثوليكى الآب بركروى فى كتابه الخبز والملح .

إن أكثر مامس قلبه وترك فى نفسه وقعا عميقا مناظر تلك المساجد الساذجة والمسلمون يؤدون صلواتهم فيها فى خشوع لايجده ذلك القس فى ضخام الكاتدرائيات . وقال : أنه كان ذات مره فى حافلة تتوقل جبلا دائرة على ممرضيق يدور بالسفح ويطلى على حالق لايقل عمقه عن الفى مترفلما بلغت الحافله منفسحا من ذلك المصعد المخوف أوقف السائق الصيارة تحت حائط الجبل ومضى الركاب معه إلى فسحة لاتزيد مساحتها على عشرة أمتار مربعة بارزة فى الفضاء كأنها شرفة معلقة بين السماء والأرض وتوضأ الرجال من مسيل ماء كأنه الثلج برودة ثم وقفوا صفوفا فى هذه الشرفة المطلة على الموت ووجوههم إلى القبلة . كانت تلك هى صلاة المغرب ، وقد جلس بركروى يرقبهم فى أروع صلاة رآها فى حياته فلما فرغوا من الصلاة وعادوا إلى أما كنهم قال القس لجاره : وأما كان أحسن لو انتظرتم فصليتم المغرب مع العشاء عند الوصول ، أماانتم على سفر .

فقال الرجل وهو يشير إلى الهاوية : والله ما يحفظنا من التردى فيها إلا هو سبحانه فكيف نتأخر عن موعد لقائنا معه .

وعندما إبتنى الرسول صلى الله عليه وسلم حجراته فى ركن من صحن الجامع أصبح المركز السياسى للجماعة كلها فإن نبيها وقائدها يقيم هناك ويجتمع فيه بأصحابه، هنا كان يفد الناس ليتعرفوا أخبار جماعتهم ويتلقوا تعليمات رسولهم الكريم ، فهنا كان المسلمون يسمعون آخر ما أوحى إلى نبيهم من أى القرآن الكريم ، وكانوا يجتمعون بأهل الذكر منهم يسالونهم فى أمور دينهم ودنياهم ، ومعنى هذا إن المسجد لم يكن مجرد مكان لإقامة الصلوات بل أصبح منذ إنشائه جزءا من بناء الجماعة الإسلامية .

لهذا كان أول ما جرى الفاتحون المسلمون على عمله بعد إتمام الفتح العسكرى لأى بلد هو إنشاء المسجد الجامع لأن قيام هذا المسجد معناه امتداد الجماعة الإسلامية إلى ذلك البلد ودخوله فى نطاق دولة الإسلام .

وبإنشاء عقبه بن نافع للمسجد الجامع فى القرآن ٥٠ هـ أصبح لزاما للروح الاسلامى بالمحافظة على ولاية أفريقيا فاصرت على ذلك رغم الثورات المتوالية التى قامت فى هذه الناحية وكلفت المسلمين الوفا من الشهداء حتى استقرت قواعد الاسلام فى البلاد ثم امتدت حتى شملت المغرب كله ، فى أيامنا هذه عندما يفتحون بلدا يرفعون على عاصمة راية الفاتح ، أما المسلمون فكانوا ينشئون مسجدا جامعا دلالة على أن البلد أصبح جزءا من دار الاسلام . والنتيجة السياسية هى أن جماعة الاسلام الكبرى تصبح مسئولة عن هذا الجزء الجديد من دار الاسلام .

وكان إنشاء المسجد الجامع أعلانا لسيادة دين الله سبحانه ولم يكن معناه قط سيادة الغالبين على المغلوبين وفى خطب الجمعة الأولى التى ألقيت فى الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان لا تجد اشارة قط إلى انتصار أو فتح أو غلبة وإنما تجد فيها شكرا لله سبحانه على أن فتح هذا البلد أو ذاك للاسلام . ومن هنا فإن وجود المسجد الأقصى فى القدس الزام للمسلمين جميعا باستعادة القدس واقليمها كله وهو فلسطين

ولم يكن المسلمون الأول يلجأون إلى اتخاذ الكنائس مساجد جامعة فى البلاد التى فتحوها ، وهذا من اختلاق بعض المستشرقين أمثال كايتانى وكريسويل . من عزعليهم أن يسلموا بأن المسلمين ابتدعوا عمارة مساجدهم على نحو فريد

يجمع بين البساطة المطلقة والوفاء بالفرض ويفتح الباب أمام التجديد والابتداع ولقد أكثر الناس الكلام فيما زعمه المقرى المؤرخ من أن المسلمين عندما دخلوا قرطبة شاركوا المسيحيين كنيستها ثم اشتروا النصف الباقي عند مجاء عبد الرحمن الداخل وانشأو جامعهم .

ولقد أراد الأثرى الاسبانى (فيلكس ايرناندث) أن يتحقق من ذلك فقام بحفائر فى كل ناحية من نواحى مسجد قرطبة وذهب مع العمق إلى عشرة أمتار فما وجد أثرا لأى بناء سابق ، لا كنيسة ولا غير كنيسة ، وقرر هذه الحقيقة المهندس الأثرى (ليوبولدو توريس بالباس) فى كتابه عن الفن الاسلامى الأندلسى فى عصر الامارة والخلافة .

وعلى قرار مسجد الرسول قامت فى المدينة المنورة مساجد كثيرة ، وعلى طرازه قامت المساجد الجامعة الأولى فى عواصم البلاد التى فتحها المسلمون :

مساجد : البصرة ، والكوفة ومسجد عمرو بن العاص فى الفسطاط ومسجد عقبة بن نافع فى القيروان والمسجد الأقصى فى القدس ، والأموى فى دمشق ، والجامع بواسط وبعد ذلك تأتى الوف المساجد التى بناها المسلمون على طول تاريخهم .

(عن حسين مؤنس ملخصا ، مجلة العربى)

(٧)

جامعة قرطبة

قال البروفسور ذالماس عميد كلية الطب فى جامعة مونبيليه :

عندما أراد أهـــل مونبيليه فى أوائل القرن الثانى عشر إنشاء جامعتهم وجدوا أن ليس فى مدينتهم الأساتذة العلماء ذوو الكفاءة اللازمة لانشاء الجامعة والقاء المحاضرات العلمية العالية ففكروا فى الاستعانة بجامعات أخرى لســدة الغاية ، نظروا أولا إلى باريس فرأوا إنها ليست أحسن حالا منهم

ثم فكروا فى روما فوجدوا أنها ليست أحسن حالا منها أما انجلترا وألمانيا فكانتا لاتزالان فى الأشواط الأولى فى العلم والثقافة وبعد بحث قرروا أنه لا مناص من طلب تلك المساعدة الفنية من البلد الوحيد الذى يستطيع أن يمدهم بالأساتذة والخبراء الاكفاء ، وهو الدولة العربية فى الأندلس ،اتصلوا بها وعرضوا عليها وضعهم فلبت الحكومة العربية طلبهم وأرسلت إلى مونبيليه ثلاثة من كبار الأساتذة المشهورين بالطب والعلوم والفلسفة ، عكف هؤلاء على مهمتهم وأخذوا ينظمون الجامع ولاسيما كلية الطب كما ألقوا المحاضرات العلمية خلال ثلاث سنوات وبعد ذلك وجدوا أن فى إمكان الأساتذة الفرنسيين الاستمرار فى عملهم دون الحاجه إليهم فاستأذنوا فى العودة إلى أعمالهم فى جامعتهم فى أسبانيا العربية .

(٨)

علامة الاستفهام من اختراع المسلمين

كان اكتشاف أهل الصين لصناعة الورق ، وقد تعلمه العرب كثروة فى أوربا ، فقد ثبت أن تاريخ الطبرى طبع فى بغداد فى أوائل القرن العاشر الميلادى وطبع بالاندلس فى قرطبة مختصر تاريخ الطبرى مع التكملة والزياده عليه من تاريخ أفريقيا للخليفة الحاكم الثانى الذى تولى الامر من سنة ٩٦١ إلى ٩٧٦ ميلادية فيها .

وهـــذا يدحض دعوى الامريكى كارتر القائل بأن فن الطبع ادخله جنكيز خان فى أوربا عند هجومه عليها .

(وجه النجوم نحو أوربا سنة ١٢٠٦ فالعرب سبقوه فى إدخاله فى أوربا بقرنين وربع قرن) .

ولما كان الدين فاتحة كل حضارة ، كان أساسه ومركزه كتابه المقدس

من بحث للأستاذ السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى .

مبدأ التحسين والتنسيق فى كتابه لغة الحضارة ، التحسين والتنسيق والترقيم باللغة العبرية فى الحقيقة ظهرت على أيدى المأسورين من اليهود فى كتابه التوراة وباللغة اليونانية فى كتابه الإنجيل وبالعربية فى كتابة القرآن .

ومن اللغة اليونانية ذاع التنميق والترقيم فى كتابة اللغات الأوربية الأخرى ، بعد أن كان الأمر فى غاية الفوضى ، إلى أن أدخل العرب فن الطبع فى أوربا فى القرن العاشر الميلادى فأصبح سبباً هاما لازالة تلك الفوضى بتوجيه الميول إلى التماثل فى اختيار علامات التنميق والترقيم .

فلما عم فن الطبع فى البلاد وانتشر أدخل فيه (الدوس مانوتيوس) نظاما مرتبا لها فى القرن السادس عشر الميلادى أما اللغة العربية فكانت حالتها مختلفة عن حالة اللغات الاخرى ، إذ لم يكن كلماتها تكتب متصلة بعضها ببعض كاللغات الأوربية فى أول الأمر بقطع النظر عن الخط ، فإنه كان فى دور بدائى ويقدم شيئاً فشيئاً فيما بعد ، وقد بدا التنميق (التنقيط والتشكيل) والترقيم (تعليم الوقف والوصل والسكته) كما قلنا عند كتابة القرآن ويختلف علماء الإسلام فى تعيين من بدأ بهما فيرى معظمهم أن ظالم بن عمرو الشهير بأبى الأسود الدؤلى بدأ بهما من القرن الاول الهجرى بأمر عبد الملك بن مروان ويرى بعضهم أن عبد الملك بن مروان أمر الحجاج وكان بواسط فكلف الحسن البصرى ويحيى بن يعمر بذلك ويرى غيرهم أن نصر بن عاصم الليثى قام بذلك بأمر من الملك بن مروان .

وكانت علامات التنميق والترقيم فى اللغة اليونانية التى منها أخذت اللغات الأوربية المختلفة تتكون من النقط ولذلك كانت الحال فى العربية فى دورها الاول .

قال السيوطى : كان الشكل فى الصدر الاول نقطا فالفتحة نقطة على أول الحرف والضمة على أخره والكسرة تحت أوله) ثم تقدمت تلك العلامات و طورت فأصبحت كما هى الآن أى الفتحة خط صغير مستطيل فوق الحرف والكسرة كذلك تحته والضمة واو صغرى فوقه والتنوين زيادة مثلها

والفضل يرجع إلى الخليل بن أحمد الفراهيدى المتوفى ١٧٠هـ وهو الذى وضع زيادة عليها علامة الهمز والتشديد والروم (علامه لنطق الحركة خفيفة) والاستفهام (علامة لتهيئة الشفتين ، بالتلفظ بالفم ولكن لا تتلفظ به) .

على أن تلك العلامات استعملت فى كتابة القرآن ولم تستعمل فى غيره وقد اخترعت فى كتابة غير القرآن علامات كثيرة بعضها خاص بالعلوم وبعضها عام .

ومن العلامات الخاصة فى علم الحديث

« ثنا » بعد النقط يقصد بها حدثنا .

(انا) بعد النقط يقصد بها أخبرنا .

(ح) وهى صورة الحاء المهملة ويقصد بها التحويل وتكتب فى كتب الحديث عن الانتقال من اسناد آخر إذا كان للحديث اسنادان .

(ح) ويقصد بها فى علم الكلام والمنطق (حينئذ) .

(لمط) للمطرد

(مح) للمحال

(التس) للتسلسل .

آه — إلى آخره .

ومن العلامات الهامة التى اخترعت مثل العلامات الآنفة الذكر علامة للشك والاستفهام ، فكان العرب كما تدل عليه الآثار يستعملونها .

زكريا ياقوت فى ترجمة أبى القاسم بن أدهم ابن محمد بن زكريا قال روى عنه جماعة وحكى عنه بإسناد له أنه قال (كان شيوخنا من أهل الأدب يتعالمون أن الحرف إذا كتب عليه صح) بصاد وحاء كان ذلك

علامه لصحة الحرف لئلا يتوهم متوهم عليه خللا أو نقصا ، فوضع حرف كامل على حرف صحيح وإذا كان عليه صاد ممدود دون حاء كان علامة أن الحرف سقيم إذ وضع عليه حرف غير تام ، ليدل نقصى الحرف على اختلال الحرف ويسمى ذلك الحرف أيضاً (ضبه) أى أن الحرف مقفل بها لم يتجه لقراءة كما أن الضبة مقفل بها » .

ثم علق ياقوت فقال : وهـذا كلا على طلاوة من غير فائدة تامة وإنما قصدوا بكتبهم على الحرف (صح) أنه كان شاكيا من صحة اللفظة فلم صحت له بالبحث خشى أن يعاوده الشك فكتب عنها (صح) ليزول شكه فيما بعد ويعلم هو أنه لم يكتب عليها صح إلا وقد انقضى اجتهاده فى تصحيحها أما الضبة التى صورتها (حد) فإنما هو نصف (صح) كتبه على شىء فيه شك يبحث عنه فيما يستأنفه إذا صحت له اتمها بحاء فتصير (صح) ولو علم علمها بغير هذه العلامة لتكلف الكشط وإعادة كتابة (صح) مكانها .

لاح لنا مما سقنا إليك أن العلامة التى استعملها العرب فى موضع الشك وهو أ كبر مصادر الاستفهام كانت فى شكل الضبة هكذا (ص) وهو نصف صح علامة الصحة واليقين كما شرح لنا ياقوت فى معجم الادباء طبع مصر جـ ٢ ص ٦

وإذا قلبت طرفك وقارنتها بعلامة الاستفهام لدى الغرب وهى هكذا (؟) لم تجد بينهما فرق إلا أن الأخيرة تكتب عمودياً وتوضع تحتها نقطة وعليه فأنا أرى أن أهل الغرب أخذوها من العرب ولا وغيره لى بكونها مكتوبة عموديا أو بوضع النقطة تحتها .

فان معالم الأشياء وأوضاعها تتغير بمرور زمن قليل وقد مضت عليها أكثر من ثلاثة قرون وربع قرن أما علامات الترقيم فى اللغات الغربية فقد ادخلها الدوس مانونيوس المتوفى ١٥١٥) .

أضف إلى ذلك إننا حين نمعن فى التنقيب عن تاريخها لدى الغرب ونتبع

أثارها لا نجد لها مصدراً فى الغرب لأن جميع كتب التواريخ والقواميس فى الغرب متفقه على أن علامات الترقيم فى الغرب أخذت من علامات الترقيم فى اللغة اليونانية ولكن كلها تذكر أن علامة الاستفهام اليونانية لم يكن شكلها مثلما هو الآن لدى الغرب بل كان شكلها و (وقوفها نقطة) وهو دليل قاطع على أن علامة الاستفهام لدى الغرب لم تؤخذ من علامة الاستفهام لدى اليونانية فإنه لايوجد شبه بينهما ولذا أرى أن أهل الغرب أخذوها عن العرب بالأندلس وأنها كما بينا من اختراع العرب .

(٩)
أول كتاب فى الفقه الإسلامى

يرى الدكتور غريفيني (جامع ميلان) أن أول كتاب صنف فى الفقه الإسلامى هو مجموع الفقه تصنيف الإمام الشهيد ابن الحسين زيد بن زيد العابدين على ابن الحسن بن على بن أبى طالب الذى ظهر فى أيام هشام بن عبدالملك سنة ١٢٢ هـ

ودعى إلى نفسه فرماه رجل من العرافين بسهم ماصابه قال صاحبه وراوية أبو خالد عمرو بن خالد الواسطى : فى خاتمة كتاب مجموع الفقه المذكور :

سمعت هذا الكتاب من زيد بن على قال سمعناه من كتاب معه كان قد وطأه وجمعه فما بقى من أصحاب زيد ممن سمعه معى إلا قتل غيرى ثم قال أنه صحب زيد بن على بالمدينة قبل قدومه إلى الكوفة خمس سنين (١١٨ — ١٢٢ هـ) أقيم عنده كل سنة أشهراً كلما حججت لا أفارقه حتى قدم إلى الكوفة حتى قتل فما أخذت عنه حديثاً إلا وقد سمعته مرة أو مرتين وثلاثا وأربعا وخمسا وأكثر من ذلك .

والمجموع الزيدى هو مجموع مسائل جمعها لزيد وراويه أبو خالد الواسطى والكتاب مشهور فى بلاد الزيدية ومذكور عند أئمة أهل البيت . وبالنظر إلى وقت ظهوره لاتخفى أنه من أهم النصوص التاريخية لمعرفة أول ما صنف فى الفقه وهو ستة إجزاء مشتملة على عدة كتب وأبواب (الهلال م ٢٧)

(١٠)
المصطلح الشريف

فى الدول الإسلامية والمصرية

عرفت الدول الإسلامية نظم البروتوكول فى عصر متقدم جداً كما عرفت نظم التمثيل السياسى ، بعلائقه الخارجية والمفاوضات السياسية والمكاتبات الدبلوماسية والاستقبالات الملوكية التى كانت تجرى فى الدول الإسلامية وفقاً لقواعد وتقاليد خاصة تراعى منها ظروف الدول أو الأمر الذى تعقد معه العلائق أو تجرى معه المفاوضة أو المراسلة .

وكان أمر هذه العلائق والمفاوضات يرجع بالأخص إلى ديوان الكتابة والرسائل أو ديوان الإنشاء .

وفى هذا الديوان نشأت أصول البروتوكول وتقاليده فى الدول الإسلامية ، وقد تأثرت هذه الأصول والتقاليد الدبلوماسية فى البداية بتقاليد الدول البيزنطية التى كانت أعرق الدول القديمة نظماً وحضارة ولكن الدول والعصور الإسلامية استطاعت قبل بعيد أن تنشىء لها نظماً ورسوماً خاصة تتميز بطابعها الإسلامى

وقد بلغت هذه النظم والرسوم فى دول السلاطين المصرية أوج الدقة والفخامة والبهاء خصوصاً منذ خاضت مصر غمار الحروب الصليبية وتولت زعامة مصر فى المشرق ضد النصرانية واشتبكت فى خصومات ومحالفات وعلائق دبلوماسية لا نهاية لها .

وكانت مجموع الرسوم والاجراءات التى تجرى عليها دولة السلاطين المصرية فى هذا الميدان تعرف [بالمصطلح الشريف] الذى كان يشمل رسوم العهود والمفاوضات ورتب المكاتبات السلطانية الداخلة والخارجة وعلى إجراءات المناشير والمراسيم والتوقيعات .

والمصطلح الشريف فى الدول الإسلامية تقابل فى عصرنا نظم البروتوكول تقريباً ولو أنه أوسع مدى ، وكان لهذه النظم فى البلاط المصرى فى العصور

الوسطى أصول وتقاليد راسخة تثير الدهشة والإعجاب بدقتها وروعه تنسيقها وكيف كان البلاط المصرى علما ينظم هذه الدول وتقلباتها السياسية وسير علائقها الدبلوماسية كفرنسا وألمانيا وانجلترا وكان البلاط المصرى يتبع شئون هذه الدول وأحوالها بمنتهى الدقة .

وقد انتهى إلينا فى هذا الموضوع أثران فى منتهى الأهمية والطرافة أولها كتاب (التعريف بالمصطلح الشريف) لشهاب الدين بن فضل الله العمرى المتوفى ٧٤٩ هـ وصاحب الموسوعة الجغرافية الشهيرة ومسالك الابصار فى ممالك الأمصار .

والثانى كتاب صبح الأعشى لأبى العباس القلقشندى المتوفى ٨٢١هـ وهو موسوعة عظيمة حافلة وكان العمرى على رأس ديوان الانشاء والرسائل أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون فنهض به وملأه بأثاره واستحدث فيه كثيراً من الوسوم والضبع وكتب كتابه (التعريف بالمصطلح الشريف) يشرح فيه رتب المكاتبات وإجراءات العهود والتقاليد والتفاويض والمراسيم والمناشير وصنفها وقدم نماذج عديدة من الوثائق والمكاتبات الرسمية والدبلوماسية .

(محمد عبد الله عنان)

(١١)

الترقيم فى اللغة العربية

أحمد زكى باشا شيخ العروبة فى رسالة الترقيم فى اللغة العربية استنبط أسماء خاصة لعلامات الترقيم العشرة :

(١) النقطة .　　　　(٢) الشولة المنقوطة ؛

(٣) الشوله ،　　　　(٤) النقطتان :

(٥) نقط التعليق (أى الحذف والاضمار) . . .

(٦) علامة الاستفهام ؟

(٧) علامة الانفعال !

(٨) الشرطة —

(٩) الشناتر « » أو « »

(١٠) القوسان ( )

(١٢)

تغلب العربية على لغات أهل البلاد

عندما ظهر الإسلام كانت لغة أهل مصر القبطية ولغة أهل النوبه (النوبية) البربرية ولغات أهل الشام وما بين النهرين (السريانية والكلدانية والنبطية والارامية) وكانت اللغة اليونانية تشرف عليها لأنها لغة الخاصة ورجال الدولة وبعض رجال الدين وكانت اليونانية واللاتينية اللغتين الرسميتين فى تلك البلدان فلما فتح العرب هاتين المملكتين فى بضع عشرة سنة تركوا كل أمة على مذهبها ولسانها فأبقوا الدواوين أولا فى كل مملكة بلسان أهلها فكانت دواوين مصر تكتب باللغة القبطية دواوين سوريا باليونانية وفارس بالفارسية ثم حولوها بعد ذلك إلى العربية حينما أفضى الملك لبنى أمية ، فلم يمض القرن الأول للهجرة حتى صارت تكتب كلها بالعربية فاضطر أهل البلاد إلى تعلم لغة أهل الدول تسهيلا لقضاء مصالحهم كما اضطر من أسلم منهم إلى تعلمها لأنها لغة الدين .

ومجمل أسباب انتشار اللغة العربية ثلاثة :

أولا : إنها لغة الدين (لغة القرآن والحديث وسائر كتب الدين) .

ثانيا : لغة الحقوق الرسمية .

ثالثا : لغة العلم .

فلم يمض بضعة قرون حتى تغلبت العربية على لغات أهل البلاد المفتوحة ، وتغلب العنصر العربى على عناصرهم ، وأخذت فى الانتشار إلى أن ملأت الخافقين ، فمصر والشام والمغرب كانت عند الفتح العربى ولايات تابعة للدولة الرومية فى السياسة والمدنية وكان العراق تابعا لدولة الفرس .

وقد توالت عليها كلها القرون الطويلة وهى راضخة لنير الدول المختلفة التى استولت عليها ولذلك ذهبت لغات هذه البلاد وعاداتها عن ما فتحها العرب وسرعان ما صار أهلها عربا عنصراً ولسانا وهم فى الأصل اخلاط من أمم شتى فضلا عما أضيف إليهم بعد ذلك من جالية الأتراك والأرمن والجركس والأكراد أو غيرهم فأضاعوا جنسياتهم بإهمال لغاتهم .

لذلك فإن اللغة العربية لم تنتشر فما تقدم من البلاد إلا لأن أهلها أيضا مع استعمار بلادهم كانوا يتكلمون بلغات ساميه تشبه العربية بل هى من إخواتها كالسريانية والفينيقية والنبطية والعبرانية وغيرها من اللغات السامية فسهل على أهلها تعلم العربية لقربها من لغاتهم ولم يروا فيها الغرابة التى يجدها الهندى والفارسى فى تعلمها .

ولقد أصاب القبطية فى مصر ما أصاب اللغات القديمة التى تألقت أنوارها فى غابر الأزمان فنمت وذهبت حينا ثم تضائل ضوؤها وانطفأ سراجها ، فإن العرب لما فتحوا مصر تحت قيادة عمر بن العاص وجدوا أن اليونانية قد أصابت القبطية بجرح يبلغ فسلطوا عليها لغتهم وهى فى عزتها وتمام نموها فلم تلبث أن أجهزت على الجريح حتى مات ، وقد اضطر الاقباط إلى درس العربية لمشاركتهم فى معاملة العرب وأعمال الدواوين ولعل كثيرين منهم أسرعوا إلى تعلم العربية بغضا للدولة البيزنطية الحاكمة عليهم سابقا بصلف وتجبر فما مرت ردهة من الزمان حتى شاعت العربية بين خاصة المصريين وعامتهم .

(١٣)

أسماء النجوم عربية

الغالبية العظمى من أسماء النجوم وصفها العرب ، غير قسم ضئيل احتفظ بالأسماء اللاتينيه أو الاغريقية ، أو استطاع العلماء الفلكيون الغربيون أن يترجموا هـــذه الأسماء بعد أن أخذوا علمهم كله من العرب مثال على ذلك :

الشعرى اليمانية Sirus

العيوق Capella

السماك أو الرامح areturus

النسر الواقع Voye

قلب العقرب antareo

هذا قليل بالنسبة إلى بقية النجوم التى تملأ القبة الفلكية وهذه لاتزال تجد حتى يومنا هذا أن علم الفلك الحديث يستعمل أسماءها العربية ونجد بعض الخرائط والكتب الفلكية تضع معنى الكلمة "عربية بجوارها بين قوسين .

وفى دراستنا لهـــذه الأسماء ، ندرك أن العرب كانوا على إلمام بعيد المدى بمواقع النجوم والمجموعات الفلكية فالأسماء لم توضع اعتباطا وإنما وضعت لتدل على ماهية النجم فى المجموعة التى هو عضو فيها .

وقبل أن نضرب أمثلة فلكية على ذلك علينا أن نعرف أن النجوم الموجودة فى القبة الفلكية ثابتة بالنسبة لبعضها البعض لاتتحرك من مواقعها أو على الأقل ، هذا هو مانستطيع أن ندركه بنظرنا المجرد أو

بواسطة التلسكوب فى مدى حياة الإنسان ومدى حياة بضعة أجيال من بنى الإنسان ، هذه النجوم على اختلاف لمعانها وألوانها تتجمع فى بقاع معينة وهى تتجمع كل بضعة نجوم منها ترسم لنا شكلا هندسيا يظل ثابتاً أمام أعيننا وقد كان أمام أعين أجدادنا .

وقد استدل الأقدمون — البابليون والاغريق ثم العرب — على أن هذه الأشكال تمثل أشياء معينة قد تكون حيوانات أو أشخاصا أو اسماكا أو أدوات فسموا كل شىء باسم الشىء الذى يدل عليه .

ونضرب مثلا على ذلك « مجموعة العقرب » فإنك إذا وقفت فى إحدى ليالى الصيف موليا ظهرك للشمال ، ناظراً إلى الجنوب فسوف ترى مجموعة تعلو عن الأفق قليلا ولها شكل العقرب فلها مخلبان وذنب طويل ملتو وزبانى وسوف ترى نجما كبيرا جدا ماوراء المخلبين ذا لون أحمر اسمه « قلب العقرب » وهو أحد النجوم القليلة التى فقدت الاسم العربى فى الفلك الحديث فأصبح اسم Antares ومعناه منافس المريخ .

وهذا النجم من أشد النجوم أحراراً فى السماء وهو أكبر نجم معروف لدينا فقطره أربعمائة مليون ميل (بالمقارنة إلى قطر الشمس الذى يبلغ أقل من مليون ميل) .

ويبعد عنا ثلاثمائة وستين سنة ضوئية .

أما بقية نجوم العقرب فتحمل أسماءها العربية (النياط) بجوار قلب العقرب والجبهة ، والجبهة موجودان فى مقدمتها وقد تكون أولاهما الضبة .

وهناك سارفاس (وقد تعنى السارقة) أما الشولة واسمه فنى طرف الذنب .

وهذه المجموعة تعرف أيضاً ببرج العقرب عند من يؤمنون بالتنجيم فهى واحدة من أثنى عشرة مجموعة تقع على المستوى الذى يسير فيه القمر والكواكب والشمس ويقول المنجمون بأن مرور الكواكب فى

هـذه الأبراج لهـــا أثر على مقدرات الإنسان (وهو قول باطل لا أساس له) .

وج العقرب يظهر فى أشهر الصيف .

وهناك مجموعة الدب الأكبر : وهى أول مايلفت نظر الإنسان إذا رفع بصره فى ليلة مظلمة أو حتى فى الليالى التى يطلع فيها القمر .

ومع أن هذه المجموعة بعيدة الشبه عن الدب إلا أن شدة لمعان نجومها تجعلها واضحة جدا ، ونجد أن العرب قد أعطوها أسماء متفقه مع الشكل الذى تصوره .

فأصبحت أسماؤها الحالية فى علم الفلك الحديث كما يلى :

الدبة Dubha

المعرق Merak

الفخذة Phecda

المقرز Marez

اليوت Oleotr

وقد يكون الليث هو صفحة العنق ثم المئزر (mizar) وفى النهاية أى فى طرف الذنب نجم اسمه بنت نعش أو الـكائد . Benetnasth

. ومما هو جدير بالذكر هنا أن (المئزر) نجم ثنائى ويمكن رؤيته بالتلسـكوبات الصغيرة حتى تلك التى تـكبر خمسين مرة فقط ؛ فهو فى الواقع نجمان يدوران حول مركز مشترك ويبعدان عن بعضهما البعض مقدار بعد الأرض عن الشمس ثلاثمائة وخمسين مرة . وقد دل التحليل الطيفى أيضاً على أن كل نجم منهما مكون من نجمين يدوران حول بعضهما بشكل لولبى . وعلى ذلك فالمئزر هو فى الواقع أربعة نجوم .

وبالقرب من المئزر يوجد نجم صغير اسمه (القر) ومعنى الكلمة البرهان باللغة العربية فقد كان القدماء يتخذون منه برهانا على صحة بصر من يستطيع رؤيته وإذا حاولت أن ترسمه خطأ يبتدىء من (المفرق) إلى (الدبه) وبمده على استقاميه بمقدار خمسة أمثال المسافة بين هذه النجمين فإنك تجد نجما لا معاً هو النجم القطبى فإذا امعنت النظر تجد أنه جزء من مجموعة أخرى من النجوم لها شكل يشبه شكل الدب الأكبر شبها كبيرا ولهذا تسمى الدب الأصغر وهذا الدب فى اتجاه معاكس للدب الأكبر ، أى أن رأس أحدهما فى اتجاه ذنب الآخر .

أما النجم الموجود فى رأس الدب الأصغر فاسمه (الفرقد) Phestad والنجم اللامع الآخر المجاور له اسمه الكوكب Kochab وعندما تسمع فى الشعر العربى كلمه الفرقدين فالشاعر يعنى الفرقد والكوكب .

وهناك مجموعة الحاوى والحية وهما فوق العقرب مباشرة واكتشافها غير صعب الآن .

وتستطيع أن تتصور هيئه شخص أو شبه شخص يمسك بيده أفعى تتلوى والنجم الموجود فى رأسه اسمه رأس الحاج (Rus ALhague) أما كتفه فيكون من نجم أسمه الكلب Che Lsb وله يدان اليد الأمامية yed Prior واليد الخلفية yed Posterior أمام النجم الذى يمثل أعلى فخذه الأيمن فاسمه (السابق) abvk وفى الساعد الأمامية نجم اسمه المرفق Mar Fik .

أما فى الحية فأكثر نجمين لامعين فيها هما عين الحية umuk al Hay و (اليه) Lya ويقول أحد الأطالس الإنجليزية أن الأخيرة معناها ذنب الأفعى فى اللغة العربية .

مهما يكن من أمر فالنجوم باستثناء البضعة القليلة التى مركزها ليس لها أسماء أخرى غير أسمائها العربية حتى فى علم الفلك الحديث .

عبد الرحيم بدر (العربى)

(١٤)

الأحكام السلطانية

كتابان فى موضوع الأحكام السلطانية أحدهما لأبى الحسن على بن محمد الماوردى الشافعى والآخر لابن يعلى محمد بن السيد الفراء الحنبلى .

الكتابان يبحثان فى موضوع واحد ، هو السياسة الشرعية ويتبادلان أبحاثا متشابهة ويعالجان مشاكل واحدة ويتقاربان فى زمن ظهورهما لأن المؤلفين معاصران لبعضهما (القرن الخامس الهجرى) .

يقدم الماوردى الأحكام على مذهب الشافعى ، أما أبو يعلى فتقدمها على المذهب الحنبلى .

عاش الماوردى منذ منتصف القرن الرابع للهجرة حتى منتصف القرن الخامس للهجرة وقد كان العصر عصر انحلال سياسى فى الدولة الإسلامية إذ تجزأت المملكة إلى دول صغيرة ولم يبق بيد الخليفة غير بغداد وأعمالها وكان منصب الخلافة نفسه بيد القواد من الترك والديلم .

ومما يدعو إلى الاستغراب حقاً أن تكون عصور الفوضى السياسية من أخصب العصور الإسلامية فى الانتاج الفكرى من علوم وآداب وفنون ، ولكن هذا الاستغراب يزول إذا ما نظرنا إلى الأسس التى وضعها الخلفاء العباسيون الأولون أمثال المنصور والرشيد والمأمون فوصلوا بالدولة إلى أوج عزها السياسى واستقرارها الداخلى وإن الأمراء والملوك الذين انفصلوا عن مركز الخلافة كانوا يتنافسون فى تعضيد العلوم والآداب وتعريب العلماء وتشجيعهم ، وقد كان الماوردى ممن حظى بنصيب وافر من هذا التشجيع فقد كان مقرباً من الخلفاء العباسين بدلالة مايذكره ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٥٠ من كتابه الكامل وما يذكره صاحب معجم الأدباء من أنه كان ذا منزلة من ملوك بنى بويه يرسلونه فى التوسطات بينهم وبين من يناوئهم ويرتضون بوساطته ويثقون بتقريراته .

وله الى كتاب الأحكام السلطانية كتاب قوانين الوزارة .

وقد ولى القضاء فى بغداد ولقب بأقضى القضاة عام ٤٢٩ .

أما أبو يعلى فقد كان معاصرا للماوردى (٣٨٠ — ٤٥٨) .

قضى شطرين كبيراً من حياته ببغداد حيث كان الماوردى .

وولى القضاء فى حريم دار الخلافة فى عهد الخليفة القائم بأمر الله . وأنه كان أمام الحنابلة فى عهده . صنف ما يربوا على السبعين كتابا أكثرها فى علوم القرآن وتفسيره وفى الفقه والأحكام السلطانية .

أحمد عبد الباقى (الثقافة)

(١٥)
حلقات العلم

أخبرنا العلامة شمس الدين بن الصائغ الحنفى ، إنه أدرك بجامع عمر بن العاص بمصر بضعا وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه (٧٤٩) هـ وفى سنة ٧٦٧ حدد الأمير يلبغا العمرى الخاصكى دروساً بجامع ابن طولون وعين فيه سبعه مدرسين للحنفية وقرر لكل فقيه من الطلبة فى الشهر أربعين درهما وأردب قمح .

أما الجامع الأزهر فكان يفتح أبوابه لكل الوافدين سواء من ريف مصر أو من البلاد الأخرى كالمغاربة والعجم والزيالعة فلا يزال عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم كالفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ (عبد العال سالم مكرم)

(١٦)

الفتوة

لم يجيء لفظ (الفتوة) فى الكتاب والسنة وإنما جاء فى كلام السلف وأقدم من تكلم فيها جعفر الصادق ثم الفضيل ثم الإمام أحمد وسهل والجنيد ولهم فى التعبير عنها ألفاظ مختلفة .

ونجد صاحب تاج العروس يعزو الفتوة إلى الامام جعفر الصادق وقد كان صدر الدولة العباسية وإليه أيضا ينسب علم الكيمياء وقد وجدت فى مجمع البحرين للطريحى (والفتى أيضا السخى الكريم) وفى الحديث تذاكرنا عن الصادق أمر الفتوة فقال : اتظنون أن الفتوة بالفسق والفجور إنما الفتوة والمروءة طعام موضوع ونائل مبذول إلى أن قال أما تلك فهى شطاره والشطاره الخبث والشاطر هو الذى أعيى أهله خبثا وقد مدح الغزالى الفتوة فى أحياء العلوم وذكر بعض المؤرخين أنه فى آسيا الصغرى جمعيات إخوه تتبع نظام الفتوة وتكرم الغرباء وتساعد الفقراء ولهازوايا والبسة وتقاليد خاصة وأنها من تقاليد المسلمين النافعة القديمة التى اضعناها فلو أننا احتفظنا بها لكان خيرا من الكشافة .

قال الجوهرى فى الصحاح : والفتى السخى الكريم يقال هو فتى بين الفتوة وقد تفتى وتفانى وجاء فى القاموس واللسان وأقرب الموارد وفرائد اللغة هذا .

وتعلق اللغويون بازيال الكرم والسخاء هذه الفضيلة ذات القيمة الغالية فى حياة الصحراء العربيه الجدبة ، ولكن من سياق أبيات المتنبى وطرفة ابن العبد معانى بعيدة فإنك تحس أنهما يريدان بالفتوة الشهامة والفروسية والرجـــولة ومايقارب ذلك من مظاهر القوة والصبر مع المكارة والشده وصلابة العود والنجدة .

قال طرفه بن العبد :

إذا القوم قالوا من (فتى) خلت انى　　　عنيت فلم اكسل ولم اتبلد

قال المتنبى :

لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم إنى الفتى
وإنى وفيت وإنى أبيت وإنى عتوت على من عتا
وما كل من قال قولا وفى ولا كل من سيم خسفا أبى

من بحث لضياء الزحيلى (الرسالة ١٩٤٨)

(١٧)
رحلات العرب التجارية

رحلات العرب التجارية إحدى العوامل الأساسية فى انتشار الاسلام وهى من العوامل الرئيسية فى التوسع الاسلامى بعد حروب الفتح الأولى .

ولاريب أن توسعات الاسلام فى جنـــوب شرق آسيا ونواحى أفريقيا وغيرها كلها كانت نتيجة تحركات التجار والدعاة من الصوفية والعلماء .

وقد أقام العرب علاقات تجارية ناجحة مع الهند والصين ومع مختلف أجزاء أفريقيا الشرقية والغربية والشمالية ، وكذلك مع الروسيا وشمال غرب أوربا ، بمانى ذلك السويد والدانمرك وحملت بغداد والاسكندرية لواء هذه النهضة التجارية فقد تمكنتا من تحديد أسعار كثير من البضائع فى العالم فتدفقت الأموال على العرب ليعم الثراء والرخاء ومظاهر الترف حياتهم .

وفى هذا الموقف نفسه الذى امتد فيه نشاط العرب إلى معظم دول العالم المعروف إذ ذاك كانت أوربا — كما يقول جوستاف لولون — تشك حتى وجود بلاد الشرق الأقصى ولا نعرف من أفريقيا سوى بعض شواطئها الساحلية .

وكانت سفن المسلمين التجارية تتحرك من موانئ الخليج العربى وخاصة

---

(١) عن بحث للاستاذ ابراهيم الصيحى مع مراجعة لكتابات برنارد لويس وجوستاف لوبون .

سيراف والبصرة التي كانت تسمى باب بغداد الكبير ، وكذلك من عدن ومن موانئ البحر الأحمر إلى جزر الهند الشرقية وسيام والصين حاملة معها المتاجر العربية في رحلة بحرية مرهقة تستغرق من ساحل الخليج حتى الهند فترة بين الشهر أو الشهرين حسب مدى موافاة الأحوال الجوية ، كما وصلت القوافل التجارية برا إلى الهند أيضا عن طريق بوى سلسكوه ماراً بشرق فارس وكشمير وكانوا يحملون معهم للهند السكر والزجاج والاقمشه والزيوت والعطور وماء الورد والحبوب ويعودون من الهند بالحرير والقصدير وأنواع من الاوانى والأطباق والمقاعد وخشب الساج المشهور بصلابته وقوته وكذلك الخشب الإحمر الصافى الذى لايؤثر فيه السوس وهو الذى صنع منه كل ما احتاج إليه مسجد قرطبه عن أبواب وغيرها

وقد وثق التجار العرب علاقاتهم أيضا بشبه جزيرة ملقا (الملايو) واتخذوا من مدينة (كله) مركزا لنشاطهم وهى ميناء هام يقع على خط الاستواء وكانت محطا للتجار القادمين من الصين أو العراق على السواء وكانت اسواقها عامره بأخشاب الصندل وجوز الطيب وجوز الهند . . .

وكانت الهند هى همزة الوصل بين العرب والصينيين ، فلما وصل المسلمون إلى الهند بحرا وشعروا باتقانهم لفنون البحر وسيطرتهم عليه لم يترددوا فى المخاطرة بسفنهم فى رحلات توصلهم إلى الصين بطريق البحر ونجحوا فعلا فى تحقيق بغيتهم وذلك عن طريق السير بمحاذاة شاطئ الهند حتى ملبار ، ثم الاتجاه مباشرة نحو الصين ، فوصلوا (كانتون) وكانوا يفضلون الطريق البرى الذى يمر بسمرقند وتركستان ويسمى طريق الحرير لأن القوافل كانت تحرص على جلب الحرير بصفة خاصة من الصين .

وتوقفت الصلة التجارية بالصين بعد أن قبل نصر بن أحمد السامانى حاكم بخارى أن يتزوج ابنه ملك الصين (٣٣٢هـ) ففتحت أبواب الصين للتجار المسلمين على مصاريعها ومنحوا جوازات سفر تسمح لهم بالتوغل فى داخل البلاد بقصد الاتجار مع المواطنين وقد ساعد ذلك على اغراء بعض التجار العرب بالبقاء فى الصين والاستقرار فيها وحينما حلوا لقضاء الترحال والقوها هناك حملوا معهم دينهم الاسلامى

ونشروه فى بعض الجهات وخاصة فى (بكين) التى تضم وحدها الآن قرابة ربع مليون مسلم ولهم فيها أحد عشر مسجدا ، كما تمركز عدد كبير منهم فى (خانفو) جنوبى شنغهاى حتى بلغوا فيها اليوم قرابة العشرين مليون وقد حمل التجار العرب إلى الصين الحجارة الثمينة والمرجان والمنسوجات الصوفية والتمور والسكر والسيوف والآنية الزجاجية وغيرها وعادوا محملين بالورق والمنسوجات الحريرية بوجه خاص والفيشانى والمسك والكافور والتوابل وبعض المستحضرات الطبية .

كما وطد المسلمون صلاتهم التجارية بأجزاء متعددة فى افريقيا لم يدخلها أجنبى من قبل ووصل بعضهم إلى اصقاع مجهولة فى قلب القارة الافريقية وحطوا هنالك رحالهم وترتب على ذلك نشر الاسلام وفى أماكن يتعذر اليوم على الكثيرين الوصول اليها الا بمشقة بالغة مما يدل على مدى تغلغل التجار المسلمين فى انحاء القارة .

وكان العرب يلقون دائما أطيب معاملة من الأهالى فى المبادلة ببضائعهم ومد العرب منطقة نفوذهم التجارى إلى أوربا أيضا وكونوا علاقات مع سكانها وساعدهم على ذلك أنهم - أى العرب كانوا سادة البحر المتوسط الذى ظل فترة طويلة بحيرة اسلامية تجوبها السفن فى أمان وبانتظام ، وكانت تحمل الانتاج العربى وخاصة النسيج بأنواعة والحلى والآنية المنقوشة والبسط إلى جانب المسك والعود والكافور ، وتعود محملة بالفراء والخز وجلود الثعالب والسيوف والدروع والقلانس والخشب الخاص ببناء السفن .

وكانت محطات السفن فى قادش ومالقة وقرطاجنة مراكز نشاط تجارى هام فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، كما كانت الاسكندرية هى المركز الرئيسى المماثل فى الحوض الشرقى .

وقد امتدت العلاقات التجارية من العرب وأوربا إلى شمال هذه القارة ، فقد اعثر على لآلاف من العملات العربية فى منطقة البحر البلطى والسويد وخليج

فنلندا مما يؤكد وصول العرب إلى تلك الجهات ويرجح أنهم سلكوا فى رحلاتهم نهر الفولجا إلى مدينة بلغار وهى المعروفة الآن باسم (سنبرسك) وكانت مركزا تجاريا هاما وحلقة اتصال بين آسيا وأفريقيا وقد أكد وجود العملات الاسلامية فى شمال غرب أوربا على أزدهار التجارة العربية وقيام علاقات مزدهرة بين الامبراطورية الاسلامية وبلاد بحر البلطيق عبر بحر قزوين والبحر الأسود .

وفى أفريقيا كانت الطرق التى سلكها التجار العرب إلى قلب القارة هى نفسها الطرق التى دخلو منها الاسلام إلى أفريقيا .

وكان فى مقدمة القبائل التى أعتنقت الاسلام ، (قبائل الطوارق) التى تعيش فى قلب الصحراء وأصبحت الآن من أشد المسلمين تعصبا لدينهم، وإيمانا به ، ولم تكتف هذه القبائل باعتناق الاسلام بل بذلت مجهودا إيجابيا ضخما لنشر الدين الجديد بين القبائل المجاورة والقريبة ، وفعل نفس الشىء أبناء قبائل (المرابطين) الذين اعتنقوا الإسلام على يد (عبد الله بن ياسين) وكان لهذه الجماعة فضل نشر الإسلام فى أنحاء واسعة ممتدة من السنغال وغرب أفريقيا ثم تمكنت من تأسيس دولة المرابطين التى تميزت بقوتها ونفوذها وسطوتها فى شمال أفريقيا والاندلس ، وظلت هذه الدولة تنشر دعوتها الدينية فى آفاق أخرى جديدة وبجهدها وحدها تمكنت من مدارقعة الإسلامية إلى أطراف السودان وأصبحت مدينة (تمبكتو) الواقعة على طريق التجارة بين السودان وشمال أفريقيا مركزاً إسلامياً هاماً كما أصبحت الممالك الواقعة بين نهر النيجر وشاطىء بحيرة تشاد العربية والشمالية تدين بالإسلام .

وفى الحبشة استقرت أعداد كبيرة من التجار المسلمين الواقمين فى المنطقة الساحلية ، وهذه الأعداد هى التى نشرت الدين الإسلامى بين الأهالى الذين أقبلوا عليه ومن الساحل توغل المسلمون إلى الداخل .

والمسلمون فى الصومال مائة فى المائة مع أن هذه المنطقة لم يدخلها جندى

عربى واحد ، ولكن قوة الإسلام الذاتية هى التى فرضت نفسها كما أن هذه النسبة تجدها فى أكثر من جهة على الساحل الغربى للقارة أيضاً .

أما فى أسيا فقد انتشر الإسلام مع التجار القادمين من الجزيرة العربية والذين استقروا فى أجزاء مختلفة من جنوب أسيا وغربها .

وقد رأينا كيف وصل المسلمون إلى شواطىء الهند وجزر الهند الشرقية والهند الصينية والصين يحملون معهم السكر والقطن والعاج ولكنهم حملوا معهم فى نفس الوقت ما هو أهم من ذلك كله: الإسلام.

وفى جزر الهند الشرقية (أندونيسيا الحالية) تغلغل المسلمون فى المناطق الساحلية والداخلية على السواء ونشروا الإسلام ، الذى أقبل عليه السكان طائعين ، وكان تزاوج التجار العرب المسلمين من الوطنيات من أكبر عوامل نشر الإسلام إذ أدى إلى استقرارهم وامتزاجهم وتكوين أسراب كبيرة إسلامية ثم إلى اتساع نطاق الدعوة وتمت أجيال متوالية من العائلات الاسلامية التى أخذت تتزايد على مدى السنين .

وما حدث فى جاره حدث فى سومطرة ، حيث أقبل المسلمون الجديد على تلقى تعاليم دينهم وفى شبه جزيرة الملايو امتد الاسلام من الساحل إلى الداخل وأقبل الملاويون على الدين الجديد بحماسة بالغة ثم امتد منها إلى الهند الصينية ثم امتد إلى الصين .

وهكذا انتشر الاسلام بقوته الذاتية كدين مما أدى إلى اعتناق الملايين له دونما ضغط أو تهديد وفى بلاد لم يدخلها جيش إسلامى ولم يطأها قدم جندى عربى واحد .

(١٧)

الكاشي وليس ستيفن

المسلمون مخترعوا الكسور العشرية

من الأخطاء الشائعة فى تاريخ الرياضيات أن جميع كتب الرياضيات وتاريخها ينسب اختراع الكسور العشرية (لا النظام العشرى) إلى عالم رياضى بلجيكى اسم سمون ستيفن (١٥٤٨ - ١٦٢٩) م فقد كتب كتابه عام ١٥٨٥ باللغة الفلمنكية دعاة Daimiende ترجم إلى اللغة العربية والهولندية والانجليزية عالج فى مؤلفه الكسور العشرية معالجه صحيحة ولكن الاشارات التى استقبلها جعلت طريقته عسيرة صعبة المنال ، ومن هنا يتضح لنا أن استعمال الكسور العشرية كان معروفا فى أوربا ، أما فى أواخر القرن السادس عشراً أوفى مطلع القرن السابع عشر للميلاد .

وهكذا بقى الاعتقاد سائداً بأن الكسور العشرية ظهرت أول ما ظهرت فى أوربا حتى أن جورج سارطون المؤرخ المشهور يقول فى مقدمة كتابه تاريخ العلوم أنه لم يسبق سمون ستيفن أخذ إلى اختراع هذه الكسور .

ومعلوم لدى كل من اشتغل فى تاريخ الرياضيات أن اختراع الكسور العشرية يعد من أهم الاختراعات التى أدت إلى تقدم الرياضيات وفى ذلك تقول كاجورى مؤلف تاريخ الرياضيات أن القوى العجيبة فى علم الحساب الحديث تعزى إلى :

١ — الأرقام العربية الهنديه .

٢ — الكسور العشرية .

٣ - اللوغارتمات .

ولقد انقلت هذا الرأى رأساً على عقب سنة ١٩٤٨ عندما أعلن الأستاذ بول توكى الألمانى أن اختراع الكسور يجب أن ينسب إلى العالم الرياضى (غياث

الدين جمشيد الكاشى) الذى عاش حوالى ١٦٠ سنة قبل ستيفن ، وقد استعمل غياث الدين هذه الـكسور كثيراً وفسرها بوضوح .

عاش الكاشى فى الحقبة الأخيرة من عصر العرب الذهبى ومع أننا لا نعرف تماما تاريخى مولده ووفاته فنى استطاعتنا أن نقول أنه توفى حوالى ١٤٣٠ م معتمدين فى ذلك على مؤلفاته الفـكرية كما أنه ازدهر ١٤١٠ ومعظم المؤرخين يذكرون أنه عاش بين ١٣٨٠ ، ١٤٣٦ .

وقد كتب هذا الرياضى عدة كتب منها :

(١) رسالة الوتر والجيب واستخراج ثلث القوس المعلومة الوتر والجيب (وهو بحث فى حساب المثلثات والهندسة).

٢ — الزيج الخاقانى (وفيه يقدم الكاشى براهين هندسية لبعض القوانين الفلـكية).

٣ — زيج التسهيلات .

٤ — الرسالة الكاملة أو سلم السماء الذى يبحث فى أجرام وأبعاد الـكواكب والسيارات .

٥ — رسالة فى استخراج جيب الدرجة الواحدة (وهو بحث عظيم القدر والفائدة يبين فيه الكاشى كيفية إيجاد جيب الدرجة الواحدة باستعمال معادلة من الدرجة الثالثة) .

٦ — الرسالة المحيطة ، وهى التى يحدد فيها الكاشى النسبة بين محيط الدائرة وقطرها والمسماه بالحرف (ط) فهو يعطى قيمة ٢ ط صحيحة لستة عشر رقما عشريا هكذا .

(٢ ط = ٢٨٣١٨٥٣٠٧١٧٩٥٨٦٥ و ٦) هذه القيمة لم يسبقه أحد إلى إيجادها بهذه الدقة .

٧ — نزهة الحدائق : الذى يبحث فى تركيب واستعمال بعض الآلات الفلكية.

٨ — مفتاح الحساب : وهو الذى يحتوى على الكسور الستينية والعشرية واستعمالها ، وهذا الكتاب هو بيت القصيد فى البحث .

ويوجد من هذا الكتاب عدة مخطوطات منها واحدة فى مكتبه (ليدن) وقد تم نسخها (فى ٢ شعبان ٩٦٥ — ٢٠ ايو ١٥٥٨ للميلاد) وثانية فى مكتب الهند بلندن وقد تم نسخها فى ١٠ ربيع الأول ١٠٤١ للهجرة (١٦٣١ للميلاد) والثالثة موجودة فى مكتبة جامعة برنستون فى الولايات المتحدة .

وفى ابتداء المخطوطة وعلى الصفحة الخامسة منها يذكر (الكاشى) أنه قد اخترع الكسور العشرية ليسهل الحساب للأشخاص الذين يجهلون الطريقة الستينية ويذكر فى الباب السادس من المقالة الثالثة فى كتابه (مفتاح الحساب) اختراعه الكسور الأعشارية وطريقة تحـــويل الكسور الأعشارية إلى الستينية وبالعكس ،

وهى موجودة على الصفحة رقم ٨٥ من مخطوطة بريستون ننقل بعضها بالحرف الواحد : يقول الكاشى :

الباب السادس : فى تحويل الارقام الستينية إلى الهندية وبالعكس صحاحا وكسورا وتحويل كسورها إلى مخرج آخر ومعرفة الكسور التى وضعناها على قياس الكسور الستينية .

ولنقدم هذا : لما استخرجت نسبة المحيط إلى القطر فى رسالتنا المسماة بالمحيطية وبلغة الكسور إلى التاسعة أردنا أن نحولها إلى الرقوم الهندية لئلا يفخر الحاسب الذى لم يعرف حساب المنجمين أخذنا كسر المحيط من مخرج عشرة آلاف مكررة خمس مرات وهذا عدد مجرد فكأننا قسمنا الواحد الصحيح عشرة أقسام ، وقسمنا كل عشرة أقسام ثم كل قسم منها إلى عشرة أقسام ، وهكذا بالغاً مايبلغ قسمينا الاقسام الاولى أعشاراً لكونها كذلك والثانية ثان الاعشار والثالثة ثالث الاعشار وهكذا بالغاً ما بلغ ليكون مراتب الكسور والصحاح على نسبة واحدة على قياس حساب المنجمين وسميناها الكسور الاعشارى » .

وفى صفحات أخرى من مفتاح الحساب يتجلى لنا طرق إجراء العمليات

الأربعة الأساسية فى الكسور . ومن هذا يستنتج بما لايقبل الشك أن (غياث الدين الكاشى) قد اخترع الكسور العشرية قبل ستيفن بأكثر من ١٧٥ سنة وبين قواعد استعمالها وطريقة الحساب بها .

وليس هذا هو الخطأ الوحيد الذى يقع فيه مؤرخو الرياضيات فجردوا العرب من كثير من مآثرهم العلمية ونسبوها إلى غير أهلها من أبناء الأمم الأخرى .

إن فى المخطوطات العربية القديمة ثروة من الحقائق العلمية قد تحدث ثورة فى التاريخ العلمى على اختلاف شقيه وفروعه .

« رضا إيرانى ، مجلة العلوم ١٩٦٤

ابن حمزة المغربى : رائد اللوغارتمات

يظن كثيرون أن اللوغارتمات لم يمهد لها ، وأن فكرة الرياضى (نابيير) فى هذا الموضوع جديدة لم ترتكز على بحوث سابقة لعلماء الرياضيات وقد أتى هذا الرياضى بها دون الاستعانة بمجهودات غيره . ولكن المراجع التى تبحث فى تاريخ العلوم تشير إلى غير ذلك .

ويقول أن هناك من مهد للوغارتمات جاء ذلك فى كتاب تاريخ الرياضيات (لسمث) مايلى :

وكانت غاية (نابيير) تسهيل عمليات الضرب التى تحتوى على الجيوب ومن المحتمل أن المعادلة : جاس لاجاص = ½ جتا (س - ص) - ½ جتا (س + ص) هى التى أوحت فى اختراع اللوغارتمات .

وابن يونس العالم العربى هو أول من توصل إلى القانون الآتى فى المثلثات جتا س لا جتا ص = ½ جتا (س + ص) + ½ جتا (س - ص)

من بحث الأستاذ قدرى حافظ طوقان مجلة العلوم البيروتية

ويقول سوتر : وكان لهذا القانون أهمية كبرى قبل كشف اللوغارتمات عند علماء الفلك وفى تحويل العمليات المعقدة لضرب العوامل المقدرة بالكسور الستينية فى حساب المثلثات إلى عمليات جمع .

وكذلك وضع أحد رياضى العرب الاقدمين :

(سنان ابن الفتح الحرانى)

كتاب الجمع والتفريق ، وفيه شرح للطريقة التى يمكن بواسطتها إجراء عمليات الحساب بالضرب والقسمة بواسطة الجمع والطرح ، وقد شرح سنان الاصول الموجودة فى هذا الكتاب — أى كتاب الجمع والتفريق — فى كتاب آخر اسمه (كتاب شرح الجمع والتفريق) .

يتبين مما مر أن فكرة تسهيل الأعمال التى تحتوى على الضرب والقسمة واستعمال الجمع والطرح بدلا منها قد وجدت عند بعض علماء العرب قبل (نابير) وبريكز وبورجى وزيادة على ذلك فقد ظهر لنا من البحث فى مآثر (ابن حمزة المغربى) ومن بحوثه فى المتواليات العددية والهندسية أنه قد مهد السبيل للذين أتوا من بعده فى إيجاد اللوغارتمات .

يقول ابن حمزة :

أن أس أساس أى حد من حدود متوالية هندسية تبدأ بالواحد الصحيح يساوى مجموع أسس أساس الحدين اللذين حاصل ضربهما يساوى الحد المذكور ناقصاً واحدا .

ولإيضاح هذا القول نأخذ المتوالية التالية :

١ ، ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢

والمتوالية العددية ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦

فاعتبر ابن حمزة أن حدود المتوالية الثانية هى أسس للأساس فى حدود المتوالية الأولى ، وأساس المتوالية الهندسية المذكورة أعلاه هو (٢) فإذا

أخذنا العدد (١٦) نجد أن العدد الذى يقابله فى المتوالية العـــددية هو (٥) ولنأخذ الحدين اللذين حاصل ضربهما (١٦ ، وهما ٢ ، ٨ فالعدد ٢ فى المتوالية الهندسية يقابله ٢ فى المتوالية العددية وعلى هذا فإن خمسة تعادل ٢+٤|+١=٥ وهذا يطابق ما قاله ابن حمزة أو هو نفسه وشرح لما جاء به فى صدد المتواليات .

ولو أن ابن حمزة استعمل فى المتوالية الهندسية المذكورة ، المتوالية العددية التى تبدأ بالصفر واتخذ الحدود فى هذه الأخيرة أسسا لأساس نظائرهافى حدود المتوالية الهندسية لكان اختراع اللوغارتمات التى أوجدها (نابير) وبورجى بعده — أى بعد ابن حمزة بأربع وعشرين سنة .

ومعنى هذا أن نابير وبورجى اتخذ متوالية هندسية تبدأ بالواحد تقابلها متوالية عددية تبدأ بالصفر ، وقد بينا أن أس الأساس لأى حد من حدود المتوالية الهندسية يساوى مجموع أسس الأساس للحدين اللذين حاصل ضربهما يعدل الحد المذكور .

والحقيقة التى أود تركيزها هى : لم يدر بخلدى إنى سأجد بحوثا لعـــالم عربى (كابن حمزة) هى فى حد ذاتها الأساس والخطوة الأولى فى وضع أصول اللوغارتمات . « قدرى حافظ طوقان » مجلة العلوم

(١٨)

الجغرافيا علم عربى أصيل

إن الجغرافيا علم عربى أصيل وأن يكن الاسم نفسه اعجمى الصياغة ، ولن يؤثر فى عروبة العلم أن أطلق عليه المتأخرون أسما أعجميا كان فى اصطلاحهم القديم (تقويم البلدان) أصدق دلالة ، فالتقويم من قوم الشىء أى قدر قيمته ، فليس الأمر إذن مجرد وصف للبلاد وإنما هو دراسة تحليلية تستهدف إبراز القيمة وإظهار الأهمية .

ولقد كانت الجغرافيا من العلوم التى تمثل مساهمة العرب فى تطورها مرحلة بارزة فى تاريخها ؛ مرحلة حصلت بالآثار الواضحة للجغرافيين العرب فظهر جغرافيون أعلام : كالاصطخرى وابن خرداذبه وابن حوقل وابن واضح اليعقوبى وابن رسته والمسعودى والبيروتى والبتانى وياقوت الحموى وغيرهم كثير .

وقد نشرت بين سنتى ١٩٢٦ / ١٩٢٧ مجموعة كبيرة من الخرائط التى رسمها الجغرافيون العرب تحت عنوان Mappae Arabicae فى أربعة مجلدات نشرها دى غويه .

قال كراتشوفسكى فى كتابه (الأدب الجغرافى العربى) .

أن العرب كانوا ذوى عناية خاصة بالعلوم الجغرافية ، وأن الحوافز التى دفعتهم إلى دراساتهم المتشعبة فى هذا الاتجاه كانت معظمها حوافز دينية هناك فريضة الحج وما يصحب رحلاتها من النشاط التجارى وما يتطلبه ذلك من معرفة الطرق ودراسة طبيعة الأقاليم ، وهناك شهر الصوم وضرورة تحديد بدايته ونهايته وهناك الصلوات الخمس وضرورة تحديد مواقعها وقياس ظل العصر ، وهناك القبلة وضرورة حفظ الاتجاه إليها فى مختلف البلاد .

وأن الفتوح الإسلامية حملتهم بعيدا عن حدود جزيرتهم وأحدثت تغيرا شاملا فى مدى تصورهم للعالم مما أدى إلى اتساع أفقهم الجغرافى .

فاختلاط العرب بشعوب العالم عن طريق التجـــارة وقطعهم المفاوز ووقوفهم على حالة البلدان وخصائص الأقاليم ، وتقديرهم للمسافات كل ذلك زاد فى ثروة معارفهم الجغرافية ، ولم يقوموا بهذا كله إلا اعتمادا على إستقرائهم الشخصى وذكائهم الفطرى .

وقـــد اجتمع سبعون رجلا فى عصر المأمون وضعوا الصورة المأمونية التى صوروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره مما أعان عمال الدولة على التعرف إلى البـــلاد والأمم التى أظلتها الرآية العباسية .

وقد قدم الجغرافيون العرب مقاييس عربية فكان لديهم البريد والفرسخ والميل والباع والذراع والاصبع والشعيرة والشعرة .

(١٩)

الإسلام ومصادر العلم[1] الحديث

كان الإسلام هو صاحب الفضل الأكبر فى توجيه العلماء المسلمين نحو النهل من موارد العلم الصافية ، والتفكر فى ملكوت السموات والأرض وفى الكون والكائنات والمخلوقات وكان الخلفاء والحكام يتفاخرون بمن يحضر مجالسهم من علماء وما ينشئونه من دور العلم وما ينفقونه على ترجمة الكتب ومعاهد العلم من نفقات أوقاف سخية .

ولا شك أن من واجبنا أن نعمل على تصحيح التاريخ العلمى وأن نحسن التعريف بالعلماء فى العصر الإسلامى الزاهر ، وأن نعرض أعمالهم فى ثوب عصرى وبأسلوب العصر ولغته وأن نتبين إلى حد استفاد منهم علماء النهضة الاوروبية . فبذلك نضع حداً لهذه الافتراءات التى يكيلها الفرنجة من أمثال (سنجر) وكتاب بعض دوائر المعارف الأجنبية للعلماء العرب فيجحدون فضلهم بدل أن يعرفوا بأفضالهم على العلم والإنسانية .

ذلك أن كثيراً من السادة مؤرخى العلم من الغربيين ينكرون فضل ابن مسكويه وابن خلدون حين يتحدثون عن التطور ، مع أنهما يسبقان دارون بمئات السنين ويتناسون آراء الخازن والإدريسى وبنى موسى حين الحديث عن الجاذبية والميكانيكا (علم الحيل) وينسون الفضل كل الفضل لعالمهم الأكبر (نيوتن) ويتباهون بان (هارفى) هو وحده الذى كشف الدورة الدموية وينسون الطبيب العربى المصرى الأشهر ابن النفيس ، ويذكرون رحلات فاسكودى جاما وماركو بولو ويتجاهلون رحلات ابن جبير وابن بطوطة وغيرهما من كبار الرحالة العرب الذين قاموا برحلات جبارة ولا يذكرون أن من هؤلاء الرحالة من لم يكن يملك سوى قدميه

---

(1) من بحث للدكتور عبد الحليم منتصر (مجلة الرسالة ١٩٦٥)

ليقطع عليهما آلاف الأميال وأنه ليفعل ذلك طائعاً مختاراً فى سبيل تحقيق رسالة علمية أو الاطلاع على نسخة خطية من كتاب أو مقابلة عالم من العلماء حتى قال عنه نيكلسون أنهم يعودون من هذه الرحلات كما يعود النحل محملا بالعسل .

ومن عجب أن ينسى السادة مؤرخو العلم من الغربيين أمثال :

البتانى والبيرونى والبوزجانى والفرغانى والخوارزمى وأمثالهم من الفلكيين العرب حين يتحدثون عن تقدم علم الفلك وإنما يذكرون جاليليو ودافنشى وكوبرنيق وواضح أنه لولا أعمال العلماء العرب فى هذا المجال لاضطر علماء النهضة الأوربية من أمثال ما ذكرنا إلى أن يبدأو من حيث بدأ هؤلاء ، ولتأخر سير الحضارة عدة قرون ومع ذلك فإن أحدهم وهو « لالاند » لم يستطيع أن ينكر الشمس الساطعة فى وضح النهار فاعتبر البتانى من العشرين فلكيا المشهورين فى العالم .

وهل ينسى فضل الخوارزمى على علمى الحساب والجبر ، بل فى ابتكار نظام الأرقام التى يستعملها الغربيون أنفسهم والتى يسمونها الأرقام العربية وأنها لتفضل بلا مراء نظام الحروف التى كانت مستعملة قبلا .

وليس من شك أن أعمال (روبرت مروست ، والبرت ماجوس وروجر بيكون) فى علم الضوء لايمكن أن تكون بعيدة عن أعمال ابن الهيثم العالم العربى الأشهر الذى جعل من علم الضوء « المناظر » علما له أصوله وفروعه ورسم رسوما بالغة غاية الدقة للعين وأجزائها ، بل وأطلق أسماء على بعض أجزاء العين مازالت مستعملة حتى الوقت الحاضر : كالشبكية والقرنية والسائل المائى والسائل الزجاجى ، وهو أول من قال بأن الضوء ينتقل فى زمان وليس فى الآن كما قال غيره وابتكر تجارب لتقدير سرعة الضوء وبذلك أبطل نظرية السرعة الآنية كما أجرى تجارب كثيرة على انكسار الضوء وكان يسميه بالانعكاف .

ولا أظن أن مؤلفات ابن سينا فى التشريح والحيوان كانت بعيدة عن (ماخيوس) ولعلها المصدر الذى استقر إلى جانب مؤلفات أرسطو ولا يمكن أن يغيب عنه هذا الجزء الرابع من كتاب الشفاء لابن سينا الذى تكلم فيه عن الحيوانات المائية والبرية والأسماك والطيور والزواحف وما إليها أما باكون فقد أضاف كثيراً إلى المعارف العلمية وخاصة الطريقة العلمية وما أشك فى أن ابن الهيثم قد سبق باكون فى الأخذ بالطريقة العلمية ورسائل العلماء العرب حافلة بالحص فى التجربه والمشاهدة والاختبار (الاعتبار) والتثبت وعدم التعجل ، وجمع المشاهدات والملاحظات واستقرائها .

(٢٠)

سبق ابن خلدون فلاسفة الغرب

سبق ابن خلدون فلاسفة الغرب فى وضع أسس علمى الاجتماع والاقتصاد السياسى : سبق ادم سميث وأوجست كونت ، وبين ابن خلدون وادم سميث أربعة قرون كاملة فقد درس ابن خلدون الظواهر الاجتماعية على أساس علمى ، وقرر أن الظواهر العمرانية فى تزاحمها وثوابتها تحكمها قوانين ، وكانت وسيلته فى الدراسة : الاستقراء والقياس ، وقد أكد المنصفون أن أرائه لم تكن مجرد جمع لمعارف عامة متنوعة ، ولكنها جاءت كعمل منظم مرتب ينطبق عليه لفظ العلم فى معناه الدقيق وقد تناوله ابن خلدون فى عدة مواضع من الدراسات .

شهد له (ايف لاكوست) فى كتابه (ابن خلدون) أنه واضع علم ومقرر استقلال وقال (ناثانيل شميث) أن ابن خلدون هو الذى اكتشف ميدان التاريخ الحقيقى وطبيعته ، وأن أحداً غير ابن خلدون لم يقل أن التاريخ علم خاص موضوع ، بحث جميع الظواهر الاجتماعية فى حياة الإنسان وأنه يعتبر بحق مؤسس علم الاجتماع .

ويقول (روبرت فلنت) أن من حق ابن خلدون فى ادعاء شرف التسمية باسم مؤسس علم التاريخ أو فلسفة الاجتماع ، أثبت وأقوى من حق كل كاتب ظهر قبل فيكو .

ويقول لدوفنج ميلونج : أن ابن خلدون قد سبق فى آرائه أقطاب علماء الاجتماع المحدثين ، فهو مثلا قد اكتشف نظرية الأجيال الخاصة بظهور الأسرار ونهوضها من قبل أن يعرفها (اوتو كار لونتس) فى أواخر القرن التاسع عشر وكذلك عرف ابن خلدون قانون « التشبيه بالوسط » قبل أن يعرفه العالم الطبيعى وارون بخمسة قرون .

كما أن ابن خلدون اكتشف مبدأ وجود المادة قبل أن يكتشفه العالم البيولوجى الألمانى ارنست هيكل بأكثر من خمسة قرون .

ويقول (استفانو كلوزيو) : أن ابن خلدون سبق ميكافيلى ومونتسيكو وفيكو فى وضع أصول علم جديد ، هو الدرس النقدى للتاريخ ، وأنه أول كاتب فى العالم عالج موضوع فلسفة التاريخ ، وأنه اكتشف مبادىء العدالة الاجتماعية قبل (برودون وماركس وباكونين) وأنه من مبدأ الحتمية الاجتماعية مما يعود بالفخر فى تقريره إلى ابن خلدون قبل رجال الفلسفة الاثباتية وعلماء النفس بقرون عديدة .

ويقول (روبرت فيليب) : إذا نظرنا إلى ابن خلدون كمؤرخ وجدنا من يتفوق عليه من كتاب العرب أنفسهم ، أما كواضع نظريات التاريخ فإنه منقطع النظير فى كل زمان ومكان .

ويقول (جو ميلوفتش) أن ابن خلدون يعتبر مفكرا عصريا بكل معنى الكلمة ، أنه درس الحوادث الاجتماعية بعقل هادىء رزين ، وأبدى آراء عميقة جدا ، ليس قبل كونت فحسب ، بل قبل فيكو أيضاً والحقيقة أن ماكتبه ابن خلدون هو مانسميه اليوم علم الاجتماع .

ويقول (فارد) : كانوا يظنون أن أول من قال أبمبدأ الحتمية فى

الحياة الاجتماعية هو منتسيكو أوفيكو ذ . بن أن ابن خلدون قال بذلك وأظهر تبعية المجتمعات لقوانين ثابتة قبل هؤلاء .

ويقول (توينبي) : أن ابن خلدون فى المقدمة التى كتبها لتاريخه العام قد أدرك وأنشأ فلسفة للتاريخ ، وهى بلا شك أعظم عمل من نوعه أبدعه أى عقل بشرى فى أى زمان ومكان .

ويقول (سارتون) : أنه لمن المدهش أن يكون ابن خلدون قد توصل فى تفكيره إلى اصطناع ما نسميه اليوم بطريقة البحث العلمى .

(٢١)

المعرى سبق دانتى

ابن مسكويه سبق دارون

الطرطوشى سبق ميكافيلى

هناك إجماع اليوم بين الباحثين الغربيين أن دانتى تأثر بالثقافة الإسلامية فى كتابه (الكوميديا الإلهية) وأنه قد تأثر أساساً برسالة الغفران للمعرى ، ومحى بن العربى فى كتابه الفتوحات المكية ، وإن سورة الاعراف فى القرآن قد أمدته فى تفاصيلها بفكرة جهنم والمطهر والصراط والحشر .

وإذا كان دارون المتوفى عام ١٩٨٥ قد أعلن نظريتى أصل الانواع والتطور فإن ابن مسكويه وإخوان الصفا قد سبقوا إلى إقرار ما ذهب إليه فقد ذكر ابن مسكويه فى كتبه أن النباتات أسبق فى الوجود من الحيوان وقال ابن مسكويه بنشوء الحيوان من النبات وأن الإنسان ناشىء من آخر سلسلة البهائم .

وقد وردت لفظه (التطور) فى الطبقات الكبرى للسبكى ، ومقدمة ابن خلدون والبدر الطالع للشوكانى .

قال السبكي : ومن كرامات هذه الأمة التطور ، بأطوار مختلفة ، وهذا الذى تسميه الصوفية بعالم المثال ، ويثبتون عالما متوسطا بين عالم الأجسام والأرواح وقال ابن خلدون فى المقدمة : أن أهل الدول بدأو يقلدون فى طور الحضارة الدولة السابقة قبلهم فأحوالهم يشاهدون ، ومنهم فى الغالب يأخذون ، ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم ، فما استعبدوا أهل الدول قبلهم أو استعملوهم فى مهمتهم وحاجات منازلهم ، إلى أن قال : فبلغوا الغاية من ذلك وتطوروا بتطور الحضارة والترف فى الأحوال .

وقال الشوكانى فى سيرة أبى الفضل المشرالى :

أنه ولد عام كذا ورحل إلى تلمسان وفتحت على ابن مرزوق وعلى سائر علمائها فى عدة علوم ، ثم رحل نحو المملكة المصرية (وتطور) على أنحاء مختلفة .

كما تحقق أن أبو بكر محمد بن محمد الطرطوشى ، سبق الكاتب الوزير الفورنسى (نيقولا ميكافيلى) فى التأليف فى سياسة الملوك وأخلاق الأمراء ، وإن كتاب الطرطوشى (سراج الملوك) مصدر لكتاب الأمير وسابق له بأكثر من خمسة قرون .

وقد اتضح للباحثين أن معظم مواد كتاب الطرطوشى قد نسقت فى كتاب الأمير وأن أبوابا كاملة قد ترجمت .

(٢٢)

اقتحم العرب المحيط قبل أن يقتحمه كولمبس

أشار الأب انستاس الكرملي إلى حقيقة واضحة هي أن : أبناء العرب القدامى اتصلوا بالجزر القصدير ببحر المانش وعرفوا تيار الخليج goLF stream واتخذوه لهم ناقلا إلى تلك الربوع المعروفة الآن باسم المكسيك واستدل على ذلك من الأسماء العربية للحيوان والطير إلى تعرف بها إلى اليوم فى تلك البقاع ونورد هنا فأجاء فى المصادر العربية .

(أولا) ثبت قطعاً أن خرستوف كولمبس ليس أول من حط رحاله بالدنيا الجديدة ولكن رحلته إليها هى التى فتحت عيون الناس على هذا العالم الجديد فبدىء من بعده الطمن إليه والاستعمار . وقد حفظ التاريخ أخبار بعض الرهبان الإيرلنديين كانوا يدهشون لركوب العرب تيار الخليج القادم من المكسيك ونزولهم فى القرن الثامن الميلادى إلى سواحل أمريكا الشرقية غير أن التاريخ غمط حقوق بعض الرواد المغامرين من العرب الذين أدركوا الاهوال محاولين اختراق الخضم المحيط المعروف فى ذلك الحين باسم « بحر الظلمات » .

(ثانياً) لا بد أن علما وافراً تقدم المتحمسين بشأن الكرة الأرضية والبحر المحيط عند العرب فقد جـ ٥ فى مروج الذهب للمسعودى قال (ذكروا أن الأرض مستديرة ومركزها وسط الفلك والهواء محيط بها من كل الجهات وأخذوا عمرانها من حدود الجزائر الخالدات فى بحر اقيانوس إلى أقصى عمران الصين) و (علموا أن الشمس إذا غابت فى أقصى الصين كان طلوعها على الجزائر العامرة المذكورة التى فى بحر أقيانوس ، وإذا غابت فى هذه الجزائر كان طلوعها فى أقصى الصين ، وذلك نصف دائرة الأرض وهو طول العمران الذى ذكروا أنهم وقفوا عليه) .

وقال المسعودى (أن أقصى العمران فى المشرق إلى حدود بلاد الصين

---

(١) عن بحث للسيدة دولت حسن الصغير مع التصرف (الرسالة ١٩٤٥)

إلى أن ينتهى إلى بحر أقيالونس المظلم المحيط . وأقصى عمران المغرب تنتهى إلى بحر إقيانوس المحيط » .

وجاء فى كتاب الشريف الأدريسى (نزهة المشتاق إلى اختراق الافاق) :

« ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم ولا وقف بشر على خبر صحيح لصعوبة عبوره وظلام أنواره ، وتعاظم موجه وكثرة أهواله وتسلط دوابه ، وهيجان رياحه ، وبه جزائر كثيرة معمور وغير معموره » .

وتواتر عند الناس أسطورة مأثورة عن قدامى اليونان تقول بأن هرقل بنى أعمدة من النحاس والحجارة حداً بين بحر الروم والاقيانوس وعلى أعلاها كتابه وتماثيل مشيرة بأيديها أن لا طريق ورائى لجميع الداخلين إلى ذلك البحر المحيط

(ثالثاً) أمر اقتحام أبناء قحطان بحر الظلمات وركوبهم أهواله أمر لامريه فيه جاء فى المصادر العربية أيضاً : بعد أن أورده هيرروتس عن استرابون .

جاء فى مروج الذهب : عن البحر المحيط :

« وله أخبار عجيبة ومن أخبار من غرر وخاطر بنفسه فى ركوبه ومن نجا منهم ومن تلف وما شاهدوا منه وما رأو » .

وقد ذكر الأدريس فى كتابه النفيس (نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق) قصة الإخوة المغرورين أو المغررين الذين خرجوا من لشبونة وضربوا فى عرض المحيط ثم عادوا يقصون على الناس مشاهداتهم وقصتهم كانت معروفة قبل المسعودى ، وإن رجح أنها وقعت فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وتناقلها الناس بعد ذلك .

(أوردها بالكامل)

والذى يستخلص عن رواية الأدريسى إن الإخوه الذين نعتوا ظلماً باسم المغررين أو المغرورين ، ركبو البحر المحيط من لشبونه عاصمة البرتغال الحالية

فضربوا فى عرضه غربا ثم انعطفوا نحو الجنوب فوطئوا أرض جزيرة بها غنم وتين برى ، بعد مسيرة أربعة وعشرين يوما (ونحن نستبعد أن تكون جزيرة الغنم هذه إحدى جزر اللازورد (ازوره) لأنها تقع غرب لشبونه لا إلى جنوبها الغربى ، ولأنها جزر مسكونه من قديم الزمان عرفها القرطاجيون والنورمانديون والعرب وقد هاجر إليها فريق من عرب أسبانيا بعد طردهم من الأندلس .

والذى تظنه أن هؤلاء الإخوة خطوا رحالهم فى إحدى جزر برموده أو جزر الأنطيل ، أن لم يظعنوا إلى أحد أنحاء المكسيك .

(رابعا) وهناك قصة لمغامر آخر اقتحم البحر المحيط ولا يعرف إلا الله مصيره ومن تبعه يتحدث عنه ابن فضل الله العمرى فى كتابه (مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار) .

تحدث الملك موسى بن أبى بكر أحد ملوك مالى فى السودان الغربى وكان معاصراً لصاحب مسالك الابصار فى أيام الملك الناصر بن قلاوون : قال أن الذى قبلى كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك فجهز مئتين من السفن وشحنها بالرجال والأزواد التى تكفيهم سنين وأمر من فيها ألا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفذ أزوادهم فغابوا مدة طويلة ثم عادت منها سفينة واحدة وحضر مقدمها فسأله عن أمرهم فقال : سارت السفن زمنا طويلا حتى عرض لها فى البحر فى وسط اللجه واد له جرية عظيمة فابتلع تلك المراكب وكنت آخر القوم فرجعت بسفينتى فلم يصدقه فجهز ألفى سفينة ، ألف للاولاد وألف للازواد واستخلفنى وسار بنفسه ليعلم حقيقة ذلك وكان هذا آخر العهد به وبمن معه .

(خامسا) مما يغلب على الظن أن (كولمبس) وقف على خبر الإخوة المغررين وعرف أنهم هبطوا إحدى الجزر فيما وراء المحيط ولعله كان على علم بنبأ رحلة برندان — ولا جدال فى أنه اطلع على ترجمات الكتب الجغرافية

العربية التى يقول بكروية الارض وبأن البحر المحيط موصل إلى الهنـــد ثم استطاع أن يقنع الملك إيزابلا وسار بسفنه الشراعية الثلاث فى (٣ أغسطس ١٩٤٢) متخذا سبيله فى المحيط غربا ، ثم جنوبا بغرب ، حتى وصل فى ١٢ أكتوبر إلى جزيرة (غوانى هانى) التى عرفت من بعد باسم (سان سلفادور) وكأن معاصريه لم يجدوا فيما أتى به بدعا ولم يرو قد أول مقتحم لبحر الظلمات فضرب لهم مثل النيضة المعروف ومات فى بلد الوليد عام ١٥٠٦ آسفاً محسوراً .

لقد اقتحم أبناء يعرب بحر الظلمات ولكنهم لم يجدوا من يؤرخ لهم . ولا ريب أن بعضهم حط رجاله فى ربوع أمريكا الوسطى وجزائرها ولذلك لاتعجب أن رأينا فيها كثيرا من الأسماء العربية العائدة إلى الحيوان والطير .

عرف العرب امركه

قبل أن يعرفها أبناء الغرب

كان العرب منذ أقدم الأزمنة وقبل المسيح بكثير يختلفون إلى جزر واقعة فى جنوب غربى بريطانيا العظمى : تلكم الجزر التى كان يسميها اليونانيون يومئذ (جزر القصدير) وبلسانهم Kässeterides

وذهاب أبناء قحطان إلى تلكم الربوع النائية يدل على أمور جمة :

أن أبناء يعرب القدامى ولاسيما أولئك الذين كانوا يجاورونه ثغور البحار يركبون السفن التى كانوا يقشرونها بأيدهم متجولون بها المحيطات فوصلوا فى أول أسفارهم إلى جزيرة القصدير وهى فى بحر المانش ، وبعد ذلك عرفوا (تيار الخليج) فاتخذوه ناقلا لهم إلى الربوع التى دعيت بعد ذلك بالمكسيك انبثوا ومنها إلى سائر مدن أمريكا من شماليه وجنوبية ، فالعرب وسائر الأقوام التى خلت العالم الجديد

من محاضرة للأب ايستاس مارى الكرملى (١٩٤٥ — المقتطف) .

عرفوا المكسيك ومنها أنبثوا إلى سائر مدن أمريكا قبل أن يعرفوا سائر الديار الغربية فى تلك الأرجاء ، ولهذا نرى فيها من الأسماء العائدة إلى الحيوان والطير أكثر مما فى سائر الأنحاء الحديثة المعروفة بحيث لا يمكن أن ينكرها .

« الأب إنستاس مارى الكرملى »

(٢٣)

ابن ماجـــد

هدى فاسكو دى جاما وأعانه على بلوغ الهند

نبغ عدد من العرب فى معرفة البحار وقيادة الأساطيل لم يعبأو بمدها وجزرها وساحو أنفسهم فى المحيطين الهندى والهادى كانت مؤلفاتهم منهلا لكثير من ملاحى الغرب واستعانوا بها فى تسيير سفائنهم ورسم الخارطات والمصورات البحرية وفى معرفة المواقع والمرافىء والخلجان .

ظهر ابن ماجد فى القرن التاسع للهجرة وهو شهاب الدين أحمد بن ماجد النجدى الذى كان يلقب نفسه بشاعر القبلتين .

وكان أبوه وجده من الذين اشتهروا فى الملاحة حتى أن جده كتب رسالة فى الملاحة فى البحر الأحمر خدمة للسفن التى تنقل الحجاج .

وزاد والد ابن ماجد على هذه الرسالة وأضاف إليها نتائج اختباراته .

اعترف المصنفون من علماء الفرنجة بفضل العرب (ولا سيما ابن ماجد) على الملاحة البرتغالية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد .

---

(١) من بحث للأستاذ قدرى حافظ طوقان

قال الأستاذ فران الافرنسى إن الفضل فى تفوق الملاحة البرتغالية يعود إلى العرب . وقد ترجم الأستاذ فران كثيرا من مؤلفات ابن ماجد وعلق عليها وصدرها بعنوان :

(مؤلفات ابن ماجد الملقب بأسد البحر الهائج)

ربان فاسكودى جاما الذى طاف حول الأرض ، وقد ثبت فعلا لبعض الباحثين أن فاسكودى جاما استعان بابن ماجد فى تسيير أسطوله حول الأرض من مالندى على ساحل أفريقيا الشرقية إلى قاليقوت فى الهند .

ووضع ابن ماجد مؤلفات عديدة ورسائل كثيرة فى علم البحار وكيفية تسيير السفن هما من المنزلة العلمية والتاريخية بمكان عظيم .

[كتاب الفوائد فى معرفة علم البحر والقواعد]

من مؤلفاته النفسية (إقتناه المجمع العلمى العربى بدمشق)

عبارة عن مائتى صفحة كل صفحة ٢٣ سطر يتضمن معرفة طريق سير السفن فى البحر بمعرفة منازل القمر ومهب الرياح ومعرفة القبلة وتجد فى هذا الكتاب كيفية الاستدلال بمنازل القمر والبروج على البلاد التى يقصدها المسافر ويتبين منه أن المؤلف اتخذ (بنات نعش) وسهيلا والناقة والحمارين والعيون والعقرب والنسر الواقع والأكليل والسماكين والثور من جملة الأدلة التى تساعد المسافرين فى الأسفار .

وقال أنه علم ذلك بالاختبار . واعترف بأن ثلاثة من مشهورى الربابين سبقوه إلى ذلك وأن الفرق بينه وبينهم :

(إن ما ذكره هو مصحح مجرب وما ذكره أولئك ليس على التجريب فيه شىء) .

وفى هـذا الكتاب عرض لبعض الثغور التى على الاقيانوس الهندى والبحر الصينى ، وشكل البرور ورأس ساحل الزنجبار

والجزر العشر الكبرى المشهورة وكذلك وصف تفصيلى للبحر الأحمر بمافيه مراسيه وأعماقه وصخوره الظاهرة والخفية .

وله رسائل عديدة أكبرها منظوم رجزا مثل رسالة :

« حاوية الاختصار فى علم البحار » .

وفيها بحث فى العلامات التى يجب على الربابين معرفتها استدلالا على قرب البر وفى منازل القمر ومهاب الرياح وفى السنة الهجرية والرومية والقبطية والفارسية وفى طريق السفن على ساحل العربية والحجاز وسيام وشبه جزيرة ملقا ، وأطراف بلاد الزنوج وعلى سواحل الهند الغربية وسواحل القمر ومندل والبنغال وسيام حتى جزيرة بليطون وجاوه والصين وفرموزه وفى سير السفن على سواحل جزر جاوه وسومطره والغال ومدغشقر واليمن والحبشة والصومال وجنوبى العربية والمقران وفى المسافات بين الثغور العربية والثغور الهندية وفى عرض الثغور على البحر الهندى . تناهز مؤلفاته الاربعين وأشهرها « حاوية الاختصار فى أصول علم البحار » وهى أرجوزة فى ألف بيت صاغ فيها علوم البحر بلغة عامية متحللا من قواعد النحو واللغة وذلك كى يسهل على البحار حفظ هذه العلوم .

كتب عنه المستشرقين : كراتشكوفسكى ودى موبيين وجابريل فران وغـــيرهم .

يقول فى كتاب الفوائد :

إعلم أيها الطالب أن لركوب البحر أسباب كثيرة فأولها معرفةالشمس والقمر والأرياح ومواسمها وآلات السفينة وينبغى أن تعرف مطالع النجوم ومغاربها وطولها وعرضها وينبغى أن تعرف جميع البرور وإشاراتها كالطين والحشيش ومن البحر وجزره . وينبغى للمعلم أن يعرف الصبر من التوانى ويفرق بين العجلة والحركة .

والحذر كل الحذر من صاحب السكان لا يغفل عنه وما صنفت هذا الكتاب إلا بعد أن مضت لى خمسين سنة وما تركت فيها صاحب السكان وحده إلا أن أكون على رأسه أو من يقوم مقامى» .

ضاعت معظم هذه الرسائل أما المخطوط منها وهو القليل الذى عثر عليه بعض الباحثين من الفرنجة فقد بقى سنين عدة المرجع الوحيد الذى يرجع إليه الملاحون فى أوربا وقد بقيت القواعد التى وضعها ابن ماجد فى القرن الخامس عشر الميلاد إلى منتصف القرن السابع عشر منهلا عاماً للملاحين فى الشرق والغرب .

وذكر برتن الانجليزى أن تجارة عدن سنة ١٨٥٤ كانوا قبل السفر يتلون الفاتحة إكراماً لابن ماجد مخترع الإبرة المغناطيسية .

وقيل إن الإبرة المغناطيسية كانت معروفة فى أواخر القرن التاسع الهجرة (القرن ١٥م) .

وظهر مفكرون من العرب من اتقنوا الملاحة ، ووضعوا بعض الرسائل القيمة ، من هؤلاء :

محمد شاذان ، وسهل ابن أبان وليث بن كهلان وسليمان المهدى وعبد العزيز المغربى وموسى القندوانى وميمون بن خليل وغيرهم .

وقد كتب المؤرخ البرتغالى (كستانهيدا) عن ارشاد ابن ماجد لفاسكودى جاما إلى طريق الهند .

وصل فاسكودى جاما إلى مالندى (على الساحل الشرقى من أفريقيا شمال مدغشقر فى ١٥ مارس ١٤٩٨ وأرسى فى قرصتها فصعد إلى سفينة مسلمون منهم مسلم إسم احمد بن ماجد .

وكان دى جاما قد دهش لسعة علم الملاح المسلم عنه ما أراه خريطة الساحل

الهندى كله وعليها خطوط الطول والعرض بتفصيل ، ثم دعا دى جاما الملاح المسلم ليشاهد الاسطرلاب الكبير الذى كان يحمله على سفينته وآلات فلكية أخرى فلم يعجب المسلم بما رأى وأنبأ (دى جاما) أن للملاحين العرب فى البحر الأحمر آلات متقنة مصنوعة على غير مثال مابين البرتغال ثم أطلعه على آلة مؤلفه من ثلاث لوحات فلما عرف دى جاما قيمة هذا الكنز الذى ظفر به أحب الاحتفاظ بهذا المعلم المسلم وأقلع متوجها إلى الهند فى أبريل فجاز الخليج الكبير وطوله ٦٠ فرسخا فى ٢٢ يوما دون أن يلقى فى طريقه عقبة أو مشقة .

وكتب قطب الدين النهروانى المؤرخ (١٥٨٢ م) قال : وقع فى أول القرن العاشر الهجرى من الحوادث الفوادح النوادر دخول الفرتقال اللعين فى طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند ، وكانت طائفة منهم يركبون فى زقاق سبتة (أى مضيق جبل طارق) فى البحر ويلجون فى الظلمات ويمرون خلف جبال القمر (لعلها جبال الكمبيرون اليوم) ويصلون إلى المشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل (رأس الرجاء الصالح) فى مضيق أحد جانبيه جبل والجانب الآخر بحر الظلمات فى مكان كثير الأمواج ، لا تستقر بهم سفائنهم وتنكسر ، ولا ينجو منهم أحد ، واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون فى ذلك المكان ولا يخلص من طائفتهم أحد إلى بحر الهند إلى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له (أحمد بن ماجد) صاحبه كبير الافرنج وقال ابن ماجد لهم : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا فى البحر ، ثم عودوا فلا تنالكم الامواج ، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم فكثروا فى بحر الهند وصارت الامداد تترادف عليهم من البرتغال فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً ويأخذون كل سفينة غصباً ، إلى أن كثر ضررهم على المسلمين وعم أذاهم على المسافرين .

الدكتور محمد محمود محمدين (يكتب عن تساؤلات حول قصة إرشاد ابن ماجد لفاسكو دى جاما) : من أبرز المستشرقين الذين عنوا بدراسة أعمال

ابن ماجد المستشرق جبريل قران ١٩٢٢ الذى عثر على مخطوط لقطب الدين النهروالى يرجع تاريخه إلى ١٥٧٧ تحت عنوان:

(البرق اليمانى فى الفتح العثمانى) ورد فيه أن أحمد بن ماجد أرشد فاسكودى حاما إلى طريق الهند . ما ذكره النهروالى من تساؤلات أبرزها ما أجمعت عليه روايات البرتغاليين من أن من أرشد دى جاما ربان مسلم من كجرات يدعى المعلم كاناكا وفى بعض الروايات (كانا) ولا نجد هذا اللقب من بين الألقاب التى أطلقها ابن ماجد على نفسه .

كما يذكر النهروالى أن ابن ماجد عاشر كبير الفرنج فى السكر على حين أننا نجد أن ابن ماجد يوصى من ركب البحر بالطهارة والقراءة والدعاء لأنه ضيفه من أضياف البارى عز وجل وأنه شديد العقاب ، لماذا لم يرد اسم ابن ماجد صراحة إلا فى مخطوط البرق اليمانى وذلك بعد وصول البرتغاليين إلى الهند بنحو ثمانين عاماً تقريباً .

يتراءى لكاتب المقال أن قطب الدين النهروالى الذى ينسب إلى نهروان غربى كجرات الصق تهم إرشاد البرتغاليين لنهر طريق الهند بأحمد بن ماجد حتى يبرىء منها أبناء كجرات أقاربه وأهله لأن معظم الباحثين رأوا أن هذا العمل جناية فى حق العرب والمسلمين .

وصل ٢٤ أبريل إلى ميناء قاليقوت ١٤٩٨ (قاليقوت على ساحل مليبار) .

ونعتقد أن الاستشراق يرمى من ذلك بإلحاق الشبهات برجل كريم مثل ابن ماجد حتى لاتظل صفحته بيضاء وتتضائل بطولته وفضله على الأوربيين فى تمكينهم من الوصول إلى غايتهم .

(٢٤)

الشريف الادريسى : عمدة الجغرافين المسلمين

مؤلف « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » الذى ما يزال يعتبر حتى اليوم من حيث مادته وتنوعه ودقته ، ومن حيث حجمه أعظم موسوعة جغرافية كتبت فى العصور الوسطى المغربية .

ولد بثغر سبتة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩) م التى لعبت دوراً عظيما فى تاريخ المغرب والأندلس وتحتلها أسبانيا منذ أربعة قرون .

درس فى قرطبة وكانت الأندلس تحت حكم المرابطين سادة المغرب قام برحلات عديدة فى شبه الجزيرة الاسبانية ووصل فى تجواله غربا حتى ثغر لشبونه (أشبونه) .

ثم زار شمالى أسبانيا وتجول فى جليقية وزار شواطىء فرنسا مما يلى خليج بسكونيه ووصل فى رحلاته إلى شواطىء انجلترا الجنوبية بعد تجواله فى شبه الجزيرة الاسبانية عبر البحر إلى المغرب . زار ثغر قسطنطينيه ومراكش وسافر إلى المشرق وتجول فى أسيا الصغرى وزار المغارة المنسوبة إلى أهل الكهف .

دعاه روجر النورماندى حاكم جزيرة صقلية حوالى سنة ١٠٣٠ إلى سنة ١٠٤٠ وعهد إليه بالمهمة العظمى التى حققها الادريسى بكتابه معجم الجغرافى الخالد

ويعتبر كتاب نزهة المشتاق أعظم مؤلف جغرافى فى العصور الوسطى بالرغم من أنه يرى فى وصف البلدان على نظرية (الأقاليم السبعة) المتبق فى سائر البحوث الجغرافية السابقة .

تحدث عن كروية الأرض، ضم سبعون خريطة لكل إقليم من الأقاليم السبعة.

---

(١) من بحث للأستاذ محمد عبد الله عثمان .

أبدع أقسام الكتاب الفصول التى تتعلق بوصف الأندلس وشبه الجزيرة الاسبانية والمغرب وبحر الادرياتيك وإيطاليا وجزائر البحر الأبيض .

قدم معلومات دقيقة عن بلاد أوربا الشمالية مثل ألمانيا وبلاد اسكندناوه .

أبدى دقة واضحة فى تعريب المصطلحات والاعلام الجغرافية الأوروبية مما يحملنا على الاعتقاد بأنه كان يعرف اللاتينية وربما الايطالية .

أورد قصه الإخوة المغرورين :

كتب الادريسى غير موسوعته الجغرافية كتابا آخر عنوانه

(روض الانس ونزهة النفس)

أو كتاب المسالك والممالك لم يصلنا من هذا المؤلف سوى قطعة صغيرة مخطوطة توجد فى مكتبة باستنبول - توفى ٥٦٠ ه

* موسوعة الادريسى نزهة المشتاق :

نشر مختصر طبع فى رومه ١٥٩٢ فى مطبعة ال مديتشى، هذا القسم المتعلق بوصف إفريقية والأندلس نشر بعناية المستشرق دوزى منذ نحو قرن ثم نشر القسم الخاص بالأندلس مرة أخرى بعناية المستشرق الأسبانى ساقدرا

(١٩٦١)

وفيما بعد ذلك نشر السيد محمد بهجة الاثرى بحثا هاما فى هذا الصدد.

(٢٥)

مقياس الحضارة الإسلامية

يختلف عن مقياس الحضارة الغربية ويقوم على الأسس التالية :

أولا : العبودية لله والخضوع أمام شريعته — التكامل وليس الانشطارية : النظرة الجامعة .

ثانياً . وحدة النفس والروح والفكر والوجدان فى طريق واحد دون فصل بينهما .

ثالثاً : وحدة الكون : عصوره القديمة والحديثة ، والغيب والشهادة والدنيا والآخرة .

رابعاً : إسلام الوجه لله تبارك وتعالى :

خامساً : الحفاظ على الذاتية الإسلامية والجهاد فى سبيل حمايتها .

سادسا : البدء من الله تبارك وتعالى فى أمور الخلق والرزق وعطاء العلوم وربط عطاء الحياة كله بفضل الله ورحمته وهدايته فلا يقول المسلم أن هذا من صنع الطبيعة ولا يقول إنى اوتيته على علم ويؤمن بأن كل ماظهر اليوم على يد الإنسان من منجزات الحضارة فبفضل الله لا بفضل الإنسان فالعقل عطاء الله والإرادة . وكل ما ظهر للإنسان من نواميس العلم وسنن الحياة والكون كان من توجيه الله له لمعرفته وإلا فإنه موجود فى الكون منذ خلق الله الكون ولكننا لم نكن نعلمه حتى أذن الله بعلمه فليست الطبيعة هى التى صنعت ولكن الله هو الذى صنع فالإسلام إنتقال من المصنوع إلى الصانع .

سابعاً : أن الله تبارك وتعالى هو الذى أعطى الإنسان سنن الحياة والكون ونواميس قيام الحضارات والأمم وسقوطها .

ثامناً : أن المسلم يستطيع أن يأخذ من الحضارات الأخرى والامم الأخرى الأدوات والوسائل والتنظيمات ولكن لا يأخذ النظم وأساليب العيش والحياة .

تاسعا : أن يؤمن الإنسان بالمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى والبعث والجزاء ويقيم مجتمعه على هذا الأساس .

عاشراً : العلم وسيلة لبناء مجتمع كريم ؛ يقدم على أساس القيم الإسلامية فلا يكون الجرى وراءه سبيلا إلى هدم القيم ولا بد أن ينصهر العلم فى بوتقة الإسلام ليحقق هدف الإسلام وتعاليم الحضارة الإسلامية والمجتمع الربانى .

حادى عشر : علاقتنا بالطبيعة علاقة التسخير لا الغزو ، وعلاقات الأجيال علاقة اللقاء والعطاء المتبادل وليس الصراع وعلاقات الطبيعة ليست علاقات صراع بل علاقة تعاون .

ثانى عشر : ليست وجهة الحياة مادية صرفة ولكنها جامعة بين الروح والمادة ؛ والتقدم مادى وروحى (ولا يقبل التضحية بالروحى من أجل المادى) ويقدم الأخلاق على الجمالى فى الفن فلا يستطيع الفنان أن يصنع ما هو أعظم من الطبيعة ولا يستطيع العالم غزو الطبيعة ولكن تسخيرها ، تسخير الحياة دون احتقارها ، أو انكار صاحب العطاء الأول والحقيق . والربط الدائم بين هذا التسخير وبين وجود صاحب الخلق وصاحب الفضل على الهداية إلى هذا الطريق .

ثالث عشر : لا يسرف المسلم فى انفاق الثروات والخامات فى أمور الكماليات ولا فى السعى وراء اللذات المحرمة ، ولكنه يحافظ على معطيات الله ، ولا يسىء توزيعها فيسرف فى عطائها لاناس ويعطى الآخرون الفتات ، فهى عطاء الله للبشرية كلها بقدر متقارب .

رابع عشر : أن أخطر ما أصاب الحضارة الغربية المعاصرة هو الفصل بين القيم .

الباب الثانى

عطاء الإسلام للعلوم التجريبية

أولا : المسلمون والمنهج العلمى فى البحث :

كان هناك فى مطالع حركة اليقظة الإسلامية رأيان يبدوان متعارضين : أحدهما يقول بأن على المسلمين النظر فى تاريخهم وفكرهم على أساس المنهج العلمى العصرى ، والآخر يقول : أن منهج البحث العلمى عند المسلمين هو منهج غيبى تنقصه الدقة العلمية وأن عليهم أن يلتمسوا المنهج الغربى .

وكلا الرأيين كان باطلا ، ومن تمويه حركة التغريب والتبشير والاستشراق والغزو الثقافى ؛ والادعاء بالباطل على الفكر الإسلامى .

والحقيقة التى لا ريب فيها هى : أن الإسلام هو الذى وضع المنهج العلمى فى البحث ، والمنهج العلمى التجريبى ومنهج المعرفة ذى الجناحين (روح ومادة) وعقل وقلب ، ودنيا وآخرة ، وهو أيضا الذى قدم منهج الحضارات والأمم وسنن قيامها وسقوطها الذى كشف عنه العلامة ابن خلدون .

رأى ورد .

يقول الدكتور محمد حسين هيكل فى مقدمة كتابه حياة محمد — صلى الله عليه وسلم — :

« . . . بدأت هذا البحث فى العربية على الطريقة الحديثة . . . هذه الطريقة الحديثة هى أسمى ما وصلت إليه الإنسانية فى سبيل تحرير الفكر . . تبدأ بالملاحظة والتجربة ، ثم بالموازنة والترتيب ، ثم بالاستنباط القائم على هذه المقومات العلمية ، فإذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية

خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص ولكنها تظل علمية مالم يثبت البحث العلمى تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها » .

وكأنما يريد الدكتور هيكل « الذى لم يكن — إذ ذاك — قد اطلع على شيء كثير من تراث الإسلام » أنه يدخل إلى الفكر الإسلامى منهجا جديدا لم يعرفه المسلمون .

ولقد كتب الأستاذ الإمام محمد مصطفى المراغى ، فى مقدمة كتاب حياة محمد لهيكل ، يصحح له هذا الخطأ إذ أعلن أن هذه الطريقة التى أعجبت هيكل ونقلها عن الغرب : إنما هى طريقة علماء المسلمين أولا ، وأن الغرب قد اقتبسها من المسلمين .

قال : « إما أن هذه الطريقة طريقة القرآن فذلك حق لا ريب فيه ، فقد جعل العقل حكما والبرهان أساس العلم وعاب التقليد وذم المقلدين وأنب من يتبع الظن ، وقال : « أن الظن لا يغنى من الحق شيئاً » ، وعاب تقديس ما عليه الآباء وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها . . . . » .

« . . . وإما أن هذه الطريقة حديثة فهذا مايعتذر عنه ، وقد ساير الدكتور غيره من العلماء فى هذا ، ذلك لأنها طريقة القرآن كما اعترف هو ، ولأنها طريقة سلف علماء المسلمين انظر كتب الكلام تراهم يقررون :

أن أول واجب على المكلف معرفة الله ، وقد جرى الإمام الغزالى على الطريقة نفسها ، وقد قرر فى أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء ثم فكر وقدر ، ورتب ووازن وقرب وباعد وعرض الأدلة وهذبها وحللها ، ثم اهتدى بعد ذلك كله إلى : أن الإسلام حق ، وإلى : ما اهتدى إليه من الآراء .

وقد فعل ذلك ليجافى التقليد وليكون إيمانه إيمان المستيقن المعتمد على الدليل والبرهان ذلك الإيمان الذى لا يختلف المسلمون فى صحته ونجاة صاحبه .

وأنت واجد فى كتب الكلام — فى مواضع كثيرة — حكاية تجريد النفس عما ألفته من العقائد ثم البحث والنظر .

فطريق التجريد طريق قديم ، وطريق التجربة والاستقراء طريق قديم ، والتجربة والاستقراء التام وليدا الملاحظة فليس هناك جديد عندنا .

ولكن هذه الطريقة القديمة بعد أن نسيت فى التطبيق العلمى والعملى فى الشرق وبعد أن فشا التقليد وأهدر العقل ، وبعد أن أبرزها الغربيون فى ثوب ناصع ، وأفادوا منها فى العلم والعمل ، رجعنا نأخذها منهم ونراها طريقة فى العلم جديدة .

هذا القانون العلمى فى البحث معروف قديما وحديثا والمعرفة سهلة ولكن ولكن العمل عسير ، ولا يتفاوت الناس كثيرا فى معرفة القانون ، ولكنهم يتفاوتون جد التفاوت فى تطبيق القانون .

تجريد النفس والملاحظة والاستنباط كلمات سهلة ، ولكن الإنسان الرازح تحت إحمال الوراثة ، فى دمه وعقله وإحمال البيئة فى البيت والقرية والمدينه والدولة والمدرسة ، واحمال المعتقدات والصحة والمرض والشهوات كيف يسهل عليه تطبيق القانون ، هذا هو موضع الداء قديما وحديثا ، وهو سبب اختلاف المذاهب والآراء وسبب تبدلها وتنقلها من قطر إلى قطر ومن أمة إلى أمة . . . اهـ .

وهذا الكلام معناه فى نهايته أن الغرب أخذ المنهج العلمى الإسلامى وادعاه لنفسه ، وأنه حين طبقه لم يحسن تطبيقه ، فربما يكون قد طبقه فى حزم على قضايا الفكر الغربى ، ولكنه حين اتصل بالفكر الإسلامى كان ظالما ومراوغا ولم يحقق العدل والانصاف ، وأمامنا الفكر الاستشراقى الغربى الذى اتصل بقضايا الفكر الإسلامى وإعلامه وتاريخه يكشف بوضوح عن أن المنهج العلمى لم يستعمل استعمالا صحيحا ، وأن الهوى والتعصب والقرار المسبق قد دخل إليه .

(أصول المنهج الاسلامى : طلب الحق)

وإذا كان المعروف أن المسلمين هم الذين قدموا للبشرية المنهج العلمى التجريبى ، فإنهم قد مهدوا لذلك بتقديم منهج البحث العلمى القائم على الاستقراء والقياس ، والاعتماد على المشاهدة والتجربة والتمثيل . وأحاطوا هذا المنهج بالانصاف لمن سبقهم أن أصابوا ، بالأمانة العلمية وتقوى الله فى قول كلمة الحق .

نجد هذا واضحا فى الأصول التى قام البحث العلمى عليها :

أولا :

يقول العلامة ابن الهيثم : يبتدأ فى البحث باستقراء الموجـــودات ، وتصفح أحوال المبصرات ، وبتمييز خواص الجزئيات . ويلتقط باستقراء ما يخص البصر فى حال الأبصار وما هو مطرد لا يتغير . وظاهر لا يشتبه فى كيفية الاحساس به ثم نترقى فى البحث والمقاييس على التدريج والتدريب ، مع انتقاء المقدمات والتحفظ فى الغلط فى النتائج ، ونجعل غرضنا فى جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى فى سائر ما نجيزه وننتقده طلب الحق الذى به تثلج الصدور . ونصل بالتدرج واللطف إلى الغاية التى عندها يقع اليقين ويظهر مع النقد والتحفظ — بالحقيقة التى يزول معها الخلاف وتنحسم به مواد الشبهات .

ثانياً :

يقول العلامة البيرونى : أن أقرب الأسبـاب لمعرفة التواريخ التى تستعملها الأمم ، هو معرفة أخبار الأمم السابقة وأبناء القرون الماضية ، لأن أكثرها أحوال عنها ووسوم باقية من رسومهم ونواميسهم ، ولا سبيل إلى التوسل إلى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات ، والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد ، لأهل الكتب والملل وأصحاب الآراء والنحل المتعلمين لذلك ونعتبر ماهم فيه ، أساسا ، نبنى عليه بعده ثم قياس أقاويلهم وآرائهم فى إثبات ذلك بعضا لبعض بعد تنزيه النفس عن العوارض المردئة

لا كثر الحقائق ، والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهما كالعادة المألوفة والتعصب والتظاهر ، واتباع الهوى والتقالب بالرئاسة وأشباه ذلك(١) .

ثالثاً :

يقول العلامة جابر بن حيان : أن واجب المشتغل فى الكيمياء هو العمل وإجراء التجربة ، وأن المعرفة لا تحصل إلا بها .

رابعاً :

يقول العلامة ابن رشد : إذا ألفينا لمن تقدمنا من الأمم السابقة نظرا فى هذا الذى قالوه عن ذلك ، وما أثبتوه فى كتبهم ، فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم ، وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم .

وعلينا أن نستعين على مانحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك — وسواء كان هذا الغير مشاركا لنا أو غير مشارك — إذا كانت فيها شروط الصحة .

خامسا :

يقول الإمام ابن حزم : أن طالب الحق مستعد لترك قوله ، إذا رأى عنده غير الحق السائغ ، ولا يجوز لمن يملكون أدوات الاجتهاد والعقل أن يقلدوا إماما فى كل ما يقول . أو كل ما قال وقرر من غير ترجيح دليل على دليل .

وطالب الحق لا يصح أن يحجبه التعصب لقوله عن التماسه ، حيث يكون ، وهو فى إخلاصة للحق لا يبغى له الغلب ولكن يبغى بعد نصر الحق المجرد ، وهو مستعد لترك قوله هو إلى قول غيره أن رأى عند غيره الحق السائغ ، الذى لا يشوبه باطل .

(١) من كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية .

وكذلك نقول فيما لم يصح عندنا حتى الآن — فقول محدين مقرين : أن وجدنا أهدى منه اتبعناه وتركنا ما نحن فيه ، فلا نأخذ رأيا ، إلا بعد أن نمحصه ونسلط عليه العقل والبرهان . والمعرفة تكون .

أولا : بشهادة الحواس .

وبالعقل من غير استعمال الحواس .

ثانياً : بأول العقل (أى بالضرورة) .

ثالثاً : ببرهان راجع من قرب أو بعد إلى شهادة الحواس .

ويواجه ابن حزم نظريات من الفلك والجغرافيا : فيقول : زعم قوم أن الفلك والنجوم تعقل وإنها ترى وتسمع ، وهذه دعوى بلا برهان، فقد وضح الحكم بأن النجوم لا تعقل أصلا ، وأن حركتها ابدا على رتبة واحدة . وهذه صفة الجماد .

سادساً :

يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون منه ولقد أدركنا سبعين ممن يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عند هذه الأساطين فما أخذت منهم شيئاً ، وأن أحدهم لو أؤتمن على بيت المال لكان أمينا إلا أنهم يكونوا من أهل هذا الشأن .

سابعاً :

يقول الإمام الترمذى : إنا وجدنا دين الله عز وجل مبينا على الحق والعدل والصدق ، فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول : فإذا افتقد الحق من عمل خلفه الباطل ، وإذا افتقد منه العدل خلفه الجور ، وإذا افتقد منه الصدق خلفه الكذب . فهذه الثلاثة جند المعرفة وهذه الثلاثة من اضدادهن جند الهوى .

ثامناً :

وفى رسالة القاضى عياض ، فى علم المصطلح بعنوان : تحرى الرواية والمجىء باللفظ ، وصفه علماء التاريخ والفقه ، بأنه يضاهى أدق ما ورد فى هذا الموضوع نفسه ، فى أهم كتب الأفرنج فى ألمانيا وفرنسا وانجلترا وأمريكا - يقول الدكتور أسد رستم الذى أورد هذا : أن بين كتابات القاضى عياض ، وبين كتابات الغربيين خمسة قرون واليوم وبالرغم من مرور سبعة قرون فإنه ليس بإمكان رجال التاريخ فى أوربا وأمريكا أن يكتبوا أحسن منها .

تاسعاً :

عكف علماء المسلمين على تصحيح ما أورده علماء اليونان ، ورد الجاحظ ما أورده (أرسطو) من أن هناك طائر قدير على الاهتداء والطيران البعيد : يبنى عشه فى منطقة الجبال فى شرقى العراق بأوراق (الدار صينى) التى تنبت على حدود الصين :

وقال : ولست أدفع خبر صاحب المنطق (أرسطو) عن صاحب (الدار صينى) وإن كنت لا أعرف الوجه فى أن طائرا ينهض من وكره فى الجبال لفارس أو اليمن ويعمد نحو بلاد (الدار صينى) وهـــو لم يجاوز موضعه ولا قرب منه ، فكيف يقطع بطون الأودية واهضام الجبال بالتدويم بالاجواء . لطلب مالم يره ولم يسمعه ولم يذقه ، وبعد فإن شجر الدار صينى ليس بالواطىء ولا بالوثير ولا هو لهذا الطائر بطعام .

ولقد ترددت فى كتابات طه حين وإسماعيل مظهر وحسين فوزى وسلامة موسى ولويس عوض وعدد من التغريبين هذه الدعوى الباطلة وهى الشك فى أخبار الأولين.

ولا ريب أن سبق هذه القواعد التى وضعها علماء المسلمين لفكر الغرب ، والذى اعتمد عليها أساسا كما سنثبت ذلك بوثائق أصيلة — منذ مدة تزيد عن

خمسمائة عام ، كفيل بأن يدحض هذه الفرية ، وقد قامت هـذه الفرية بإنكار فضل المسلمين حينا ، وبالقول بأنهم كانوا نقلة للفلسفة اليونانية أحيانا زمنا طويلا ، ولكن الحق يعلو فلم تلبث الحقيقة أن ظهرت على أقلام عدد من المنصفين ، كاشفة عن أن المسلمين هم الذين أنشأوا (ولا نقول ابدعوا) المنهج العلمى فى البحث والمنهج التجريبى فى العلم وهم الذين وضعوا قواعده السليمة وأسسه وطبقوها تطبيقا منصفا فى كل ما اتصل بهم من قضايا الفكر والعلم والحياة ، وكانت قاعدتهم الأولى مستمدة من القرآن الكريم « قل هاتوا برهانكم » .

أما أثر اليونان فى البحث العلمى ، مما يدعيه التغريب فقول .

ثانيا : المسلمون وبناء المنهج العلمى التجريبي

ردد الغربيون دعويين باطلتين :

أولاهما : أن المسلمين لم يكونوا أكثر من مترجمين وحفظة لعلم اليونان حتى ردوه إلى الأوربيين فى العصر الحديث .

ثانيهما : أن المسلمون أخذوا الفكر الفلسفى اليونانى (أرسطو وأفلاطون وما بعدهما) فكان هو أساس فكرهم ومنهجهم الفكرى .

وكلا الدعويين مردودتان بواقع التاريخ ، وبشهادة المنصفين من الغربيين أنفسهم ، فقد ترجم المسلمون علوم اليونان ولكنهم لم يتوقفوا عندها بل نقدوها وصححوا فاسدها وبنوا على السليم منها منهج « التجربة » الذى لم يكن يعرفه اليونان .

وكان من نتيجة علمهم أن نقلوا الغرب كله من أسلوب (المنهج القياسى : التأمل) إلى أسلوب التجريب .

هـذا بالنسبة للعلم أما بالنسبة للفلسفة فإن ذلك موضوع آخر نفرد له

بحثا مستقلا ، ولكننا نقول هنا أن المسلمين لم يقبلوا منهج أرسطو لأنه « أرجانون » حضارة مادية وثنية وأقاموا « الأرجانون » الإســلامى أساسا على التوحيد .

وكشف الإمام ابن تيمية عن «منطق القرآن» الذى يختلف عن منهج أرسطو ولذلك موضعه .

أما بالنسبة لعلم اليونان الذى تحدث الأوربيون عنه فى العصر الحديث كثيرا فى مبالغة واضحة ، فإنه لم يكن أكثر من شذرات وصلت إليهم عن المصريين والبابليين والكلدانيين والفينيقيين .

والثابت أن اليونان أخذوا عن المصريين وكانوا على إتصال بالبابليين وأنهم اشتغلوا بالهندسة ، وأقاموا البراهين والخطوات المنطقية ، ويعد كتاب اقليدس فى الهندسة أهم كتب هذا العلم ، ومع صدق ذلك ، فلم يقبله ابن الهيثم قبول المسلمات إلا بعد أن وضع مناظيره مواضع التجريب ، فأبطل فاسدها وعدل معوجها .

أما الحساب والجبر فلم يصل علماء الإغريق فيهما إلى درجة ما بلغوا فى الهندسة ، وكان فيثاغورس وغيره ينظرون إلى الاعـــداد نظرة تقديس ويرون أن لها خواص ، وأن لكل منهما معنى وقداعتبروا علم الجبر جزءا من بحوثه ، قبل أن يجعله المسلمون علما مستقلا .

أما الهنود فقد عرفوا بنظامهم العشرى فى الترقيم وكان هذا من أهم الخدمات التى قدموها للحضارة والعالم وكان لديهم أشكال متعددة للاعداد ، فلما جاء المسلمون كونوا منها سلسلتين هما المنتشرتان الآن فى أكثر أنحاء المعمورة ، وقد اشتغلوا بعد ذلك فى المتواليات العددية والهندسية .

وفى الهنـــدسة عرف الهنود ما يتعلق بإنشاء المربعات والمستطيلات والعلاقات بين الأقطار والاضلاع (قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى) .

هـذا هو التراث الذى وجده المسلمون أمامهم قبل أن يبدأو رحلتهم فى مجال العلم ، وهى رحلة تختلف اختلافا واضحا عن خط ذلك التراث الذى وجدوه ، وتغايره مغايرة عميقة ؛ فليس صحيحا ما يقال من أن دور المسلمين هو أنهم أضافوا وكملوا ما بدأه غيرهم وإنما القول الحق أن المسلمين تسلموا هذا التراث على أنه « مواد خام » وأعادوا النظر فيه ، وشكلوه من جديد فى إطار عقيدتهم الواضح العميق وهو التوحيد » .

والواقع أن المسلمين تلقوا هذا التراث القديم على أنه مواد منثورة قوامها القياس ، وقد أعادوا النظر فى هذه المواد جميعا على أساس مفهومهم الجديد « التجريب » فقبلوا منها ما رأوه صالحا ورفضوا ما رأوه فاسدا وأصلحوا ما رأوه قابلا للاصلاح ، ثم أقاموا بناء جديدا كل الجدة يختلف تماما عما كان يعرفه اليونان والفرس والهنود ، وذلك هو ما عرف بعد باسم : « المنهج الإسلامى التجريبى » .

وهو المنهج الذى قام عليه بناء الحضارة المعاصرة ، وفى سبيل تحليل هـذا التراث العلمى قبل الإسلام نجد أمامنا الحقائق التالية :

أولا :

خطأ القول بأن العلم بدأ فى بلاد الإغريق .

لقول جورج سارطون فى كتابه « تاريخ العلم » ما يلى :

من سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم قد بدأ فى بلاد الإغريق ؛ المعجزة اليونانية قد سبقتها آلاف الجهود العلمية فى مصر وبلاد ما بين النهرين ، وغيرهما من الاقاليم ، والعلم اليونانى كان إحياء أكثر منه اختراعا .

ويقول ول ديورانت فى كتابه (قصة الحضارة : ج ٢) أن ماورثه اليونان من الحضارات أكثر مما ابتدعوه وكانوا الوارث المدلل المترف لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين ، جاءت إلى مدائنهم مع مغانم التجارة والحروب .

ثانياً : كان كل ما عند اليونان هو بمثابة معارف قائمة على المنهج القياسى :

يقول عمر فروخ : وكانت معرفة اليونان خرافات في الأكثر . ومحاولات فى الأقل . وأن ما كان منها صحيحاً ثابتاً لم يكن يعدو مثله مما كان عند المصريين والبابليين ، فلما جاء المسلمون جعلوا من العلوم علماً صحيحاً وأنكروا خرآفاته وحاولوا إصلاح مجالاته .

ثالثاً : اعترف العلماء الغربيون بأن اليونان لم يعرفوا التجريب وكانوا يكرهونه :

يقول : هـ . جـ . ولز فى كتابه خلاصة التاريخ العام :

و لم يهتد اليونان مدة اشتغالهم بالبحوث الفلسفية إلى جعل التجربة قاعدة البحث وأساس التنقيب ، وذهب اليونان إلى تقديس العقل إلى حد جعلهم يكذبون ما لا يتفق معه ولو أيده الحس .

وقد أشار غير باحث إلى موقف اليونان من التجربة والتجريب :

قال الدكتور على سامى النشار : « لقد احتقر اليونان التجربة والتجريب وجاء منطق أرسطو أكبر معبر عن روح اليونان، ولذلك فقدر رفضه المسلمون، ولم يكن رفضه ناشئاً عن ضيق أفق الحضارة الإسلامية : « روح القرآن وإنما كان إعلانا صادراً عن روح الذى دعا إلى وضع منهج ومنطق مختلف فى كل خصائصه عن (منطق أرسطو روح الحضارة اليونانية) .

وأشار كثيرون إلى أن المسلمين قلبوا العلم اليونانى والفلسفة اليونانية فى بعض وجوههما رأسا على عقب ، وأكدوا أن الفكر العملى قبل الإسلام كان مجموعة من الخرافات والاعتقاد بالتنجيم والسحر .

رابعا : يقرر الدكتور عمر فروخ : أن كل ما كان حتى القرن الثالث الهجرى فى بيزنطة من ميراث اليونان لا يأتلف مع تعريف العلم الذى يعرفه تاريخ الفكر الإنسانى .

ثم يقول : فمع أن البيزنطيين ورثوا عن إسلافهم اليونان تراثاً علمياً ضخماً، فإنهم لم يدرسوا هذا التراث العلمى إلا فى الشروح العربية ، ثم إنهم كانوا يعدون علوم التعاليم (الطبيعيات والرياضيات) ممهدة إلى درس الفلسفة ولم يدرس البيزنطيون الفلسفة للفلسفة إلا بعد أن تأثروا بلا ريب بنهضة الإسلام .

وهكذا نستطيع أن نجزم بأن الروح العلمية ولدت مع العقل (الاسلامى) مستقلة عن التوراة واليهود ، وعن الانجيل والنصارى . وعن الفلسفة اليونانية والبيزنطية .

ويقول : ولا أعلم غير الإسلام ديناً حث أتباعه على العلم ، وأعلن أن العلم لا يخالف الدين بل يساعد العقيدة على الرسوخ .

شهود آخرون :

ومن ناحية الأخرى ، فقد اعترف علماء الغرب المنصفون بالحدث العظيم الذى قدمه المسلمون فى مجال العلم ، كما اعترفوا بفضل هذا العلم على حضارة الغرب:

يقول جوستاف لوبون : كان تأثير العرب فى الغرب عظيما وإليهم يرجع الفضل فى حضارة أوربا ، ولم يكن نفوذهم فى الغرب أقل مما كان فى الشرق ، ولكنه كان يختلف عنه ، أثروا فى بلاد المشرق بالدين واللغة والصنائع أما فى الغرب فلم يؤثروا فى الدين وكان تأثيرهم فى الفنون واللغة ضعيفا ، وتأثيرهم بتعاليمهم العلمية والأدبية والأخلاقية عظيما ، ولا يتأتى للمرء معرفة التأثير العظيم الذى أثره العرب فى الغرب ، إلا إذا تصور حالة أوربا فى الزمن الذى دخلت فيه الحضارة .

فإذا رجعنا إلى القرنين التاسع والعاشر للميلاد يوم كانت المدنية الإسلامية فى أسبانيا زاهرة باهرة ، نرى أن المراكز العلمية الوحيدة فى عامة بلاد الغرب كانت عبارة عن أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين ، يفاخرون بأنهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون وكانت الطبقة العامة المستنيرة عبارة عن رهبان فقراء يقضون الوقت بالتكسب فى أديرتهم بنسخ كتب العلماء ، دون فهم أو اقتناع ،

ليبتاعوا ورق البردى اللازم لنسخ كتب العبادة وطال عهد الجهالة فى أوربا وعم تأثيره بحيث لم تعد تشعر بتوحشها ، ولم يبد فيها بعض الميل للعلم إلا فى نهاية القرن الحادى عشر ، وبعبارة أصح فى القرن الثانى عشر ؛ ولما شعرت بعض العقول المستنيرة بالحاجة إلى نفض كفن الجهل الثقيل ، الذى الناس ينوءون تحته ؛ طرقوا أبواب العرب يستهدونهم مايحتاجون إليه لأنهم كانوا وحدهم سادة العلم فى ذلك العهد ولم يدخل العلم أوربا ابان الحروب الصليبية كما هو الرأى الشائع بل دخله بواسطة الأندلس وصقلية وإيطاليا . وعرف الغرب بترجمة مؤلفات العرب عالما جديدا ، وقد عد (لكلرك) فى تاريخ الطب العربى ثلاثمائة كتاب نقلها الغرب إلى اللاتينية من العربية ، وماعرفت القرون الوسطى المدنية إلا بعد أن سرت إليهم من اشياع محمد صلى الله عليه وسلم .

وبعض هذه المترجمات لكتب القدماء التى فقد أصلها ، حفظت هذه الأسفار من الضياع ، فوصلت إلى الغرب ، وإلى العرب وحدهم لا رهبان القرون الوسطى ممن كانوا يجهلون حتى اللغة اليونانية — يرجع الفضل فى معرفة الأقدمين ، والعالم مدين لهم على وجه الدهر لانقاذهم هـذا الكنز الثمين » ا . هـ.

١ — يقول ليترى : لوحذف العرب من التاريخ لتأخرت نهضة الآداب عدة قرون فى الغرب . .

ويقول لوبول : وكلما تعمق المرء فى دراسة المدنية العربية الإسلامية تجلت له أمور جديدة ، واتسعت أمامه الآفاق وثبت له أن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة إلا بواسطة العرب ، وأن جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة تكتب للعرب خاصة ، وأن العرب هم الذين مدنوا أوربا فى المادة والعقل والخلق ، وأن العرب والمسلمين أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين .

ويرى البعض أنه من العار أن تكون أوربا مدينة فى خروجها من دور

الهمجية للمسلمين ، ولكن من الصعب أن يحجب مثل هـــذا العار الوهمي وجه الحقائق .

وعلى الجملة فإن التاريخ ما عرف فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب .

جوستاف لوبون من كتابه « حضارة العرب » .

٢ — ويقول بريفولت من كتاب « تجدد الفكر الدينى لمحمد إقبال : أن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينـا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة ، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية ، أنه مدين لهـــا بوجوده نفسه .

فالعالم القديم لم يـكن فيه للعلم وجود ، وعلم النجوم عنـد اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم ولم تتأقلم فى يوم من الأيام فتمتزج امتزاجا كلياً بالثقافة اليونانية ، وقد نظم اليونان المذاهب ، وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات ولـكن أساليب البحث وجمع المعلومات الايجابية وتركيزها والمناهج التفصيلية للعلم والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبى ، كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليونانى ، ولم يقارب البحث العلمى نشأته فى العالم القديم إلا فى الاسكندرية فى عهدها الهلينى ، أما ما ندعوه العلم الحق فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة ولطارق التجربة والملاحظة والمقاييس ، ولتطور الرياضيات إلى صور لم يعرفها اليونان وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الاوربى .

أن « روجر بيكون » درس اللغة العربية والعلم العربى والعلوم العربية فى مدرسة اكسفورد على خلفاء معلميه العرب فى الاندلس ، وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذى جاء بعده (فرانسيس بيكون) الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى فلم يكن (روجر بيكون) إلا رسولا من رسل العلم ومنهج الإسلامية إلى أوربا المسيحية وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد لمعرفة الحق .

والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي طرق من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية ، وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر بيكون قد انتشر انتشارا واسعا وانكب الناس في لهفة على تحصيله في ربوع أوربا .

٣ ـ ويقول (ج . ب . تريند) من بحث للدكتور مأمون عن عبد السلام أثر الإسلام في المدينة يقول : لم يكتف الاسبانيون ، بمكابرتهم في الاعتراف بفضل الإسلام عليهم ، وعلى المدنية الغربية الحديثة ، بل أنهم يحتقرون كل من تحدثه نفسه منهم بالتفكير الحر المجرد من الغاية ؛ ويرجع ذلك إلى ما غرسه مؤرخوهم في نفوسهم من الحقائق المعكوسة عن الإسلام ، وعن ميل كتابهم لنسبة كل ما هو حسن إلى أصل لا تيني .

ولكن الحق لابد أن يظهر ويعلو ، وما شوهته الاغراض لابد أن تظهره الأيام حتى يخرج بجوهره حرا خاليا من الشوائب والملفقات فالحق لا يعدم نصيرا :

فلما خرج الاسبان مدحورين في حروبهم مع الولايات المتحدة عام ١٨٩٨ زالت الغشاوة عن عيون علمائهم وحلت في نفوسهم روح الحق فجعلوا أبحاثهم مجردة من كل عاطفة ، وأول من رفع لواء الحق وقادهم إلى طريق الصواب (فرانسيشكو جينير وتلميذه منتديز بيرال) .

٤ ـ ويقول الدكتور لويجي رينالدي (المقتطف ١٩٢١) : لقد اجتاح العالم الغربي حوالي ألف سنة ميلادية غزو إسلامي جديد كالسيل الجارف ولم يكن أي حاجز يقوى على صده ، ذلك الغزو الذي يحمل التهذيب العربي والمدنية الإسلامية فإن شعب الصحراء العظيم ظهر على وجه الأرض بعد سقوط المدنيتين الرومانية واليونانية واندثار معالمها ، وعقب ذلك وبذلك قام العرب في ظلمات « بربرية القرون الوسطى » بإعادة نور الحضاره والمدنية الذي كان قد انطفأ في جميع بلاد الغرب والشرق حتى القسطنطينية .

ولست أدرى لماذا لا نسمع كلمة إعجاب بالشعب العربي العظيم ؛ الذى ترك فى طريق المدينة أثارا عديدة ، والذى حمل معه أعظم المساعدات وأجل الخدمات للنوع الإنسانى ؛ فلا نبخل على العرب باعطائهم المقام اللائق .

وقد يحزننى ويحزن غيرى ممن ينصفون أن يكون بيننا نحن الاوربين نفر يقودهم سوء الظن والجهل إلى احتقار العرب وحسبانهم أمة أدنى من أمهم ؛ وأن نرى كلمة عربى عندنا تدل على معنى غير معنى التمدن ، فإن هذا الشعب لايزال يحفظ صفاته العجيبة وذكاءه النادر .

٥ — ويقول (ل . ا . سيديو) فى كتابه تاريخ العرب العام : كان العرب والمسلمون وحدهم ممثلى الحضارة فى القرون الوسطى، فدحروا توحش أوربا التى زلزلتها غارات أمم الشمال ، ولم يشتعل النور فى أوروبا ثانية إلا بعد ثمانية قرون فهل كانت هذه الفتره الطويلة تجاه العالم بأسره دورجهل وتوحش، هناك ظهر العرب .

ومازال الفرنج إلى اليوم ينسبون إلى العرب والمسلمين جميع التخريب الذى يرون اليوم اثاره فى الأقطار التى أغاروا عليها ، وقد هولت الفرنج من شأنهم ، مع أنهم كانوا فى جميع الوقائع ذوى لطف عند الانتصار وسبب ذلك ما رسخ فى عقول الفرنجة من الخـــوف والنفرة من العرب .

ويظهر أن قصد نسيان العرب وإنكار مالهم من تأثير فى الحضارة الحديثة قد ولى ، فقد حل الوقت الذى توجه فيه الانظار إلى تاريخ تلك الأمة التى كانت مجهولة الأمر فى زاوية من آسيا ، فارتفعت إلى أعلى مقام فطبق اسمها آفاق الدنيا مدة سبعة قرون ، أن مغازى العرب وإقامتهم بين القرنين الثامن والحادى عشر بجنوب فرنسا أسفرت ولا ريب عن آثار .

لا تزول فى لغتنا ، وإن نفوذ العرب كان باديا فى مختلف أدوار تاريخنا ، لا فرق فى ذلك بين زمن الغزوات الأولى وزمن الحروب الصليبية .

ومن المؤسف أن جهل أفضل علمائنا فى اللغة : « لغات الشرق » فظلت اللغة العربية التى حافظت على صفائها بفضل القرآن ، وهى أدعى اللغات إلى العجب ، حرفاً ناقصا عندهم ، حتى أنهم لم يدر فى خلدهم أن الكلمات التى يفرضونها إيطالية أو اسبانية أو برتغالية عن أصل لا تينى قد اقتبست من العربية .

إن العرب المسلمين كانوا أساتذة أوربا كلها فى جميع فروع المعرفة ، وإن ما شيد من المدارس والجامعات فى أرجاء دولتهم كان يوقد مصباح الحضارة فيما بين الشرق الأقصى وبين هركول (مضيق جبل طارق) ناشراً آثار الفن العربى الرائع فى كل مكان ، عاملا على تجديد الدم فى عروق العالم اليوم .

ونحن مدينون للعرب فى الحقل العلمى ونعترف مع ذلك بأن قومنا جميعاً كانوا يتلهون بتشويه ما يقتبسونه من التعابير تشويها غريبا إلى الغاية ، فلقد حل الوقت الذى توجه فيه الانظار إلى تاريخ تلك الأمة التى كانت مجهولة فارتقت إلى أعلى مقام فطبق اسمها آفاق الدنيا مدة سبعة قرون .

٦ — ويقول برناردر لويس : إن أوربا تحمل دينا مزدوجا للعرب ، فقد حافظ العرب على التراث الفكرى والعلمى الذى خلفه اليونان ، وتوسعوا فيه ونقلوه إلى أوربا ، ومن العرب تعلمت أوربا طريقة جديدة فى البحث ، وهى طريقة تضع العقل فوق السلطة وتنادى بوجوب البحث المستقل والتجربة ، وكان لهذين الدرسين الفضل فى القضاء على جهل العصور الوسطى ، لقد أسس العرب فى أسبانيا وصقلية مدنية زاهرة أرقى كثيراً من أى مدنية معاصرة لها ، فى ذلك الوقت فى البلاد الأوربية ، حتى بعد أن استعاد الغربيون سيادتهم على تلك البلاد ، ظلت العلوم العربية ، مزدهرة مدة من الزمن ، وكان من الملوك المسيحيين من يتعلم العربية ويؤازر العلماء العرب .

وفى القرن الثانى عشر شرع العلماء فى البلاد الشمالية وخاصة انجلترا يردون الجامعات العربية فى أسبانيا للبحث عن العلوم والمعارف وفى مقدمتهم (أدلارد) الذى ترجم إلى اللاتينية كثيراً من الكتب العربية ، وعشرات غيره برعوا فى العربية .

٧ — ويقول العلامة درابر : كانت قرطبة تتألف من مائتى ألف بيت ويسكنها مليون من النسمات ويكفى أن تعرف أن شارعها الأكبر ، كان بطول عشرة أميال ويضاء ليلا للمارة بمصابيح كبيرة وذلك مشهد من مشاهد الحضارة لم تعرفه مدينة لندن إلا بعد ذلك العهد بسبعمائة عام، وكانت طرقاتها مرصوفة بالأحجار ، فى حين أن باريس ظلت قرونا بعد حضارة العرب فى الأندلس بركا للمياه والأوحال ، التى تغوص فيها الأرجل إلى الركب فى فصل الشتاء ، ولم يقتصر الأمر على قرطبة بل أن غرناطة واشبيلية وطليطلة كانت مدناً تعد أشباها لقرطبة ونظائر لها ، وكانت قصور الأمراء مثلا من الفخامة الشرقية ، بل كانت متاحف للفنون الرفيعة وعنوانا على حضارة عريقة ، فى حين أن المنازل التى سكنها أمراء ألمانيا وفرنسا وانجلترا لم تكن تفضل حظائر الماشية فى شىء فهى بلا مداخن ، ولا نوافذ وكان المخرج الوحيد الذى يسلم إلى فضاء الجو كوة من أعلى السقف يتصرف منها الدخان .

ومن موجب الأسف أن الادب الاوروبى حاول أن ينسينا واجبنا العلمى نحو المسلمين ، فقد حان الوقت الذى ينبغى لنا أن نعرفهم وأن قلة الانصاف المبنية على الأحقاد وعلى العنجهية القومية لا تدوم أبد الدهر .

٨ — ويقول (ادلارد) : إننى وقائدى ودليلى هو العقل - قد تعلمت شيئاً من أساتذتى العرب ، وأنت قد تعلمت شيئاً مختلفاً عنه ، لقد بهرتك مظاهر السلطة فوضعت فى رأسك لجاما تعاديه ، إن كثيراً منكم يرسف فى إغلال البساطة وتصديق كل ما يقع ويقودكم إلى الخطر سلطة الكتاب والمؤلفين ، وإن الإنسان قد منح العقل لكى يستمد منه حكما عالياً فى الفصل بين الحق والباطل .

٩ — ويقول دولامبر — إذا عددت بين الأغريق راصدين أو ثلاثة ثم نظرت إلى العرب والمسلمين أمكنك أن ترى بينهم عدداً كبيراً من الرصاد ، ومئات من علماء العرب قامت مباحثهم الكيماوية على التجربة ، ونشأ عن منهج العرب التجريبي الخاص وصولهم إلى اكتشافات مهمة ، فقد أنجز المسلمون في ثلاثة قرون أو أربعة من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الأغريق في زمن أطول من ذلك كثيراً .

١٠ - تلك إشارات من عشرات الأبحاث التي كشفت حقيقة فضل الإسلام على العلم التجريبي وحضارة الغرب ، فماذا حققه المسلمون في مجال العلم من انجازات ذلك هو بحثنا القادم .

كتابة المكفوفين

سبق الفكر العربى الإسلامى فى أولية كتابه المكفوفين وهى التى عرفت بالحروف البارزة وأطلق عليها طريقة (بريل) وعرف عدد من المخترعين لهذه الطريقة فى مقدمتهم:

على بن أحمد على يوسف بن الخضر المشهور بزين الدين الآمدى .

وقد سجل صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى فى كتابه :

(نكت الهميان فى نكت العميان) هذه الطريقة :

يقول المؤلف أن زين الدين الآمدى — وهو مكفوف — فإذ طلب منه كتاب وكان يعلم أنه عنده نهض إلى خزانه كتبه واستخرجه من بينها كأنه قد وضعه لساعته .

وإن كان الكتاب عدة مجلدات وطلب منه الأول مثلا أو الثانى أو الثالث أو غير ذلك أخرجه بعينه وأتى به ، وكان يمس الكتاب أولا ، ثم يقول . أن هذا الكتاب يشمل على كذا وكذا كراسه ، فيكون الأمر كما قال وأنا أمر يده على الصفحة قال عدد أسطر هذه الصحيفة كذا وكذا سطراً وفيها بالقلم الغليظ كذا ، وهذا الموضع كتب به فى الوجهة كذا وفيها بالحمرة كذا من غير إخلال بشىء مما يمتحن به ، ويعرف أثمان جميع كتبه التى اقتناها بالشراء ، وذلك أنه كان إذا اشترى كتابا بشىء معلوم أخذ ورقة خفيفة ونقل منها فتيلة لطيفة وصنعها حرفا أو أكثر من حروف الهجاء لعدد ثمن الكتاب بحساب الجمل ، ثم يلصق ذلك على طرف جلد الكتاب من داخله ويلصق فوقه ورقه بقدره لتتأبد ، فإذا شذ عن ذهنه كمية ثمن كتاب ما من كتبه مس الموضع الذى علمه فى ذلك الكتاب بيده فيعرف ثمنه من تثبيت العدد الملصق به .

الأرقام العربيـــة

هناك نظرية تشيع بين بعض المثقفين مفادها أن الأرقام العربية الراهنة : (١ — ٢ — ٣ — ٤ الخ) هى أرقام هندية وأن الأرقام المستعملة فى اللغات الأوربية 4, 3, 2, 1 هى الأرقام العربية الأصلية ويقودهم هذا الاستنتاج إلى خطوة أخرى هى الدعوة إلى اعتماد الأرقام الأخيرة فى البلاد العربية ، ويدعمون هـــذا الطلب بحجة جديدة هى أن الأرقام أصبحت وسيلة التعامل الحسابى مع الدول والمؤسسات الأجنبية التى باتت تملك نفوذا واسعا فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية فى البلدان العربية .

هناك مايشبه الاجماع على أن الأرقام العربية والأجنبية تعود إلى أصل هندى وأن العرب نقلوا النوعين معا وادخلوا عليهما تعديلات كثيرة وبينما حافظوا على النوع المستعمل عندهم حاليا فقد نقلوا النوع الآخر إلى اللغات الأوربية الحديثة ولذلك فإن النوع المستعمل فى البلاد العربية يسمى عربيا بينما النوع المستعمل فى أوربا يسمى (الهندى — العربى) .

أن أول إشارة للأرقام الهندية فى التراث العربى ذكرها كاهن عاش فى العراق حوالى عام ٦٥٠ م هو سيفيروس سيبوخت حيث تحدث عن تسع علامات أو أرقام مما يعنى أن (الصفر) لم يكن موجودا حتى ذلك التاريخ وإنما إبتكره العرب بعد ذلك بفترة طويلة .

ذكر الخوارزمى نوعين لشكل تلك الأرقام الحسابية أحدهما هو السائد فى البلاد العربية فى زمانه وحتى يومنا هذا ، والآخر الذى ساد فى الأندلس وانتقل منها إلى البلاد الأوربية ، وقد اتسعت حركة الترجمة فى الحساب والجبر والفلك عن العربية إلى اللاتينية واللغات الأوربية اتساعا كبيرا بعد ذلك ومن أبرز العلماء الأوربيين الذين مارسوا دورا فى هذه الحقول ليوناردو البيزى الذى ترجم أعمال أبو كامل والخيام وابن سينا والبيرونى وغيرهم .

ومن كل ذلك يتضح أن أصول النظامين ينتهى إلى القارة الهندية دون أن نغفل دور العرب فى تطويرها جميعاً واستخدامها فى العلوم والفنون المختلفة ونقلها لاوربا حتى أصبحت أصلا رئيسيا فى منجزات الحضارة الحديثة .

وذكرت سجريد هونكه فى كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب) أن أحد الانجازات الرئيسية فى علم الحساب إلى جانب إنجازاتهم الأخرى ابتكار (الصفر) أى الفراغ الذى كان غيابه يشكل قضية كبرى فى علم الحساب حيث كان يصعب اتمام المعادلات الحسابية الكبيرة والمعقدة ، ولا يزال أسمه فى كل اللغات يحمل أصله العربى بمعنى أو بآخر سواء باللاتينية (CiFRe) أو فى الفرنسية ChiFFre أو بالإنجليزية ZERO .

والخلاصة أنه من الناحية التاريخية لا صحة للقول بأن أحد نظامى الأرقام الحسابية هو عربى والآخر هندى ذلك لأن أصلهما واحد وطريقة نموهما وانتشارهما على يد العرب يكاد يكون واحداً كذلك وأن أحد النظامين وهو المعمول به فى البلاد العربية هو الذى استقر وتعرب مع الزمن أما الآخر فهو الذى مات واندثر فى المحيط العربى قبل أن يظهر فى ديار الغرب عبر الاندلس وانقطعت أسبابه بانتهاء الوجود العربى فى شبه الجزيرة الايبيرية .

وأن كتب التراث العربى الإسلامى فى المشرق على امتداد قرون كثيرة كانت ترقم بالأرقام العربية الراهنة لا بغيرها مما يعنى أن هذه الطريقة قد ارتبطت إرتباطا محكما بالتراث العربى .

كامل الشريف (مجلة أرض الاسراء)

ادعى البعض نقلا عن بعض المصادر الأوربية أن العرب هم الذين اخترعوا الأرقام التى يكتبها الأوربيون والمغرب العربى وهذه دعوى باطلة ونسوق أدلتنا من مأثور ما كتب العرب فى القرون السابقة من القرن الرابع الهجرى إلى عهدنا الحاضر فأول ذلك مارسمه ابن النديم (القرن ٤) فى كتابه (الفهرست) وماهو مرسوم فى كتاب الفصول فى الحساب الهندى للاقليدسى ألفه ٣٤١هـ

وهذا كتاب خاص بعلم الفلك مكتوب فى القرن السابع : زبده الادراك : وواضح فيه استعماله للارقام الهندية ويلاحظ أن الصفر كان يكتب دائرة ، أما الخمسة فكانت تكتب كرسم الأربعة مقفلة بواحد أمامها . حتى النقود حين كتبت عليها الأرقام نجدها تستعمل ما يستعمله عرب المشرق وفى شنقيط نجد المرحوم الشيخ الشنقيطى الذى كان من كبار علماء العرب سجل التاريخ فى كل كتبه التى تجاوز المائة بالأرقام الهندية المستعملة فى المشرق وذلك من ١٢٩٢ — ١٣٢١ هجرية .

ونذكر أن الأرقام الهنديه أدخلت أوربا فى القرن العاشر والذى أدخلها البابا سلفستر وإن أشكالها تغيرت وإذن فالأرقام الأوربية الان ليست هى الأرقام التى دخلت أوربا بل تغيرت وإن أصلها غير مقطوع به .

ويقول حاجى خليفة فى كتابه كشف الظنون تحت كلمة حساب علم الحساب « وتنسب هذه الأرقام إلى الهند » .

إذن فليس من المعقول أن الأرقام الهندية التى أدخلها العرب إلى أسبانيا قد تطورت فى أوربا ثم عادت فغزت المغرب العربى بصورتها المتطورة وأخذت اسم (الغباريه) كما يسميها بعض المؤلفين أو لفظ المغربية كما يسميها صاحب كشف الظنون ثم زادت فى تطورها حتى صارت على الوضع الذى يسير عليه الأوروبيون الآن .

لقد تلقف جماعة من الغرب مايقوله بعض الأوربيين عن أرقامهم أنها عربية ولم يستمعوا إلى بقية القول ، إذلم يعرفوا المقصود بقولهم إنها عربية ، لأن العرب هم الذين أدخلوا إليهم الأرقام فى أول الأمر ، وتطورت عندهم ، ولكنهم على الرغم من تطويرها سموها باسم الذين نقلوها إليهم .

عبد الستار فراج (العربى)

تاريخ علم الحساب العربي

إذ ذكرنا أن في مكتبات العالم قرابة ستة ملايين مخطوطة عربية ، تصل بمجموعها إذا استبعدنا النسخ المكررة إلى ستمائة ألف كتاب مختلفات منها في الرياضة وحدها على سبيل المثال حوالى ألف لم يدرس منها أكبر من مائة دراسة علمية محققة ، تعطى القارىء فكرة عن مضمونها إدركنا ضخامة المهمة التي تنطوي عليها الجواب ، ناهيك عن مئات الألوف من المخطوطات اللاتينية التي هي ترجمات أو اقتباسات عن كتب عربية فقدت أصولها .

. . .

مكانه الرياضيات الاسلامية من البنيان الرياضي العالمي .

قام علم الحساب العربي على أصوله ثلاثة :

أولها : حساب اليد وهو الحساب الموروث ؛ أي النظام الحسابي الذي لقيه العرب عند الفرس والروم البيزنطيين .

ثانيهما : الحساب الهندي وهو نظام حسابي اكتشفه العرب عند عامه الهنود وتجارها فتبنوه وعدلوه .

ثالثها : مجموع الأقطار الأغريقية في الجبر وخصائص الأعداد :

ولعل العرب كانوا أول من كتب الكتب في شرح حساب اليد وربما كان أول من كتب في حساب اليد : أبو عبد الله محمد بن موسى .

الخوارزمي : في النصف الأول من القرن التاسع الميلادي ، وقد فقد كتابه كما فقدت كتب أخرى ، كثيرة ، كتبت بعده ، ولكن أحسن ما بقي لنا من كتب حساب اليد كتابان :

١ — لأبى الوفاء البوزجانى (القرن ١٠) م

(٢) لأبى بكر محمد بن الحسن الكرجى (القرن ١١ م) .

ولقد كان البوزجانى فلكياً رياضياً كبيراً حقق منجزات قيمة ولا سيا فى علم المثلثات ولعله فى كتابه فى حساب اليد قد حقق الكثير مما استهدفه وهو وضع حساب اليد على أسس رياضية سليمة وتخليصه من أخطاء تقليدية علقت به مدى الأجيال .

ولم يكن الكرجى كالبوزجانى من حيث المقدرة الرياضية ولكن كتابه المسماه (الكافى فى الحساب) شاع أكثر لأنه كان أوجز ودليل شيوعه أن شروحا كثيرة وضعت له .

وكتاب البوزجانى اسمه (فيما يحتاج إليه الكتاب والعمال وغيرهم فى صناعة الحساب) فهو أشبه بدليل يقدم المادة الحسابية اللازمة لكل حرفة .

ويجعل صفحات كتابه الاولى أشبه بجداول وقواعد عامة لتحويل الكسور بعضها إلى بعض ، وربما كان فى هذا يشق طريقاً جديداً يحاول به أن يبسط مهنة الحساب على الحاسب ، كما يضم التطبيقات العملية مما لا نجده فى غيره فهو فى سبعة أقسام يسميها المؤلف منازل : تعرض المنزلتان الاوليان منها للمبادئ الحسابية العامة وتعرض الخمس الأخرى التطبيقات التالية :

١ — حساب المساحات والحجوم .

٢ — حساب الخراج وأنواع الضرائب الأخرى .

٣ — حساب البيع والشراء والرواتب والبريد وما يجرى مجراها .

٤ — حساب الأوزان والموزونات والعمل والعمال وما إلى ذلك .

٥ — حساب الكيل والمكيلات .

ولم يتعرض لمادة الجبر ، فقد أفرد لها كتاباً خاصا ، ولكن كتابه لم يصل إلينا .

أما الحساب الهندى : الركن الثانى من الأركان التى قام عليها علم الحساب العربى فله مع العالم الإسلامى قصة يجلوها (تاريخ علم الحساب العربى) .

وهو كتاب الفصول فى الحساب الهندى لأبى الحسن أحمد بن إبراهيم الأقليدسى .

وقد ولى محمد بن موسى الخوارجى مهمة التوفيق بين الأنظمة الفلكية المختلفة من هندية وفارسية وأغريقية ، فى سبيل وضع علم فلكى إسلامى يشمل أحسن ما فيها ، ولدينا مما وصل إلينا من كتب الخوارزمى دليل قاطع على أنه لم يصب فى هذة المهمة سوى نجاح جزئى إلا أن الخوارمى قد أصاب نجاحاً فى ميدان آخر هو ميدان الحساب فإن صلته بالهنود والفكر الهندى جعله يكتشف لديهم نظاماً حسابيا غير معروف فى العالم العربى فكتب فيه كتابا ذاع صيته . وقد فقد كتاب الخوارزمى إلا أن لدينا عدة مخطوطات لاتينية تحمل محتوياته . ومن هذه المخطوطات يستطيع أن تقول أن ما وصفه الخوارمى فى كتابه إنما هو نظام هندى ولكنه يخالف ما شاغ فى العالم الاسلامى باسم الحساب الهندى .

أما هذا الحساب الهندى الذى شاع فى العالم الاسلامى فلدينا كتب كثيرة تصفه ومنها ما يسميه بالحساب الهندى أو حساب الهند ومنها مايسميه بحساب التحت أو التراب أو الغبار .

أحمد سليم سعيدان

مصطلح التاريخ : علم إسلامى

الحديث : دراويه ورروايه

والتاريخ : داريه ورواية

فيصبح لدينا مصطلح التاريخ كما أصبح لدى علماء الحديث مصطلح الحديث لما أردت تدريس علم المثودولوجية وهو ما أريد أن أسميه (مصطلح التاريخ) اضطررت أن أرجع إلى مصطلح الحديث لسببين :

أولهما : الاستعانة بمصطلاحات المحدثين :

الثانى : فى ربط ما أضعه لأول مرة فى اللغة العربية بما سبق تأليفه فى عصور الأئمة المحدثين فاكببت على مطالعة كتب المصطلح ، وجمعت أكثرها وكنت كلما ازددت إطلاعا عليها ازداد ولعى بها وإعجابى بواضعيها ، ومن أهم ما وجدت فيها نسخ قديمة من رسالة القاضى عياض فى علم المصطلح كتبها ابن أخيه سنة ٥٩٠ للهجرة فلما درستها وجدتها من أنفس ماصنف فى موضوعها وقد سما بها القاضى عياض إلى أعلى درجات العلم والتدقيق ، والواقع أنه ليس بإمكان أكابر رجال التاريخ فى أوربا وأمريكا أن يكتبوا أحسن منها فى بعض نواحيها وذلك بالرغم من مرور سبعة قرون عليها فإن ما جاء فيها من مظاهر الدقة فى التفكير والاستنتاج تحت عنوان : تحرى الرواية والمجىء باللفظ :

يضاهى أدق ما ورد فى الموضوع نفسه فى أهم كتب الفرنجة فى ألمانيا وفرنسا وأمريكا وبلاد الإنجليز .

والواقع أن المثودولوجية الغربية التى تظهر اليوم لأول مرة بثوب عربى ليست غريبة على مصطلح الحديث بل تمت إليه بصلة قوية .

فالتـــاريخ درايه وروايه كما أن الحديث درايه وروايه

والقواعد التى وضعها الأئمة منذ قرون عديدة للتوصل إلى الحقيقة فى الحديث

يتفق فى جوهرها واتجاهها والأنظمة التى اكتشفها علماء أوربا فيما بعد فى بناء علم المثودلوجية .

ولو أن مؤرخى أوربا فى العصور الوسطى والعصور الحديثة أطلعوا على مصنفات الأئمة المحدثين لما تأخروا فى تأسيس علم المثودولوجية حتى أواخر القرن الثامن عشر ، وبإمكاننا أن نصارح زملائنا فى الغرب فنؤكد لهم أن ما يفاخرون به فى هذا القبيل نشأ وترعرع فى بلادنا ونحن أحق الناس بتطبيقه والعمل بأسسه وقواعده .

ويركز الدكتور أسد رستم على عدة قواعد أهمها :

١ — العدالة والضبط .

٢ — إثبات الحقائق المقررة .

٣ — التعليل والإيضاح .

وفى باب العدالة والضبط يذكر بمزيد من الإعجاب والتقدير ما توصل إليه علماء الحديث منذ مئات السنين فى هذا الباب : يقول الإمام مالك بن أنس (١٧٩هـ) لايؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ ممن سوى ذلك ، لايؤخذ من سفيه ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه ولا من كذاب يكذب فى أحاديث الناس وأن كان لا يتهم على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لايعرف مايحدث به وقال : إن هذا العلم دين فانظروا ممن تأخذون دينكم ولقد ادركت سبعين ممن يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذه الأساطين فما أخذت منهم شيئا وأن أحدهم لو اؤتمن على بيت مال لكان به أمينا لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن .

ويقول الإمام مسلم (٢٦١هـ) : واعلم وفقك الله تعالى أن الواجب على كل أحد عرف التمييز بين صحيح الروايات وسقيمها وثقات الناقلين لها

من المتهمين أن لا يروى منها إلا ما عرف صحة مخارجه والستارة فى ناقليه وأن يبقى منها ما كان منها عن أهل التهم والمعاندين من أهل البدع .

وقال حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى .

(العدالة فى الرواية والشهادة عبارة عن استقامة السيرة فى الدين) ويرجع حاصلها إلى هيئة راسخة فى النفس تحمل على ملازمة التقوى ، والمروءة جميعا حتى تحصل ثقة النفوس بصدقه ، فلا يثق بقول من لا يخاف الله تعالى خوفا وازعا عن الكذب ثم لاخلاف فى أنه لا تشترط العصمة من جميع المعاصى ، ولا يكفى أيضاً اجتناب الكبائر بل من الصغائر ما يرد به كسرقة بصلة وتطفيف فى حبه قصداً وبالجملة كل مايدل على ركاكة دينه إلى حد يجترىء على الكذب للأغراض الدنيوية . كيف وقد شرط فى العدالة التوقى عن بعض المباحات القادحة فى المروءة نحو الأكل فى الطريق والبول فى الشارع وصحبة الأرازل والأفراط فى المزاح ، والضابط فى ذلك فيما جاوز محل الاجماع أن يرد إلى اجتهاد الحاكم بما دل عنده على جرأته على الكذب رد الشهادة به . ومالا فلا وهنا يختلف بالإضافة إلى المجتهدين وتفصيل ذلك من الفقه لا من الاصول .

ويقول القاضى عياض بن عياض (٥٤٤ هـ)

الذى ذهب إليه أهل التحقيق من مشايخ الحديث وأئمة الاصوليين والنظار أنه لايجب أن يحدث المحدث إلا بما حفظه فى قلبه أو قيده فى كتابه وصانه فى خزانته فيكون صونه فيه كصونه فى قلبه حتى لا يدخله ريب ولا شك فى أنه كما سمعه . فمتى كان بخلاف هذا ودخله ريب أو شك لم يجز له الحديث بذلك ، إذ الكل مجمعون على أنه لا يحدث إلا بما تحقق وإذا ارتاب فى شىء فقد حدث بما لم يحقق أنه من قول النبى

صلى الله عليه وسلم ويخشى أن يكون مفترا فيدخل فى وعيد من حدث عنه بالكذب وصار حديثه بالظن والظن اكذب الحديث .

وقد هاب السلف الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم الحديث بما سمعوه من قلق فيه وحفظوه عنه مخافة تجويز النسيان والوهم والغلط على حفظهم ، ولا تأثير فى الشرع للتجويزات فكيف بما لا يحقق ويبنى على الظن وسلامة الظاهر .

دكتور أسد رستم

التراث الإسلامى ما زال حيا متجدد العطاء

ليس أدل على عظمة تراثنا من إلقاء نظرة على دورة الكتاب الإسلامى فى العالم ، وحتى تبدو الصورة واضحة لابد من إلقاء بعض الظلال فقد كانت مكتبة دار الحكمة فى أيام هارون الرشيد تحوى مليون كتاب ، أما المأمون فقد نقل إلى بغداد مائة حمل بعير من الكتب من أوربا حتى أنه جعل ذلك فى عقد الصلح بينه وبين ملوك الروملى الشرقى ، وقد أشار ابن سينا إلى مكتبه نوح بن منصور سلطان بخارى ، وكانت تحوى حمل أربعمائة جمل ، أما مكتبه الواقدى مكان بها ٦٠٠ صندق تساوى ١٢٠ حمل جمل ، وضمت مكتبه دار الحكمة التى أنشأها الحاكم بأمر الله مليون و ٦٠٠ ألف مجلد ، وكانت مكتبه طرابلس الشام تحوى ٣ ملايين كتاب تحت عنايه قضاة آل عمار ، وكان لآل عمار فى هذه الخزانة مائة ألف ناسخ تجرى عليهم الأرزاق سنويا وقد وقعت هذه الخزانة فى أيدى الصليبين عام ٥٠٣ هجريه فاحرقها الفرنجة وصارت رماداً كما أحرق الفرنسيون كل ما وجدوه من مخطوطات ومطبوعات بمكتبات قسنطينة عندما أحتلوا الجزائر سنة ١٨٣٠ .

أما فى الأندلس فقد كانت هناك ٧٠ مكتبة وكانت بمكتبة غرناطة فى عهد عبد الرحمن الثالث ٦٠٠ ألف مجلد ، وكانت دواوين الشعر مثلا ٨٨ صفحة من فهرسها ، هذه المكتبة التى أحرقها الكردينال كمنيس مطران طليطلة فى ساحة المدينة ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب .

وقد كان فى كل جامع كبير مكتبة ، إذ كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على المساجد وكان الحكم صاحب الأندلس يبعث رجالا إلى جميع بلاد المشرق ليشتروا له الكتب عند ظهورها .

وقد كان فهرس مكتبته تتألف من أربع وأربعين كراسة وقيل كان بخزانته ٤٠٠ ألف مجلد .

وفى مصر مكان للحقيقة العزيز خزانه كتب كبيرة قال : المقريزى إن بها مليون و ٦٠٠ ألف مجلد .

وقد ذكرعنده كتاب العين للخليل بن أحمد فأمر خزان دفاتره فأخرجوا من خزانته نيفا وثلاثين نسخة منها نسخة بخط الخليل بن أحمد وحمل إليه رجل نسخة من تاريخ الطبرى فاشتراها بمائة دينار .

قال المقريزى أن خزانته كان بها ألف وستمائة ألف كتاب ومن المؤلفين من بلغت تصانيفه مئات . وإن هناك مؤلفات كانت فى عشرات المجلدات.

فأبو عبيدة له مائتا كتاب والكندى واحد وثلاثون ومائتان والرازى مائتان وابن حزم أربعمائة ، والقاضى الفاضل مائة وعبد الله بن حبيب عالم الأندلس ألف كتاب .

وقد نسب ابن خلكان والقفطى أن لعلى بن حزم أربعمائة مجلد فى التاريخ والدين والحديث والمنطق وعد أخصب مؤلف فى الإسلام .

وفى مكتبه الاسكوريال ٦٠٠ ألف مجلد منها ٥٠٠ ألف مطبوعة والباقى من نوادر المخطوطات العربية واللاتينية واليونانية والعبرية وقد نقلت إليها مكتبة مولاى زيدان سلطان مراكش ١٦١٤ م وقوامها ثلاثه آلاف مجلد . وقد ظلت منذ القرن السابع عشر محجوبة عن الناس ثم شبت النار فى الاسكوريال فى يونيو ١٦٧٤ حيث سقطت صاعقة على المكتبة فأحرقت منها خمسة آلاف مجلد .

وقد وصل إلينا من ثروتنا هذه ثلاثون ألف كتاب فى حين أن بعض المؤلفين بلغت تصانيفهم بضع مئات فقد كتب الكندى واحداً وثلاثين ومائتين ، والرازى مائتين ، وابن حزم أربعمائة والقاضى الفاضل مائة ، وعبد الله بن حبيب عالم الأندلس ألف كتاب وذكر جيبون فى كتابه

عن الدولة الرومانية أنه كان فى طرابلس وحدها فى عهد الفاطميين مكتبة تحوى ثلاثة ملايين مجلداً أحرقها الفرنجة عام ٥٠٢ هـ ١١٠٠ م

وفى الحروب الصليبية خلال مائتى عام أحرقت هذه الكتب ونقلت ، كما نقلت من جزيرة قبرص وكريت وجزائر البليار ونقلت من الأندلس ثم نقلت أخير من الاستانة ثم كانت حملة نابليون على مصر حريصة على الحصول على أكبر قدر من هذه المؤلفات النادرة والآن لاتخلو مكتبة من مكتبات أوربا : بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا والفاتيكان وهولندا وكذلك مكتبات أمريكا من مئات المخطوطات العربية .

وعندما تنبه العرب والمسلمون إلى جمع البقية الباقية من هذه المخطوطات المذخورة فى القصور وبدرومات البيوت القديمة بعد منتصف القرن التاسع عشر كان الغربيون قد سبقوهم إلى جمع عدد كبير بإغراء أصحابها بأعطيه ومنح ونياشين .

وقد أمكن استنقاذ عدد كبير من هذه الكتب مما بقى فى الجوامع والكنائس والمدارس كالخزانة الأحمدية والمارونية فى حلب والخالدية فى القدس وخزانات المرجانية فى الحيدرخانة وال كيلانى والالوسى وغيرها فى بغداد والخزانة الصادقية فى تونس وبعض الخزانات فى مراكش .

وفى مصر وجدت عشرات من خزانات الكتب وقد ضمت أغلب هذه الخزانات إلى دار الكتب المصرية .

وكان أحمد زكى (باشا) وأحمد تيمور (باشا) من أبرز العاملين فى هذا الميدان للحصول على المخطوطات العربية المنثورة فى مكتبات ليدن والاسكوريال واستانبول وكمبردج واكسفورد ، أو تصويرها بالفوتغرافيا إذا تعذر الحصول عليها وكان لأحمد زكى (باشا) دور كبير فى هذا المجال ، فقد استطاع أن يحصل على أكثر من ستة آلاف مخطوط ، كما نقل بالفوتغرافيا مالم يستطيع الحصول عليه بالشراء ،وقد جمع زكى باشا ١٨٧٠٠ مجلداً كما جمع تيمور باشا ١٢٠٠٠ مجلد

وقد زار أحمد زكى باشا مكتبة الاسكوريال قبل عام ١٨٩٤ ووجد بها عديدا من الكتب العربية من نوع وحيد فى بابه ولا يوجد بها نسخ أخرى فى غيرها من دور الكتب ، وقد أشار إلى واقعة إحراق ألف ألف كتاب أحرقت باحتفال مشهور وكيف أنها دفعت العرب إلى تهريب أغلب الكتب إلى المغرب وتونس وقد حدث أن فقدت تونس كمية ضخمة منها فى حركة هجوم الفرنسيين عليها ونهبها ١٥٣٦ م

أما ما أرسل إلى المغرب (مراكش) فإن جانبا منه لا يزال محفوظا إلى اليوم والجزء الباقى وقع فى أيدى الأسبانيين فى النصف الثانى من القرن السابع عشر فإن مكتبة مولاى زيدان سلطان مراكش وعددها عشرة آلاف مجلد كانت موجودة فى سفينة حربية لسبب ما وتصادف أن مراكب الأسبانيين ضبطت تلك السفينة ومن ثم ، أودعت هذه المكتبة فى قصر الاسكوريال.

ولا بد أن نشير هنا مانقله الأتراك العثمانيون من مصر عند استيلائهم عليها عام ١٥١٤ إلى استانبول وهو لا يزال محفوظا بها وقد وجد زكى باشا فى مكتبة (طوب قبو) ألوف الكتب العربية محفوظة هناك واستطاع أن ينقل منها عدداً كبيرا وكانت فى القاهرة مكتبات كثيرة لدى بعض الأسر القديمة تنافس على شرائها زكى وتيمور .

كما نقل الحجاج المغاربة عدداً كبيرا من الكتب أبان الاحتلال الفرنسى لبلادهم إلى الأراضى المقدسة فقد كانوا يحملونها معهم فى رحلات الحج ويودعونها مكتبات الحرمين الشريفين .

من ك : (أضواء على الفكر العربى الإسلامى)

الباب الثالث

فتوح الإســـلام

لا ريب أن الفتح الإسلامى نسيج وحده فى تاريخ البشر فقد خرج المسلمون يعلنون كلمة الله تبارك وتعالى وينشرون دينه ويقدمون فى سبيل الله دماءهم وأرواحهـــم ويفارقون من أجل ذلك ديارهم أولادهم لا يريدون علواً فى الأرض ولا استعلاء ، قال ابن تيمية : أن المسلمين الأول لم ينقلوا الإسلام إلى الأمم ولكنهم نقلوا الأمم إلى الإسلام .

لقد خرج المسلمون إلى بلاد الفرس والشام يبلغون رسالة الله تبارك وتعالى :

[أن الله قد ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعتها]

وتلقفت أسماع الشعوب المقهورة المحجوزة خلف أسوار الظلم هذا الصوت مرة أخرى وهو ينذر هؤلاء الظالمين ، فإن أبيتم فخلوا بيننا وبينهم نبلغهم دعوة الله ، لقد كانت هـذه الشعوب تقاسى الظلم والاستبداد فى أسوأ صورة فلما جاء الإسلام وجدوا فيه محرراً لهم ، وقد كان الإسلام كريماً فبعد أن حررهم من الظالمين أقام فيهم العدل وحمى بيعهم وكنائسهم وأطلق لهم حرية دينهم ولم يفرض عليهم الإسلام ، ولكنهم عندما استمعوا إليه رغبوا فيه وقبلوه بعد أن قبلوا عدل أهله والقائمين عليه ، ولم يعرف الإسلام الحرب إلا حين وقفت القوى المبطلة فى وجه دعوته ، وحين حاولت أن توقف حركته ، وأن ترده عن طريقه ، فلم يكن القتال إلا لحماية الدعوة وفتح الطريق أمامها .

ولم تخطط الفتوحات الإسلامية يوما للاستيلاء على كنوز الأكاسرة أو الأباطرة ، وإنما كان هدفها تزكية النفوس وتحريرها من ظلامات الزيغ والانحراف ، ولم تكن الدعوة ، إلى فتح العراق والشام إلا حاجة روحية لنشر النور الإسلامى فى كل الافاق ، وتبليغ رسالة النبى صلى الله عليه وسلم إلى تلك البلاد الغارقة فى ظلام المجوسية والوثنية بعد أن تطهرت الجزيرة العربية من المرتدين .

ولقد كذب المستشرقون حين ظنوا أن الحاجة المادية هى التى دفعت المسلمين إلى الفتوحات تحت تهديد السيف . ولقد كانت هناك فتوحات إسلامية لم ترق فيها قطرة دم واحدة ، وفتح القدس خير مثال على ذلك وسيبقى مثلا رائعا فى سجل التاريخ الإسلامى .

وعيب المستشرقين والباحثين الغربيين : أنهم ينظرون إلى الفتوحات الإسلامية كما ينظرون إلى حروب نابليون التى أغرقت أوربا فى بحر من الثأر والدماء وجلبت على شعوبها الخراب والبوار ، ذلك كما يقول محمد فهمى عبد اللطيف : أن الفتوحات الإسلامية كانت تحمل رسالة الإسلام الإنسانية فى تحرير الرقاب والعباد ، فى الشام ومصر من الاستعمار الرومانى الذى خيم على صدرهما مئات السنين ، ثم تجاوز الشام إلى فتح العراق وبلاد فارس تأمينا لطريق الدعوة الإسلامية وتحريرا لتلك الشعوب من رجس الوثنية والمجوسية ، وآية ذلك أنه بعد أن أمن المسلمون وجودهم فى هذه المنطقة لم يرفعوا السيف ولم يخرجوا إلى حرب إلا دفاعا عن النفس أو دفعا لعدو غادر يريد أن يعصف بهم وأن يعود بالإنسانية إلى رجس الوثنية ويسحق الإنسان للانسان .

وقد أوغل المسلمون ورجال الصوفية إلى بحار الهند والصين وكانتون وشنغهاى وجزر المحيط الهادى وإلى جاوة وسومطرة والملايو وجزر الفلبين وتحقق الإسلام الرقيق حق الاندماج فى أسرة مولاة الذى هو ملك يمنيه فانفجرت أمامه مسالك الحرية » .

(٢)

ومن أخطاء الاستشراق تفسير الفتح الإسلامى فى بواعثه ونتائجه تفسيرا ماديا وتولى ذلك ثلاثة : كارل بيكر (الألمانى) البرنس كثيانى ، الأب لامنس اليسوعى ، هؤلاء الثلاثة يسمون الفتح الإسلامى بالفتح العربى ، ويقولون أنه كان غزوا عدوانيا لكسب المغانم ، أكثر مما كان لنشر الدين الجديد وأن الذى فتح الشام والعراق وفارس ومصر وبلاد إفريقية لم يكن دين الإسلام بل دولة الإسلام وأن العروبة هى التى انتصرت فى هـذا الفتح لا الإسلام وجماع ما عندهم من الرأى فى بواعث الفتح أن العرب كما توحدت كلمتهم وصاروا وحدة متألفة فى الجزيرة العربيـة بعد أن انتهت حروب الردة اندفعوا بالغزو خارج الجزيرة إلى الدول القائمة على حدودهم ، حتى يجلبوا ما شاءوا من المغانم والإسلام ويحققوا لأنفسهم مناعم الحياة التى كانوا يسمعون عنها فى بلاد الهلال الخصيبة ومصر والشاطىء الإفريقى ، وماكان العمل لدولة الإسلام إلا تحقيق هذه الزعم وتنظيم هذا الغزو والاشراف على مسيرته وتوزيع ماجاء به من الإسلاب والمغانم ، ووراء هـذا الكلام نزعة مغرضة غطت موقع الحق ، فهم يزعمون أن العرب صاروا وحدة بعد حروب الردة وأنهم بهذه الوحدة شعروا بهـذه القومية فخرجوا للفتح ونسى أن الإسـلام هو الذى جمع فى الأصل كلمة العرب وخلق منهم تلك المعجزة التاريخية فجعلتهم وحدة فى العقيدة والروح والخلق بعد أن حطم أصنامهم من الطين والحجر ونفى عنهم العصبية وأزال مافيهم من بواعث الفرقة ، فالإسلام — كما يقول محمد فهمى عبد اللطيف فى بحثه الذى نقلنا منه هذه السطور : هو السر الأول والأكبر فى تلك المعجزة التى حققها العرب فى الفتح والنصر والعقيدة الإسلامية هى التفسير لتلك القوة الخارقة التى دفعتهم واعانتهم على تحرير الأمم من عبادة الأصنام وعبادة الحكام ومن ثم كان الوجود الإسلامى فى تلك الأمم حقيقة إنسانية تحمل الناس جميعاً على الحب والانصاف والعدل وأنهم فى ذلك سواء لافرق بين عربى ولا عجمى ولا أبيض ولا أسود ولا أصفر .

(٣)

كذلك فقد اختلفت الفتوح عن وجهه الفتوح التى عرفها العالم : أمثال الأسكندر المقدونى وهانيبال القرطاجنى ودارا الفارسى ، إنما فتح هؤلاء القادة — كما يقول محمد فهمى عبد اللطيف — مافتحوا من الاقطار ليتسلطوا على شعوبها وليحكموها حكم استعمار واستبداد ولينهبوا ما فى تلك الأقطار من خيرات وأرزاق وكانت شريعتهم تقسيم الناس إلى سادة وعبيد فهم السادة وأبناء تلك الشعوب هم العبيد .

أما وجهة الإسلام فكانت وجهة إنسانية فالناس سواء فى حق الحياة ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، ولتحقيق هذه المبادىء السامية كانت الفتوحات الإسلامية وكان ماحققته من انتصارات باهرة رائعة وكان هذا هوا السبب فى بقاء الإسلام عقيدة لتلك الشعوب على امتداد أربعة عشرة قرنا من الزما .

ولكن أصحاب الفلسفة المادية ، فلسفة الأنياب التى تحطم والمعدة التى تهضم مازالوا يمارون فى هذه الحقيقة ويصفون الفتوحات الإسلامية بأنها كانت فتوحات تسلط دفعت إليها الحاجة إلى الطعام والمال .

ومن العجيب أن هذه الدعوة تجوز على بعض المؤرخون المعاصرين فإذا بهم يرددونها من غير وعى لموقع هذه الحقيقة الإسلامية .

أن تفسير التاريخ الإسلامى تفسيرا اقتصاديا كما يقولون وربط دوافعه وأهدافه بالحرص على الأسلاب والرغبـــة فى المغانم هو فى منطق الحق والانصاف تفسير مغرض تنقصه كل الشواهد والدلائل التاريخية ، كما تنقصه كل البواعث والظواهر التى تجلت فى وقائع هـذا الفتح وسلوك قاذته وجنوده ، على أن هذا الفهم الخاطىء كان الهاجس الأول الذى ساور جبابرة الفرس والروم حين هز الفتح الإسلامى عروشهم ورأوا حماسة أولئك الفاتحين المتأججة وجرأتهم على العظمة الفارسية والبيزنطيـــة وهي عظمة

لا تطاول ولا يمكن لمخلوق أن ينال منها فحسبوا أن الجوع القاهر هو الذى دفع بأولئك الفاتحين من قلب الجزيرة العربية لينالوا غنما أو يرجعوا بسلب ، وظنوا أن وضع القوت فى أفواههم مما يكفى لاستسلامهم وردهم إلى صحرائهم » .

ولكن الحقيقة كانت أكبر من ذلك كثيراً :

كانت فى فهم الانطلاقة الإسلامية التى صنعها القرآن وكونها محمد فى نفوس أصحابه ، إنها ترجع إلى عقيدة الاسلام التى اعتبرت الأمة الاسلامية مسئولة عن تحرير الشعوب والأمم الأخرى من الوثنية والعبودية ونقلها إلى حياة التوحيد الخالص الذى تترجم عنه نصوص القرآن والسنة :

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

إن تبليغ الدعوة الإسلامية للعرب وإعدادهم إعداداً إسلامياً لم يكن هدفه كما يقول الأستاذ ماجد عريان الكيلانى ـ بناء الأمة العربية ثم إخراجها ليستبدل الناس حكم فارس والرومان بحكم عدنان وقحطان ، وإنما كان وسيلة لغاية أكبر هى خروج العرب برسالة الإسلام إلى العالمين وتطبيقها على حياة الناس جميعاً . « الله إبتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده » .

وقد شدد القرآن وشددت السنة على ضرورة قيام المسلمين بهذه الوظيفة .

ويتبين أن بقاء الأمة الإسلامية وسيادتها مرهون بقيامها بهذه الوظيفة العالمية وضرورة الحيلوله دون تحجر الرسالة الاسلامية فى دعوة قومية كاليهودية والمسيحية فإذا تحجرت الدعوة الاسلامية فى إطار إقليمى أو قومى فقدت رسالة الاسلام الأمانة المنوطة بها .

وعلينا أن نسد الباب دائماً أمام إفرازات العزة القومية والتعالى بها ، لقد خرجت جيوش الفتح الاسلامى لتعيد تخطيط حياة الشعوب على أسس إسلامية خالصة .

(٤)

مرت الاستراتيجية الخاصة بالفتح الاسلامى فى أربعة مراحل :

أولا : مرحلة دعوة حكام وقادة الشعوب للأخذ بمبادىء الاسلام وتحرير شعوبهم من الوثنية وعبودية غير الله .

وقد أرسل النبى صلى الله عليه وسلم فى السنة السادسة من الهجرة رسائله إلى أمراء النواحى وملوك الدول المعاصرة .

ثانياً : مرحلة الجهاد لإزالة الحواجز التى وقفت فى طريق الدعوة الاسلامية والتصدى عمن يعادى الدعوة ويقف حاجزاً فى سبيلها ومن هذا المنطلق خرجت جيوش الفتح لهذه المهمة تحمل ثلاث خيارات : الاسلام ، الجزية ، القتال .

ثالثاً : مرحلة إخراج الشعوب من الوثنيات الجاهلية وإعدادها إعداداً إسلامياً بعد الفتح العسكرى حيث قامت بعوث سكانية بعملها لاحداث التغيير فى العقائد والقيم والعادات والتقاليد :

عبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعرى فى العراق .

معاذ بن جبل وأبى الدرداء فى الشام .

عبد الله بن عمرو بن العاص فى مصر .

وكان المسلمون إذا فتحوا بلداً سارعوا إلى تجفيف منابع الفساد والانحراف السياسى والاجتماعى والاقتصادى ومن ثم بدأت مرحلة مواجهة طويلة بين رسالة الاسلام وبين العهود السابقة فى كل بلد ، وقد خرجت الحضارة الاسلامية منتصرة فقد هضمت شعوباً وأمما تخلت عن عقائدها وقيمها وأوضاعها السابقة واستبدلت بها عن رضا واقتناع عقيدة الاسلام وقيمه ونظمه .

وقد برز الطابع الاسلامى واضحا فى مصر ٢٣٩هـ (بعد قرنين ونصف) ومثل ذلك فى الشام والعراق والمغرب وفارس ، تركستان وأفغانستان .

لقد كانت المسافة طويلة بين النصر العسكرى والفتح الحضارى . وكان العبء فى ذلك عبء دعاة الإسلام فى سبيل رد الإنسانية إلى الفطرة الصحيحة والصراط المستقيم فقد واجه المد الإسلامى فى الأقطار التى وصل إليها ركاما من الوثنيات والأوضاع المنحرفة ، ودخل معها فى معركة طويلة الأمد تفوق المعركة التى خاضها مع الجاهلية العربية فى الجزيره عشرات المرات .

رابعا : جاءت مرحلة نضوج الشعوب وإسهامها فى نشر الإسلام وتحرير الشعوب الأخرى حيث أعد الرسول عرب الجزيرة خلال ثلاث وعشرين سنة فهذب نفوسهم وحرر عقولهم ودربهم على معانى القيادة الصالحة حتى إذا نضجوا حملوا لواء الإسلام ومضوا يجاهدون .

ثم تسلمت الشعوب الراية التى أسلمت نفسها . وقد ارتبط المد الاسلامى ارتباطا كبيراً بحيوية البعوث الفكرية وبقائها ناضجة .

وبقيت صلابة المجتمع الإسلامى أمام الاخطار والمشكلات العديدة التى واجهها منذ فجر الرسالة .

(٥)

أسباب النصر

إن أعظم أسباب النصر هى الكفاية الحربية للمسلمين ، وعمق النظر لقيادتهم ، فقد أعطى الايمان للجندى المسلم القدرة على احتمال المكاره والصبر عليها والأمل فى مرضاة الله (بينما كان الجندى الآخر يخاف كسرى وقيصر)

وقد اكتسب الجندى المسلم نجاحا مذهلا فى سنوات قليلة تعد على أصابع اليدين حتى تمت أعظم منجزات تلك الحركة ، ولم تشبهه حركة قط أخرى منذ كان إلى يومنا هذا . ومن أبرز الفوارق العميقة :

أولا : كان الروم والفرس يعتمدون على الجدران البشرية فى الجيوش

كثيرة العدد ثقيلة الوزن فنتج عن ذلك بطء الحركة وانعدام المرونة وانخفاض مستوى التدريب وزيادة الأعباء الادارية .

ثانيا : يعتمد الجيش الفارسى والرومى على التجنيد الاجبارى بينما كان جيش المسلمين يقوم عبادة التطوع جهادا فى سبيل الله .

ثالثا : تميز المسلمون بخفة الحركة والسرعة واعتياد الكفاف وهوان المؤنة فحازوا المرونة وتمسكوا بعنصر المفاجئة .

(أحمد عادل كمال)

يقول موتجرى فى كتابة (الحرب عبر التاريخ) لقد وصلت الفتوحات الاسلامية مدى لم تصله فى أى عهد سابق لأنهم كانوا يستقبلون فى كل مكان يصلون إليه كمحررين للشعوب من العبودية .

(٦)

شبهات الفتح

(١) قالت شبهات المستشرقين أن العامل الأول فى تفسير الفتوح كان فى ضعف القوات التى وقفت فى طريقهم ، وباستقراء معارك فتح العراق والشام لا نجد لتلك العوامل الداخلية أثر فى هزائم الدولة ، والعكس كان صحيحا فإن يزدجرد الثالث جند ٢٤٠ ألفا من المجوس بقيادة رستم ، بينما دحرهم سعد ابن أبى وقاص بثلاثين ألف مقاتل.وسقطت المدائن العاصمة

واستولى المسلمون على إيوان كسرى وتاجه ومتاعه ، ثم كانت هزيمة جلولاء وهزيمة نهاوند .

(٢) أما فى الشام فقد كان حروب الروم مع سائر أعدائهم قد هدأت والتفوا حول هرقل حامى الامبراطورية ومنقذ المسيحية ، ثم كانت هزائمهم فى أجنادين، فحل ، دمشق ، حمص ، حتى جاءت قاصمة الظهر فى اليرموك.

إنما انتصر المسلمون فى الحقيقة بعوامل أخرى غير شيخوخة الدول أو ضعف القوات؛ كان الإيمان بالاستشهاد فى سبيل كلمة الله رائدهم، والخلق الكريم فى الحرب، والعفاف عن المحارم، وحسن العبادة، كانت عقيدة المسلم أكبر عدته فقد كان مؤمنا بأنه على أحد الحسنيين فائز، سواء النصر أو الشهادة مؤمنا بأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه .

٣ — أن سبب الهزيمة الحقيق هو الظلم :

.. كان المجتمع الفارسى والمجتمع الرومانى قائمان على نظام الطبقات، طبقة السادة وطبقة العبيد، ولا يمكن للعبد أن يصل إلى طبقة السادة، وكان العبيد ملكا لمن غلب، القادة فى أعلى الطبقات، والفرسان من الأسر الممتازة من المترفين أحرص الناس على حياة، ومشاة من الفقراء البائسين الذين لاحق لهم فى شىء، ولا صالح لهم فى الموت فداء للأسياد، فالطبقات واحدة، وكانت العقوبات قاسية رادعة أخضعت رقاب الناس لسلطان الأكاسرة، فقد داس أكاسرة الفرس وقياصرة الروم العدالة بالأقدام وأهدروا حرمات الناس (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة) والظلم مؤذن بخراب العمران وهكذا هزم النظام الداخلى فى فارس والشام فى مواجهة شرع الله الذى جاء عزراً للبشر .

وهكذا كانت الفتوحات حربا فى سبيل الله (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) .

* ° *

استراتيجية جـــديدة

أبرز ما يظهر فى فتوح الإسلام تلك الاستراتيجية الجديدة التى لم تكن يعرفها العرب ، والتى كانت غريبة على الدول المحاربة أمثال فارس والروم . ومن صور ذلك :

أولا : حفر الخندق حول المدينة : أمام جحافل لا طاقة لجيش المسلمين بها ولجوؤهم إلى العمل السياسى للتفريق بين المشركين واليهود فى غزوة الأحزاب وإرسالهم إلى جرش بالشام لاستيراد الدبابات فى حصار ثقيف بالطائف .

ثانياً : التخطيط لإخراج الأفيال فى معركة القادسية ، واتخاذ خيلهم مركبات برمائية لعبور دجلة فى فتح المدائن ، والاحتيال على جيش فارس لاغرائه الخروج من قلاعه فى نهاوند ليتمكنوا من الادالة منه .

ثالثاً : القدرة على الانسحاب وقت الخطر كما حصل فى مؤته عندما نالت الحرب أقصى ماتناله من جيش قليل العدد يحارب بعيداً عن مركز قيادته العليا لا يجد سبيلا للامداد ولا وسيلة لتعويض الخسائر لخفظ مواصلات طويلة تمتد من المدينة إلى حدود الشام وهو يواجه جيشاً كثيف العدد يقاتل فوق أرضه فظل سبعة أيام يناوش الروم وينسحب بقواته فى الخفاء حتى تم انسحاب المسلمين جميعاً .

رابعاً : فى مؤته استشهد الأمراء الثلاثة عن يقين وثقة ورغبة فخاضوا غمار المعركة بقلوب ثابتة ونفوس مطمئنة وعقيدة راسخة وعزم قوى لم تضعفهم شدة القتال ولم تخفهم كثرة عددهم ولم تزلزهم نازلة ، كانوا يسعون إلى أحد أمرين : —

انتصار عظيم يؤيد الله به الإســـلام أو استشهاد كريم يعز به دين الله .

خامساً : دراسة العدو وعدم الاستهانة به .

سادساً : تقوى الله أساس العمل كله .

من عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص ومن معه من الأجناد :

فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، والنهى عن ارتكاب المعاصى فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم .

سابعاً : لا تطلع رسل عدوك على سرك :

من أبي بكر إلى يزيد بن أبي سفيان .

إذا قدم عليك رسول عدوك فأكرمهم واقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهـــلون به ولا تريثهم فيروا خللك ويعلموا علمك وأنزلهم فى ثروة عسكرهم وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولى لكلامهم .

ثامناً : يقول القائد العسكرى جلوب : فى كتابه الفتوحات العربية : -

إن الانتصارات العسكرية التى تحققت فى حروب الفتوح الأولى لم تكن نتيجة الحماسة الدينية وإنما أيضاً نتاج وجود فن عسكرى متطور جدا ووجود قيادات استراتيجية وتكتيكية على أعلى مستوى .

* * *

(٢)

فتح مكة

اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم كل الترتيبات التى أمنت له مباغته ممتازة للغاية، كانت من أهم أسباب إجبار قريش على الاستسلام دون مقاومة، وتعتبر (المباغته) التى حققها الرسول من زاوية فن الحرب ، مباغتة استراتيجية ، كما يعرفها العسكريون ولا يستطيع تحقيقها إلا القلائل من القادة الأفذاذ .

فقد حرص الرسول على كتمان قرار الخروج لفتح مكة حتى على أقرب المقربين إليه فلم يبح به لأبى بكر أقرب أصحابه إلى نفسه ولا لعائشة بنت أبى أبى بكر أحب نسائه إليه وبقيت نواياه سراً مكتوما حتى تمت جميع الاستعدادات للحركة، وحرص عليه الصلاة والسلام على الحيلولة دون تسرب المعلومات عن حركته إلى قريش فبث العيون والارصاد والدوريات داخل المدينة وخارجها لهذا الغرض وقد مكنت هـذه الترتيبات من كشف أمر الرسالة التى أراد حاطب بن بلتعه إرسالها إلى قريش تحمل خبر خروج المسلمين . فبعث الرسول على بن أبى طالب والزبير بن العوام فأدركا المرأة التى كانت تحمل الرسالة وأخذاها منها .

وبقى النبى صلى الله عليه وسلم يقظا كل اليقظة حتى وصل ضواحى مكة ونجح بترتيباته فى حرمان قريش من معرفة هوية الجيش الكبير الذى عسكر على أربعة فراسخ من مكة . فقد أوقد عشرة آلاف مسلم نيرانهم ورأت قريش تلك النيران تملأ الأفق البعيد وأسرع أبو سفيان بن حرب وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام بالخروج باتجاه النيران حتى يعرفوا مصدرها ونوايا أصحابها وأهدافهم فلما اقتربوا من موضع معسكر المسلمين . قال أبو سفيان لصاحبه بديل :

« ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا »

فرد عليه بديل = هذه والله خزاعة خمشتها الحرب

فلم يقتنع أبو سفيان بهذا الجواب فقال :

خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

وبعث الرسول سرية قتادة الانصارى إلى بطن اضم لتحويل الأنظار عن الاتجاه الحقيقى لحركة الجيش وإخفاء نواياه .

ولم يستطع أبو سفيان حين قدم . لمقابلة الرسول فى المدينة أن يعرف نوايا المسلمين فقد حرص كل من لقيه منهم على حرمانه من الحصول على معلومات عنها .

وأوصى الرسول صلى الله عليه وسلم عمه العباس باحتجاز أبى سفيان فى مدخل الجبل إلى مكة حتى تمر به جنود المسلمين فيحدث قومه عما رآه عن بينة ويقين فيقضى على أى أمل لديهم فى المقاومة .

قال العباس = خرجت بأبى سفيان حتى حبسته بمضيق الوادى حيث أمرنى رسول الله ومرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال : ياعباس من هؤلاء : فأقول سليم : فيقول مالى ولسليم ، ثم تمر به القبيلة فيقول ياعباس – من هؤلاء فأقول مزينة فيقول : مالى ولمزينة حتى نفدت القبائل : ما تمر قبيلة إلا سألنى عنها فإذا أخبرته قال : مالى ولبنى فلان .

حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتيبة الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد فقال : سبحان الله : يا عباس من هؤلاء .

قلت : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المهاجرين والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد .

قال : ما لأحد من هؤلاء من قبل ولا طاقه . والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداه عظيما

قال العباس : يا أبا سفيان أنها النبوة .

قال نعم إذن . عند ذلك قال العباس لأبى سفيان :

« النجاء إلى قومك »

فأسرع أبو سفيان إلى مكة وقال لقومه : يامعشر قريش هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به

ولقد نظم الرسول صلى الله عليه وسلم جيش المسلمين بطريقة جعلت المشركين يترددون فى مقاومته فقد كان الجيش يتألف من المهاجرين والأنصار ومسلمى أكثر القبائل العربية المعروفة يومذاك : ألف رجل من بنى سليم وألف رجل وثلاثمائة رجال من مزينة وأربعمائة من بنى غفار وأربعمائة وألفا من بنى جهينة وأربعمائة من أسلم وعدد من تميم وأسد وقيس وغيرها من القبائل الأخرى : هذا التنظيم أصاب المشركين بالتردد وأضعف من الدافع لديهم إلى القتال لأن كل قبيلة لها فى جيش المسلمين عدد كبير بل أن كثيرا من القبائل يعتبر نجاح هـذا الجيش نجاحا لها على الرغم من اختلاف العقيدتين والأكثر من ذلك فإن انتصار هذا الجيش لا يعتبر فخرا لقبيلة دون أخرى ، كما أن فشل أية قبيلة فى التغلب عليه لا يعتبر عاراً عليها لأن هذا الجيش لم يكن لقبيلة دون أخرى ، بل لم يكن للعرب دون غيرهم بل كان للإسلام ولمعتنقى هذا الدين من العرب وغير العرب .

جعل الرسول خطته لدخول مكة بحيث يؤمن تطويقها من جهاتها الأربع:

- قوات بقيادة الزبير بن العوام تدخل من الشمال .
- قوات بقيادة خالد بن الوليد وتدخل من الجنوب .
- قوات الأنصار بقيادة سعد بن أبى وقاص وتدخل من الغرب .
- قوات المهاجرين بقيادة أبى عبيدة بن الجراح وتدخل من الشمال الغربى فى اتجاه جبل هند .

هذا التشكيل يحقق هدفين فى غاية الأهمية :

• ضمان القضاء على أية مقاومة فى أية جهة من مكة فى الحال .

• تشتيت قوات قريش إلى أقسام لمقاومة كل رسل المسلمين على انفراد فتكون قوات قريش ضعيفة فى كل مكان وأخيرا أكمل الرسول ضربته النفسية بإعطاء الأمان لقريش على لسان أبى سفيان أن هى استسلمت بلا مقاومة ،ذلك أنه لما جيء بأبى سفيان إلى النبى صلى الله عليه وسلم ليحقن دمه ، فقال العباس : يارسول الله أن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئا .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن .

ويسأل الرسول صلى الله عليه وسلم :

يا معشر قريش : ماترون إنى فاعل بكم ، قالوا خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم قال : فأذهبوا فأنتم الطلقاء .

محمد جمال الدين محفوظ

قاد الرسول صلى الله عليه وسلم ثمانى وعشرين غزوة وبعث سبعا وأربعين سرية ووحد شبه الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام وقال على فراش الموت : لايبقى فى الجزيرة دينان .

محمود شيت خطاب

(٢)

العقيدة العسكرية السياسية

العقيدة العسكرية الإسلامية وحدها هى التى تناسب العرب والمسلمين وتقودهم عند تطبيقها إلى النصر : هذه العقيدة تختلف عن العسكرية الغربية التى ترتكز على المبدأ القائل : مزيد من النيران وقليل من المقاتلين .

أى أن الهدف الذى يعترض العمليات الحربية فى القتال يمكن أن يسيطر عليه بدكه دكا بالنيران الأرضية والجوية الكثيفة ، والعقيدة العسكرية الشرقية : قليل من النيران ومزيد من المقاتلين فالهدف الذى يمكن أن يعترض العمليات الحربية نسيطر عليه بموجات متعاقبة من المقاتلين .

أما العقيدة العسكرية الإسلامية فلا إفراط ولا تفريط ، بل هى وسط فى كل شىء [وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا — البقرة] فلا إفراط فى النيران لأن الدول العربية والإسلامية تستورد معظم أسلحتها ولا تصنعها ، وكذلك لا إفراط فى أرواح المقاتلين لأن الروح البشرية قدسيته خاصة فى الإسلام ينبغى الحرص عليها وعلى سلامتها ولقد كان قادة المسلمين يحرصون أشد الحرص على أرواح المجاهدين وغالبا ما كانوا يستأثرون بالخطر ويؤثرون رجالهم بالأمن .

ولقد انتصر المسلمون فى أزمنتهم الأولى لأنهم فهموا العقيدة الإسلامية ، فالإسلام بتعاليمه السمحة جعل بحوافزه المادية والمعنوية المسلم الحق مطيعاً لا يعصى ، صابراً لا يتخاذل ، شجاعا لا يجبن ، مقداما لا يتردد ، مقبلا غير مدبر ، ثابتا لا يتزعزع ، مجاهدا لا يتخلف ، مؤمنا بمثل عليا مضحيا من أجلها بالروح والمال يخوض حربا عادلة لاحقاق الحق وازهاق الباطل مدافعاً عن الأرض والعرض وحرية انتشار الدعوة وصيانتها فالمسلم ينطلق . وشعاره الآية الكريمة : قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين (سورة التوبة) (أى النصر أو الشهادة) .

ولاجلاء هذه العقيدة العسكرية الإسلامية يجب إعادة كتابتها من المصادر الرئيسية وأهمها القرآن وكتب الحديث والفقه ، وكتب العلماء .

لقد آن لنا أن نسترجع عظيم ماضينا ليكون ذلك دافعا لوثبات قادمة تعيد للمسلمين مجدهم القديم .

لواء : محمود شيت خطاب

(٣)

العسكرية الإسلامية

العسكرية الإسلامية رائدة : لأنها استطاعت فتح بلاد شاسعة تضم فى الوقت الحاضر سبعاً وثمانين مملكة وجمهورية وإمارة ومشيخة ومستعمرة فى أسيا وإفريقيا ولو لم تكن عسكرية رائدة لما استطاعت بمثل هذه السرعة المذهلة تحقيق كل الانتصارات الحاسمة الباهرة والباقية .

إن أكبر خطر هو خطر الانبهار بالعسكرية الأجنبية والاعتماد فى كتابة تاريخ المعارك الإسلامية على المصادر الأجنبية وحدها .

كذلك فإنه من الخطأ المقارنة بين معركة إسلامية جرت قبل أربعة عشر قرنا وبين معركة حديثة جرت فى الحرب العالمية الثانية من ناحيه التفاصيل والأساليب القتالية المتغيرة .

إن أكبر أخطاء المصادر الأجنبية الحرص على التشكيك ، فالمصدر الأجنبى الأجنبى عدو للعرب والمسلمين كاره لتاريخهم العريق لأن صاحبه إما يهودى أو مبشر أو جاسوس أكل قلبه الحقد على الفتوح العربية الإسلامية وهو معنى بهدم هذه الفتوح والتهوين من قيمتها وشأنها ليصل إلى هدفه الحيوى وهو التهوين من قدرة العرب أمة ومن أثر الإسلام فى العرب ديناً .

وأخطر من المصادر الأجنبية الحريصة على التشكيك متابعة الكتاب المسلمين لهم : أنهم يشككون فى تعداد قوات الجانبين ويشككون فى تعداد خسائر الجانبين من أرواح وهدف الأجنبى الحاقد مفهوم ، أنه يشكك فى حصر عدد قوات الطرفين وإحصائها فى الظروف الحربية الصعبة والرد واضح : أن القوات الإسلامية التى كانت تشهد الحرب يسودها نظام دقيق منذ مغادرة المقاتل بيته .

ومن سمومهم أنهم يسمون المعارك الكبرى : القادسية واليرموك ونهاوند (معركة فتح الفتوح) ومعركة حصن نابليون يسمونها معارك عربية باخراجها عن إطارها التاريخى وتزييف محتواها والحقيقة أنها معارك إسلامية أساساً .

إن علينا أن ندرس معارك الفتح واستعادة الفتح : فهى المفاخر الأولى والأخيرة للعرب والمسلمين لأنها تثبت عمليا بأن هذه الأمة قادرة على الفتوح وعلى استعادة الفتوح بالنصر على الأمم الأخرى وإن مكانها ليس الذل والهوان بل المجد والعز أن أعدت قواتها بالإيمان والسلاح والاتحاد أن دراسة تاريخنا العربى يعلمنا كيف يمكن أن ننتصر ولماذا اندحرنا وكيف يمكن أن ننتصر مرة أخرى ونتحاشى الاندحار .

محمود شيت خطاب

(٤)

احياء العسكرية الإسلامية

لقد حققت العسكرية الإسلامية انجازات رائعة فى مجال الصراع بين المسلمين وأعوانهم ومن ذلك ما أصبح من حقائق التاريخ التى لاتنازع وهو مانذكره على سبيل المثال فيما يلى :

أولا : تأمين الدعوة وتأسيس الدولة الإسلامية وتحقيق الأمن والاستقرار لها لكى تؤدى رسالتها السامية لخير البشرية .

ثانياً : امتداد الفتوحات الإسلامية فى أقل من مائة عام فى حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً .

ثالثاً : تمكين الأمة الإسلامية (الناشئة إذ ذاك) من إدارة دفة الحرب فى جبهتين عظيمتين فى وقت واحد فى مواجهة أعظم قوتين عالميتين فى ذلك الوقت وهى فارس وبيزنطة والانتصار عليهما وذلك مثل فريد فى التاريخ الحربى لم تبلغه أقوى الأمم .

رابعاً : اتقان العرب وهم أبناء الصحراء — ركوب الأساطيل والحروب البحرية وتغلبهم على أسطول بيزنطة وهو أعظم قوة بحرية فى زمانهم حتى يقول عنهم ابن خلدون :

إن المسلمين تغلبوا على لجة بحر الروم والبحر الأبيض المتوسط وأن أساطيلهم سارت فيه جائية وذاهبة من صقلية إلى تونس — والرومان والصقالبة والفرنجة جميعاً تهرب أساطيلهم أمام البحرية العربية ولا تحاول الدنو من أساطيل المسلمين التى ضربت عليهم كضراء الأسد على فريسته .

خامساً : فتح الطريق لتأسيس الحضارة الإسلامية وفتوحاتها لخير البشرية فى ميادين العلوم الطبيعية والاجتماعية ، فأصبح العرب بعد أن كانوا أقل حضارة من الفرس والروم بخاصة — قادة للحضارة العالمية فكان منهم على سبيل المثال لا الحصر: جابر بن حيان فى الكيمياء وابن الهيثم فى الطبيعيات وأبو بكر الرازى فى الطب وابن سينا فى الطب كذلك والغزالى فى العلوم وابن خلدون فى الاجتماع والتاريخ والخوارزمى فى الرياضيات وعشرات غيرهم .

فالعسكرية الإسلامية إذن تمثل جانبا أساسيا ورائداً فى الحضارة الإسلامية ومن الحضارة الإنسانية بالتالى ، ولولا جهاد المسلمين الأول واسترخاصهم المال والنفس والولد فى سبيل الله لتغير وجه التاريخ ولتخلف مواكب الحضارة الحديثة عن الظهور .

وإذا كان المسلمون يسعون اليوم إلى نهضة حضارية شاملة ، فإن ، نقطة الانطلاق فى يقينى هى إحياء العسكرية الإسلامية لكى تأخذ دورها فى تلك النهضة المرجوة مثلما أخذت دورها فى بناء الحضارة الإسلامية فى الماضى .

إن أهم ماتعنى به الأمم الحية تدوين تاريخها الحربى فالوقائع الحربية فى حياة الأمة أحداث جسام ذات صلة مباشرة بأمنها وسلامتها ولها آثار بعيدة المستوى على كيانها ووجودها ومصيرها ، لابد للأمة التى تلقى بأعلى ماعندها من قوى بشرية واقتصادية وسياسية ومعنويه فى الصراع مع أعدائها من تقييم ما قامت به من عمل وجهد لاستخلاص الدروس النافعة فى حاضرها ومستقبلا .

والتاريخ الحربى بالنسبة لصنعة الحرب كالتشريح بالنسبة لمهنة الطب فكلاهما يمنح من يمارسه من الخبرة والمهارة ما يجنبه مواطن الزلل ويعصمه

من الوقوع فى الخطأ مرتين وتفتح أمامه آفاقا عريضة للابتكار والتطوير والتجـــديد فى مختلف مجالات التخطيط للحروب وأساليب إدارة معاركها وعمليـاتها الحربية بما يحقق الهدف المنشود بأقل الخسائر والتـكاليف فى أقصر وقت :

والذى نلاحظه أن الأمة الإسلامية لم تعن بتدوين تاريخها الحربى على النحو الذى يتكافأ وقدرها ومكانتها بين الأمم ونتج عن ذلك أمران :

الأول : أن رجال العسكرية فى كثير من الدول العربية والإسلاميـة لايدرسون إلا التاريخ الحربى للدول الأجنبية ونظرياتها الحربية وأعمال قادتها وكأنه ليس للعرب والمسلمين تاريخ حربى أو نظريات حربية أو أعمال قادرة تستحق الدراسة .

الثانى : أن المؤرخين العسكرين الأجانب أباحوا لأنفسهم أن يهونوا من عظمة المسلمين وما أظهروه من عبقرية حربية ومنهم من بلغ حد الادعاء بأن الإسلام متخلف أو لم يضف جديدا فى مجال العلم العسكرى وفن الحرب .

ولقد كانت عناية المسلمين الأوائل بالتاريخ الحربى واضحة وهوما نلمسه فى قول زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عنهم :

« كنا نعلم مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نعلم السور من القرآن » .

وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : [وكان أبى يعلما المغازى والسرايا ويقول : يا بنى أنها شرف ابائكم فلا تضيعوا ذكرها] ويسمى الزهرى التاريخ الحربى (علم المغازى) ويقول : فى علم المغـازى خير الدنيا والآخرة ولـكن أهم ما يلاحظ للأسف الشديد أن مؤرخى السيرة تناولوا المعارك الحربية بأسلوب السرد التاريخى للوقائع بحيث لا يجد الباحث

العسكرى مايشفى غلته من بيانات وتفاصيل ومخططات وخرائط وتحليل وغيرها مما تعارف عليه العسكريون فى تسجيل التاريخ الحربى .

كل هذا يؤيد وجهة نظرنا فى ضرورة تدوين التاريخ الحربى الإسلامى بالأسلوب الذى يعارف عليه العسكريون وطبقا للمنهج المقرر فى العلم العسكرى بما يحقق الكشف عن عدة عناصر رئيسية منها :

- الظروف السائدة محليا ودوليا .
- الهدف من الحرب أو المعركة .
- أحوال مسرح الحرب فيما يتعلق بصيغة الارض والسكان والقوى البشرية .
- المعارية من قوات الطرفين من ناحية العدد والنوع والأسلحة والمعدات .
- خطط الأطراف المتصارعة .
- سير القتال .
- نتائج المعركة والدروس المستفادة .
- النظريات الحربية ومبادىء الحركة ، التى يمكن تطبيقها .

إن كل مسلم غيور على دينه لا يرضى بأن تكون الامة الإسلامية أقل من غيرها من الأمم اهتماما بتاريخها الحربى .

لواء : محمد جمال الدين محفوظ

(٥)

قيام قوة الردع الإسلامية فى كل عصر

قامت العسكرية الإسلامية على تعاليم كتاب الله وسنة رسوله القولية والعملية والتقريرية فهى بذلك بما ينطوى عليه حديث الرسول ﷺ .

(تركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً : كتاب الله وسنتى)

والحق أنه لم يترك نبى من الأنبياء أمته على مثل ما ترك محمد رسول الله ، ﷺ أمته من القوة والمنعة مما يعد أمانة عظمى فى أعناق المسلمين ، عليهم أن يحملوها فى كل عصر إلى أن تقوم الساعة .

فلقد شاءت إرادة الله عز وجل أن يلحق الرسول القائد ﷺ بالرفيق الأعلى وقد أعد أمته لمواجهة أقوى تحديات عصرها وقهرها .

ولعل أبرز تلك التحديات مواجهة أكبر قوتين عالميتين فى ذلك العصر . هما : فارس وبيزنطة : تلك المواجهة التى حدثت على الفور وفى عصر الخليفة

الأول : أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

ولابد لنا أمام هذه الحقيقة البارزة من حقائق التاريخ — أن نحلل القدرة الدفاعية الاسلامية التى بناها الرسول القائد ﷺ وتركها أمانة فى أعناق المسلمين من بعده إلى عناصرها الاساسية ، ثم نتأمل فيما فعل المسلمون بها لكى نستخلصها بالدرس والعبرة لحاضرنا ومستقبلنا .

فمن عناصر تلك القدرة الدفاعية ما يلى على سبيل المثال :

أولا : جيش قادر على الردع وتحقيق الأهداف الاستراتيجية، ليس من شك أن الجيش الاسلامى فى عصر النبوة قد حقق الهدف الاستراتيجى وهو تأمين

الدعوة وقيام الدولة الاسلامية وتوفير الأمن والاستقرار لها لكي تؤدى رسالتها السامية لخير البشرية ،

ولقد حدد الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه هذا الهدف منذ اللحظة الأولى من الصراع مع المشركين حين رفع يديه بالدعاء إلى ربه بعد أن نظم صفوف الجيش فى (بدر) وقال :

« اللهم أن تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام فلن تعبد فى الأرض » .

بهذا الوضوح والتحديد ربط عليه الصلاة والسلام برباط وثيق بين (الدعوة) وبين القدرة على الدفاع عنها وتأمينها) فكان من ذلك الهدف الاستراتيجى واضحا ومحدداً . وفى سبيل تحقيق هذا الهدف حارب المسلمون أكثر من ستين عملية من عمليات القتال قاد الرسول (ﷺ) بنفسه ثمانى وعشرين غزوة وقد واجه المسلمون — وهم قلة فى العدد والعدة ، فى تلك العمليات أكثر من عدو : المشركون واليهود والروم .

فكان (الردع) هو جوهر الاستراتيجية الحربية للجيش فيما يلى :

× بإيقاع الرهبة فى قلب العدو وإخافته من عاقبة عدوانه على المسلمين تطبيقاً للتوجيه القرآنى :

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) الانفال .

نصرت بالرعب مسيرة شهر (البخارى) .

ودليل ذلك أن القتال لم ينشب إلا فى تسع فقط من الغزوات التى قادها الرسول صلى الله عليه وسلم) بينما فر الأعداء فى تسع عشرة غزوة (خوفا) من مواجهة قوة المسلمين .

× وبقدرة الجيش على التعرف على نوايا العدو ، وعلى الحركة المسريعة لمواجهة الخطر وإجهاض تدابير العدو للعدوان .

وقد قام الجيش بعدة عمليات من هذا النوع كانت أبلغ دليل على نجاحها أن الأعداء كانوا يفاجأون بها فيتركون أموالهم وديارهم للمسلمين (مثل غزوة بنى سليم ، ذى أمر ، بحران ، ذات الرقاع ، دومة الجندل ، بنى المصطلق ، بنى لحيان) .

ثانياً : جيش على مستوى عصره :

فى فترة وجيزة لا تتجاوز سبع سنوات لحق جيش الإسلام بقيادة الرسول ﷺ ، بمقتضيات عصره من حيث تكوين القوة الضاربة والتنظيم والتسليح .

فقد كانت الاستراتيجية العسكرية العالمية المعاصرة لعصر النبوة (فارس وبيزنطة) تقوم على أساس أن تشكل القوة الضاربة للجيش من الفرسان بنسبة الثلث تقريباً من مجموع قوته . وكان جيش المسلمين فى بادىء الأمر يفتقر إلى الفرسان ففى أول الغزوات مثلا وهى (بدر) كانت لدى الجيش فرسان اثنتان فقط ، فعنى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بتدريب المسلمين على الفروسية وحثهم على اقتناء الخيول حتى قفزت قوة الفرسان إلى المعدل العالمى وهو الثلث ففى آخر غزوة وهى (تبوك) كان عدد الفرسان عشرة آلاف فى جيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل .

وتطور تسليح الجيش بأن أضاف إلى أسلحته المنجنيق والعرادات والدبابات وهى أسلحة خاصة بالحصار ودك الحصون والأسوار ، فقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم بعثة من أثنين من المسلمين إلى (جرش) بالشام فتعلما صنعة هذه الأسلحة ثم إستخدمها الرسول صلى الله عليه وسلم فى حصار (الطائف) و (خيبر) .

ثالثا : مدرسة عسكرية كاملة :

وترك الرسول القائد صلى الله عليه وسلم) مدرسة عسكرية كاملة لها مبادئها ونظرياتها فى أسباب الحرب ودوافعها وأدابها ونظرياتها فى إعداد الأمة للحرب ، وفى إعداد المقاتلين وإعداد القادة ، وفى الاستطلاع والأمن ومقاومة الجاسوسية ونظرياتها فى الحرب النفسية والتدريب على القتال واقتصاديات

الحرب . وترك لنا أيضاً شهادة من التاريخ بأن الجيوش التى تطبق هذه المبادىء تصبح قوة لا تقهر .

رابعاً : جيل من القادة الخبراء بعد الحرب :

بلغ عادة قادة الفتوحات الاسلام ستة وخمسين ومائتى قائد ، كان منهم ستة عشر ومائتا قائد من صحابة النبى (صلى الله عليه وسلم) الذين تعلموا على يديه وفى مدرسته .

وليس هذا فحسب ، بل باشروا القيادة تحت إشرافه وتوجيهه بصور شتى فعملوا تحت قيادته العليا قادة للوحدات الفرعية التى يتألف فيها الجيش وقادوا السرايا البحرية قيادة مستقلة ، وشاركوا فى التخطيط الحربى فأصبحوا خبراء فى التخطيط والقيادة معا والمعروف أن القادة الذين اكتسبوا خبرة عملية فى الحرب يعددون من أثمن الثروات الاستراتيجية لأمتهم .

خامساً : شخصية إسلامية قوية راسخة العقيدة .

ومن أهم ماترك الرسول صلى الله عليه وسلم) ذلك البناء الشامخ للشخصية الاسلامية التى أسلمت وجهها لله وملأت قلبها بعقيدة الايمان وبوحدانية الله، وتخلقت بالأخلاق التى أمر الله بها سبحانه وتحررت من رق العبودية لغير الله.

ولقد نشأت هذه الشخصية فى مجتمع إسلامى قام أفراده بواجبهم نحو ربهم وجمعتهم رحمة الاخوة وسماحة التآلف وكرم الايثار ، وباعوا أنفسهم وأموالهم صادقين مطمئنين لقاءما أعطاهم ربهم من جنته ومغفرته ورضوانه.

لقد ملك حب الله قلوبهم فأحبوا من أحبه وعادوا من عاداه ولو كان أقرب الناس إليهم وهكذا تهيأ المناخ الصالح للشخصية الاسلامية لاظهار كل طاقاتها المدخرة فيها .

كيف حافظ أجدادنا الأوائل على هذه الأمانة

ومن أهم ما ينفع المسلمين اليوم من دروس التاريخ أن يتأملوا فيما فعل أجدادنا الأوائل فى تلك الأمانة التى تركها لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والحق أن أجدادنا قد تعلموا ما هو أكثر من المحافظة عليها فعملوا بسنة التطور التى نبههم إليها دينهم، لكى تبقى لجيش الإسلام (قوة الردع) فى عصرهم وفى كل عصر، مدركين تمام الادراك أن تخلف القوة الاسلامية عن مقتضيات عصرها يفقدها القدرة على الردع وعلى إرهاب الاعداء ولتتمد من ذلك مثلا لم تم فى عصر الخلفاء الراشدين الردع وعلى إرهاب الأعداء ولنتخذ من ذلك مثلا لما تم فى عصر الخلفاء الراشدين :

١ — تدريب الأجيال الجديدة على مبادىء العسكرية الاسلامية :

ويكفى أن نذكر فى هذا المقام ماروى عن زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عنهم قال :

« كنا نعلم مغازى رسول الله (صلى الله عليه وسلم كما نعلم السور من القرآن »، وعن أسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص رضى الله : كان أبى يعلمنا المغازى والسريا ويقول : يابنى أنها شرف أبائكم فلا تضيعوا ذكرها .

٢ — تطوير الجيش :

فقد أخذ المسلمون بأسباب التقدم والتطور فى الكفاءة القتالية للجيش فأدخلوا على ساحة الحصار مثلا كثيراً من التحسين والتهذيب، وكثر حصارتهم بها للمدن المحصنة ذات الأسوار العالية فى حروب العراق والشام وفتح مصر؛ كما تطور الجيش أيضاً فى التركيب التنظيمى، وتشكيلات القتال وإدارة المعارك.

ومن أمثلة ذلك نظام (الكراديس)

(وهو تركيب تنظيمى يقوم على بناء وحدات متساوية فى القوة من

الفرسان دون النظر إلى أصل أو نسب وهو الأسلوب المعمـــول به فى الجيوش النظامية) وقد ظهر هذا النظام فى معركة اليرموك . ومن ذلك أيضاً وضع (الديوان) فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو نظام لتسجيل أسماء المسلمين وتحديد أرزاقهم وتدوين البيانات الخاصة بكل منهم مثل النسب والقبيلة والملامح واللون لكى يسهل استدعاؤه وهو ما يعرف اليوم بنظام السجلات العسكرية ونظام التعبئة .

وقد شهد الامبراطور البيزنطى (ليو) لجيش الاسلام بتطوره وملاحقته لعصره فنقل عنه (فون كريم) فى كتابه (الشرق تحت حكم الخلفاء) إنه قال :

(إن الجندى العربى ما كان يفترق من الجندى البيزنطى فى المؤن والسلاح ..

٣ — إضافة نظريات حربية جديدة :

وذلك نتيجة لخوض المسلمين أشكالا جديده من العمليات الحربية لم يألفوها فى عصر النبوة ، مثل عمليات عبور الانهار والموانع المادية وعمليات الحصار الطويلة ، والمسير الطويل ، وتأمين خطوط المواصلات والامداد الطويلة ، وإقامة المعسكرات والثغور والقواعد الحربية والادارية ، وإدارة شئون البلاد المفتوحة فى جميع المجالات .

٤ — اكتساب القدرة على إدارة الحرب من جهتين فى وقت واحد .

فقد أثبتت العقيدة الاسلامية كفاءة لا نظير لها فى إدارة دفة الحرب فى جبهتين استراتيجيتين فى وقت واحد وفى مواجهة أكبر قوتين عالميتين فى عصرهما هما فارس وبيزنطة . وذلك مثل فريد فى التاريخ لم تبلغه أقوى الأمم وأوسعها خبرة بفنون الحرب . فالمعروف أن الحرب فى جهتين من أصعب المواقف التى تواجه القيادة فهى تنطوى على مشكلات بالغة الصعوبة والتعقيد ، وتتطلب كفاءة عالية جداً فى التخطيط والسيطرة وإدارة العمليات . ويكفى أن نعلم أن الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥) لم يستطيعوا أن يهزموا (العسكرية الألمانية) إلا عن طريق فتح جبهة ثانية .

(٥) إنشاء الأسطول الحربى لأول مرة فى التاريخ .

فقد اقتحم المسلمون بكل اقتدار مجالا جديدا تماما فى مجالات الصراع هو الحرب البحرية فدخل (السلاح البحرى) فى الاستراتيجية العسكرية الإسلامية لأول مرة فى التاريخ

ومن أجل ذلك أقام المسلمون دور الصناعة لبناء السفن الحربية واتقنوا فنون الحرب فى البحار وعمليات الابرار البحرى وبلغت كفايتهم فى هذا المجال حدا أنهم انتصروا فى المعركة البحرية على أساطيل بيزنطة التى كانت أعظم قوة بحرية فى زمانها فكانت هذه الأساطيل كما يقول ابن خلدون :

(تهرب أمام البحرية الإسلامية التى ضربت عليهم (أى لزمتهم وطاردتهم) كفراء الأسد على فريسته .

(٦) أنزل فارس وبيزنطة عن عرش الفن الحربى .

فالمحصلة النهائية لانجازات أجدادنا الحربية فى عصر الفتوح هو انتصار العسكرية الإسلامية ، على كل من العسكرية الفارسية والعسكرية البيزنطيه بكل ما وراءهما من تاريخ حربى طويل وخبرة واسعة بفنون الحرب والقتال .

(٧) فتح الطريق لتأسيس الحضارة الإسلامية .

وهو فضل سجله التاريخ لأجدادنا الأوائل الذين جاهدوا فى الله حق جهاده واسترخصوا المال والنفس والولد فى سبيل الله فشقوا الطريق لملك الحضارة التى أنارت الطريق للبشرية فى ميادين العلوم الطبيعية والاجتماعية ولولا ذلك لتخلفت مواكب الحضارة الحديثة عن الظهور .

(٦)

المسلمون قوم لا يقهرون

تحت هذا العنوان قال مونتجمرى فى كتابه (الحرب عبر التاريخ):

فى غضون مائة سنة امتدت الدولة الإسلامية من بحر الأورال إلى النيل ومن تخوم الصين إلى خليج بسكاى، ولم تكن هناك سوى قوة واحدة لديها القدرة على مقاومة المسلمين فى ذلك الوقت وهى الإمبراطورية البيزنطية بالرغم من فقدها للجزء الجنوبى الشرقى فى امبراطوريتها، وفى عام ٦٣٦م حشد الإمبراطور البيزنطى جيشاً مكونا من خمسين ألفا ليقاتل به العرب، وكان جيشهم نصف عدد الجيش البيزنطى وبقيادة خالد بن الوليد والتقى الجيشان عند اليرموك وقد أسفرت المعركة عن هزيمة الجيش البيزنطى وتشتتت صفوفه، ولاقوا حتفهم على أيدى أهل الصحراء وأدى هذا إلى تقلص جبهة البيزنطيين حتى وصلت جبال طوروس كما سقطت الاسكندرية فى قبضة عمرو بن العاص وفى موضع آخر يقول مونتجمرى:

كان العرب يندفعون نحو القتال تحركهم أقوى دوافع الحرب ألا وهو الإيمان والعقيدة: كانوا يؤمنون إيمانا راسخا بالدعوة الإسلامية ويتحمسون لها ويغارون عليها، ويعتنقون مبدأ صلبا هو الجهاد فى سبيل الله وقد تغلغل فى قلوبهم».

واجب المسلمين اليوم

والمتأمل فى حال المسلمين اليوم لا يمكنه أن يقول. أنهم حافظوا على أمانة أعداد القوة مثلما حافظ أجدادهم عليها ويكفى أن نتساءل على سبيل المثال:

• هل لدى المسلمين اليوم القوة الذاتية القادرة على الروع وتحقيق الأهداف الاستراتيجية.

• وهل جيوش الأمة الإسلامية اليوم على مستوى عصرها من التطور والتقدم تنظيما وتسليحا وكفاءة للقتال .

• هل يدرس أبناء المسلمين اليـــوم فى الكليات العسكرية مبادىء ونظريات العسكرية الإسلامية ، أم أنهم يدرسون العلم العسكرى نقلا عن الغرب أو الشرق حتى أصبحوا مقطوعين عن مقوماتهم الأساسيـة الأصيـلة .

• هل تملأ (الروح الجهادية) وحب الجندية قلوب شبابنا اليوم .

• هل يقبلون على العلم والعمل والإنتاج باذلين أقصى ما لديهم من طاقات معنوية ومادية لبناء أمتهم وبناء قدراتها الدفاعية .

هذه الأسئلة وعشرات غيرها لابد أن تدور فى عقولنا وقلوبنا اليوم ، لأن الإجابة تشدنا بسرعة وبصورة محددة إلى ما ينبغى عمله لحاضرنا ومستقبلنا ولا ينبغى فى هذا المقام أن تغيب عنا (الرؤية التاريخية) فى التاريخ ـ وقد ذكرنا جانبا منه آنفا ـ العبرة التى يسترشد بها والتجارب التى تنتفع بها ثم أن لنا من تعاليم ديننا ما يغنينا عن البحث عن نظرية تحقق لنا فى عصرنا ـ وفى كل عصر الأمن والسلامة وبناء القوة التى تحمينا وتدفع العدوان عنا ، وتعيد إلى أمتنا الإسلامية مكانتها اللائقة بها وسابق عهدها : أمة موهوبة الجانب وخير أمة أخرجت للناس .

لواء محمد جمال الدين محفوظ

(الأمة) ١٤٠٣ هـ

الفروسية الإسلامية

جاء الإسلام الذي رفرفت أعلامه الأولى فوق صهوات الخيل المخضبة بدماء الشهداء فمجد الفروسية وأوصى بارتباط الخيل وإكرامها .

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل وقال الرسول الكريم : الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، وقال أيضاً : اكرموا الخيل وجللوها ، ونهى صلى الله عليه وسلم عن إيذاء الخيل وعن خصائها وجز أذنابها وأعرافها ونواصيها وكل ما من شأنه إذلالها .

ويروى أنه كانت له ثمانية عشر فرسا أشهرها (لزاز) و (اللخيف) و (المرتجز) و (السكب) .

وكان عمر بن الخطاب من أشهر فرسان الصحابة ومن أقواله المأثورة : لن تحوز قوى مادام صاحبها ينزع وينزو . يقصد بذلك مادام صاحبها ينزع فى القوس وينزو على الخيل أى يثب عليها عند الركوب من غير استعانة بالركاب وكان عمر يمارس هاتين الرياضتين ، ويقال أنه كان يمسك أذنى فرسه ثم يقفز عليه وهو يعدو فيحكم قياده ، كأنه ولد على ظهر فرس .

ومن أعلام الفرسان الذين ظهروا فيما بعد ، وكانت تروى حول بطولاتهم قصص كالأساطير معن بن زائده ، أبو دلف العجلى ، عمر بن منيف ، الذى قيل أنه خرج ذات يوم للصيد فتبع حماراً وحشياً ومازال يركض بفرسه حتى حاذاه ، ثم جمع رجليه ووثب على ظهره وأخذ يحز عنقه بسكينه وهو يقاوم بعنف حتى ذبحه .

ومن أشهر فرسان الخوارج قطرى بن الفجاءة وشبيب الخارجى .

وقد وضع الخلفاء وصيـة الرسول نصب أعينهم فعنوا بارتباط الخيل وطالبوا من رواتب الفرسان حتى يوسعوا الانفاق على خيلهم ، وكانوا يحاسبونهم حسابا عسيرا .

وكان الخلفاء يقربون البارزين من فرسانهم ويبالغون فى اكرامهم وقد نبغ كثير من العرب فى التمييز بين العتاق والهجن من الخيل .

ومما يروى عن عمر بن الخطاب أنه عرض بعض الخيل على سليمان بن ربيعة الباهلى لتمييزها فأحضر طشتا به ماء ووضعه على الارض ثم قدمت الخيل تشرب فرسا فرسا ، فما ثنى منها سنبكه هجنه ، ومالم يثنه عربه ، وعلل ذلك بأن فى أعناق الهجن من الخيل قصرا ، لا تنال معه الماء إلا على تلك الحال بينما أعناق الخيل العتاق طوال .

وتضم المكتبة العربية مؤلفات لاتحصى حول فضائل الخيل وآداب الفروسية وأخبار الفرسان . ومن تلك المؤلفات (كتاب الخيل) للأصمعى وكان من أعلم الناس بها وبمعلومات العرب عنها — وقد ألف ابن الأعرابى كتابا فى (أسماء خيل العرب وفرسانها) وألف الكلبى كتابا فى (أنساب الخيل فى الجاهلية والإسلام وأخبارها) وجمع الجاحظ شرف الدين الدمياطى فى كتابه (قطر السيل فى فضل الخيل) كثيرا من الاحاديث النبوية الشريفة التى تدعو إلى ارتباط الخيل وتوصى بها . ومن أشهر ما كتب فى فنون الفروسية كتاب (آلات الجهاد وأدوات الصافنات الجياد) لسليمان بن بنين النحوى المعزى و (حلية الفرسان وشعار الشجعان) لابن هزيل الاندلسى وقد كتب فى مثل هذا الفن عشرات من المؤلفات وقد لعبت الفروسية دوراً رائعا فى ميادين القتال فقد كانت أرقى ضروب الرياضة التى لقيت كل عناية وتشجيعا من الخلفاء .

وكانت للفروسية الإسلامية آداب نبيلة تجمع بين النخوة والشرف والرحمة والتقوى والاقدام ، وقد خلبت الفرسان العرب بأدابهم فى هذا الباب الشعوب الأوربية ، التى اتصلت بهم فى القرون الوسطى سواء عن طريق الحروب الصليبية فى الشرق أو عن طريق الاندلس .

وقال جوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) أن للفروسية العربية شروطها فلم يكن المرء يعد فارسا إلا إذا تحلى بهذه الصفات العشر : الصلاح ، الكرامة ، رقة الشمائل ، العزيمة الشعرية ، الفصاحة ، القوة ، المهارة فى ركوب الخيل ، المقدرة على استعمال السيف والرمح والنشاب .

وكان عرب أسبانيا بالإضافة إلى تسامحهم العظيم ، يتصفون بالفروسية المثالية فيرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين ، ويقفون عند شروطهم وما إلى ذلك من الخلال التى اقتبستها الأمم النصرانية بأوربا عنهم مؤخرا . قال بارتلمى سانت هيلر فى كتابه (محمد والقرآن) وأخذ فرساننا من العرب أرق العواطف وأنبلها وأرحمها من غير أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم حتى أنى لاشك أن تكون النصرانية وحدها هى التى أوحت إليهم بذلك مهما يولغ فى كرمها . وأشار رنول فى كتابه (تاريخ الجيش الفرنسى) أن الاوربيين أخذوا عن العرب فكرة الفرسان الملثمون كما أخذوا منهم فكرة الفرسان المجردون من الدروع والأسلحة الثقيلة ، وينسب (سيديو) إلى العرب ابتكار قصص الفروسية التى انتشرت من بعدهم فى أسبانيا وما كان يتبع ترديدها من غناء .

وقد بلغ من إعجاب ملوك أوربا وأمرائها بالفرسان العرب ، أن تهافتوا على استخدامهم وتعزيز جيوشهم بهم ، فاشترك أولئك الفرسان فى المعارك التى دارت بين دولهم وأماراتهم .

(إبراهيم محمد الفحام — العربى)

(١)

نحو استراتيجية عربية على أساس العقيدة الإسلامية

لكل دولة راقية نظرياتها الخاصة فى كل مايتعلق بشئون الحرب . مثل بناء الجيوش وتدريبها وتسليحها . وإعداد القادة وأساليب القتال والحرب النفسية وغيرها مما يطلق عليه « العقيدة والاستراتيجية العسكرية » .

ويتولى وضع العقيدة والاستراتيجية العسكرية ، كبار القادة والخبراء العسكريين الذين يجمعون بين العلم والتجربة العملية ، وتتحول النظريات التى يضعونها إلى مناهج للدراسة فى كلياتهم العسكرية ، ثم تطبق عمليا فى ميدان القتال عندما تشترك الدولة فى الحرب.

ومن الحقائق المعروفة أن النظريات العسكرية تختلف من دولة لأخرى ، لأن لكل دولة ظروفها ، ووجهات نظرها التى تحكم تصورها للأهداف والوسائل التى تحصل بها على النصر فى الحرب على أعدائها .

وتعتبر نظريات كل دولة فى شئون الحرب سرا من أسرارها . لأنها تتصل مباشرة بسلامتها وأمنها ، ولذلك نرأها إذا أعطت منها شيئاً للدارسين من غير أبنائها ، تحرص كل الحرص على ألا تقدم لهم من العلم والخبرة والسلاح إلا ما يكون العلم به أو العمل به لا يضر بمصالحها الاستراتيجية ، أو ما يكون قد تقادم به العهد أو أصبح متخلفا عن مقتضيات العصر .

وقد عاشت دول عربية وإسلامية كثيرة زمنا طويلا تعتمد على الدول الأجنبية فى مجال العلم العسكرى والصناعة الحربية ، فأصبح رجال العسكرية فيها يدرسون النظريات العسكرية الأجنبية ، وأعمال القادة الأجانب ، والتاريخ العسكرى للدول الأجنبية وكأنه ليس للعرب والمسلمين نظريات عسكرية ، ولا قادة . . ولا تاريخ عسكرى يستحق الدراسة .

الواقع أن طمس معالم العسكرية الإسلامية كان واحدا من أهداف الحرب الحضارية التى شنها الاستعمار على العالم الإسلامى ، التى تستهدف طمس معالم الحضارة الإسلاميـــة ، ومنع قيامها من جديد وفرض التبعية على العرب والمسلمين فى مجال الفكر العسكرى ، وفن الحرب . . والباحث العسكرى المطلع يجد أنه منذ عصر النهضة حتى اليوم ،وضعت آلاف الكتب حول الامبراطورية الرومانية . بينما لايتعدى ما كتب فى الغرب عن الفتوحات الإسلامية عدد أصابع اليد .

حتى أولئك الذين كتبوا عن تلك الفتوحات ، نرى أكثرهم يحاول أن يهون من عظمة المسلمين وانتصاراتهم ولا يتناول بالبحث المناسب الجوانب الفنية للمعارك من زاوية العلم العسكرى وفن الحرب والعبقرية العسكرية التى تزخر بها معارك الإسلام حقيقة .

ولعل من أهداف الدعوى المغرضة والباطلة التى يروجها أعداء الإسلام بأنه قام بالسيف فرض نوع من الحساسية حول تناول الجوانب العسكرية فى الإسلام بحيث يؤثر الكتاب المسلمون المتخصصون تجنب دراستها من وجهة النظر الفنية . وبذلك يصل هؤلاء الأعداء إلى هدفهم وهو طمس معالم العبقرية العسكرية الإسلامية التى هى أحد الجوانب الرئيسية فى الحضارة الإسلامية .

إن جهاد العرب والمسلمين فى هذا الصراع الحضارى الذى يستهدف ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم لفى حاجة إلى نهضة حضارية شاملة، تقوم على إحياء حضارتهم العريقة مع الأخذ بكل أسباب التطور والتوسع فى الابتكار ورفض التقليد والتبعية وحينئذ يجدون أنفسهم عباقرة وروادا فى فن الحرب وفن كل المجالات الأخرى .

فهل يمكن أن تكون للأمة العربية والإسلامية نظرياتها العسكرية الخاصة بها كما هى الحال لدى الدول العظمى ؟؟ وكيف تتخلص من التبعية التى فرضت عليها فى مجال الفكر العسكرى ؟ ؟

الواقع أن الإسلام حضارة كاملة ، والقرآن الكريم أعظم دستور عرفته الإنسانية ، ويحتوى على كل القواعد الكفيلة بقيام المجتمع الإنسانى السليم كما يقول الله تعالى «ما فرطنا فى الكتاب من شىء» (٣٨ — الأنعام) .

وكما يقول «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم» (١٥ ، ١٦ المائدة) وكما نظم الاسلام كافة أمور الحياة ديناً ودنيا ، فقد عالج أمور الحرب باعتبارها ظاهرة اجتماعية ، ووضع خير المناهج ، والمبادىء لكل مايتصل بها من حيث أهدافها وأساليب إدارتها وقوانينها وآدابها .

و [العسكرية الإسلامية] تمثل جانبا رائدا من الحضارة الإسلامية ، ومن الحضارة الإنسانية بالتالى ، فلولا جهاد المسلمين الأوائل واسترخاصهم المال والنفس والولد فى سبيل الله . لتغير وجه التاريخ ، ولتخلفت مواكب الحضارة الحديثة عن الظهور . . لقد كان لأجدادنا المسلمين الأوائل فضل تأسيس هذه الحضارة وشق الطريق لهذه الفتوحات العبقرية فى ميادين العلوم الطبيعية والانسانية ، وكان فضلهم هذا من بعض ثمرات الجهاد فى الإسلام .

والباحث العسكرى المدقق ، لا يجد فى الاسلام كل ماتحتويه النظريات العسكرية للدول العظمى فى الشرق والغرب فحسب . بل أنه يخرج من الدراسة المقارنة بأن نظريات الإسلام تتجاوز نظريات تلك الدول وتتفوق عليها سواء من حيث الناحية الفنية العسكرية البحتة ، أو من حيث نبل المقاصد والأهداف ولنضرب بعض الأمثلة :

أولا : جوهر العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية :

وأول ماتتميز به العسكرية الاسلامية هو أن جوهرها وأساسها «عقيدة الجهاد فى سبيل الله» . . يقول الله تعالى : «وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم» (الحج ٧٨) .

ويقول سبحانه « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » (التوبة ١١١) وعن أبى داود بإسناد صحيح عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم » أخرجه النسائى .

نستخلص من ذلك مايلى :—

١ — أن الجهاد مبدأ من مبادىء الإسلام ، استقرت دعوة القرآن إليه — على عمومه — متعلقة بذمة المسلمين جماعة وأفرادا ، وتقتضيهم أن يؤمنوا بتشريع الجهاد عامة كإيمانهم بأى معتقد سواه . وأن يقوموا بتنفيذه كما يجب أن ينفذوا غيره مما فرض الله .

٢ — أن الجهاد تكليف وتكريم للأمة الإسلامية . فقد جعله الله تعالى الوظيفة الشريفة التى كرمهم بها كما يفهم من قوله سبحانه « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم » (اجتباكم يعنى اختاركم) . فالاختيار هنا تكريم وتشريف ويتطلب أن تكون الأمة عند حسن الظن بها ، وأن تثبت عمليا أنها جديرة بالثقة التى وضعت فيها ، وأهل التكريم الذى نالته ، وقادرة على تحقيق الأمل المعقود عليها .

٣ — أن هدف الجهاد ليس عرضا ماديا ، وليس اغتصابا لحق ، أو عدوانا على أحد وإنما هو إعلاء لكلمة الله ، وكلمة الله هى الحق والعدالة والرحمة والاخوة والسلام العام للفرد فى نفسه ودمه وماله وعرضه ، وللأمة فى كرامتها وعزتها وللناس جميعاً كما يفهم من قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين » (البقرة-٢٠٨) ثم أن كلمة سبيل الله تسع كل القيم السامية والقضايا النبيلة فلا يتأتى معها جور أو غدر أو عدوان .

٤ الاستراتيجية العسكرية الإسلامية تقاتل للدفاع ولرد العدوان

وإن الأمة الإسلامية ملتزمة بهذا المبدأ حتى تقوم الساعة فلا تقاتل للسيطرة أو التوسع في الاستيلاء ، فهل هناك في التاريخ كله استراتيجية عسكرية لأية دولة في العالم تستطيع أن ترقى إلى مستوى الاستراتيجية الإسلامية في نبل المقاصد والأهداف ، أن استراتيجيات الدول تحكمها المصالح والأهداف السياسية والاقتصادية وكان ذلك سبباً لما عانته البشرية من نكبات الحروب وكوارثها أما الاستراتيجية الإسلامية فلا ترتبط بأهواء الساسة أو القادة وإنما هي ترتبط بمبادىء الإسلام الذي هو دين السلام .

ثانياً : نظرية الردع الإسلامية :

يقول الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم » (الانفال ٦٠) .

يفهم من ذلك أن الإسلام حين أمر بإعداد القوة والمرابطة ، جعل القصد من ذلك إرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة التعدي على الأمة الإسلامية ونستطيع أن نستخلص أهم خصائص هذه النظرية الإسلامية فيما يلي :

١ — أنها تنطوي على أرفع المعاني السلمية والإنسانية وحقن الدماء عن طريق منع قيام الحرب باظهار القوة للعدو ومنعه من العدوان .

٢ — أنها تحقق الأمن والعزة للأمة الإسلامية ، فالإسلام حين يوجب عليها أن تعد ما تستطيع من قوة ، يستهدف أن تصبح الأمة شديدة الشوكة مرهوبة الجانب من قبل الاعداء ، قادرة على الدفاع عن نفسها .

٣ — أنها تسبق وتتجاوز نظرية الردع التي هي أحدث النظريات العسكرية في القرن العشرين . . فلقد نشأت هذه النظرية بعد ظهور الأسلحة الذرية ، وبعد أن أصبحت كل من الكتلتين الكبيرتين في العالم تمتلك من تلك الأسلحة قدرا متكافئا ، وقد أدى ذلك إلى ما يسمى « بالتوازن الذرى » الذي يؤدي إلى منع قيام الحرب بين الكتلتين . . والسبب في ذلك هو إقتناع كل طرف بأن الطرف الآخر قادر على الرد والانتقام إذا ما هوجم أولا بالأسلحة الذرية . . حتى شاع

القول بأن أية حرب ذرية سوف تكون انتحارا جماعيا ولا يستطيع أن يخرج منها أحد منتصرا ، وبمعنى آخر فإن تملك الأسلحة الذرية يؤدى إلى الردع ، أى إلى إرهاب الطرف الآخر وإخافته من عاقبة عدوانه ويؤدى بالتالى إلى منع نشوب الحرب .

ويعبر عن هذا المعنى الجنرال اندريه بوفر حين يقول : « أن رجل القرن العشرين الذى تلاحقه مآسى الحربين العالميتين الأولى والثانية ، ربما وجد أخيرا الوسيلة لمنع وقوع المثل هذه المآسى . وهى استراتيجية الردع » .

فنظرية الردع التى لم يصل إليها العالم إلا فى أواخر القرن العشرين هى فى الإسلام نظرية مبدئية منذ أربعة عشر قرنا ، وليس ذلك فحسب ، بل أن نظرية الردع الإسلامية تتجاوزها فى نيل المقاصد والأهداف .

فالنظرية الإسلامية مرتبطة « بمبادىء الإســـلام » بينما نظرية القرن العشرين مرتبطة « بالتوازن الذرى » . . وفى هذا الموضع بالذات يظهر الفارق الهائل بين النظريتين ،فارتباط النظرية المعاصرة بالتوازن الذرى لايوحى بالأمن والطمأنينة ولا يؤدى إلى قيام سلام حقيقى فى هذا العالم ، وذلك لأن فقدان هذا التوازن بحصول إحدى الكتلتين على تفوق ذرى ساحق على الأخرى أمر محتمل جدا ، وهو إذا حدث سوف يؤدى إلى اندلاع حرب ذرية على الفور .

وهنا يتضح ما تتميز به نظرية الردع الإسلامية من نيل المقاصد ، ذلك لأنه إذا تملكت الأمة الإسلامية القوة المتفوقة على خصومها بحيث يصبح ميزان القوى فى جانبها ، فإن ذلك لن يغريها باستخدام القوة ضدها ماداموا يمتنعون عن العدوان ، فالأمة الإسلامية لا تتعدى حدود الردع ما دام يحقق أهدافه وهو إخافة العدو ومنعه من العدوان . فذلك هو القصد من إعداد القوة أصلا كما أن العدوان « ليس من غايات الإسلام » ولم يشرع القتال إلا إعلاء لكلمة الله ودفاعا عن الأمة الإسلامية ضد الاعتداء .

ثالثا ـــ التطور وملاحقة العصر :

لما كان التكليف القرآنى بالجهاد وبإعداد القوة والمرابطة ، تكليفا قائما وباقيا حتى تقوم الساعة ، فإن مقتضى ذلك ألا تفتر عزائم ـ الأمة عن إعداد القوه بكل مقوماتها العسكرية والاقتصادية والسياسية وأن تعمل الأمة على تطوير قوتها فى تركيبها وأساليب استخدامها لتناسب روح العصر الذى يحتويها ، والأمة الإسلامية أن لم تفعل ذلك ، ولم تأخذ بأسباب التطور العلمى والتقنى (التكنولوجى) ، وتخلفت عن مقتضيات عصرها، فإن قوتها التى أمرها ربها بإعدادها سوف تفقد قيمتها وتعجز عن ارهاب الأعداء ، فتأثم الأمة وتتعرض للخطر والهلاك . . ولقد قدم لنا الرسول القائد صلى الله عليه وسلم خير الأمثلة فى مجال التطور وملاحقة العصر :

١ ـــ فلقد كان تركيب الجيوش لدى كل من فارس وبيزنطة أعظم امبراطوريتين فى ذلك العصر ، يقوم على أساس أن الفرسان تشكل القوة الرئيسية الضاربة ى تلك الجيوش ، فاستطاع الإســـلام بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم ملاحقة عصره فى هذا المضمار عن طريق عنايته الفائقة بالفروسية ، ويكفى للدلالة على ذلك أن نعلم أن قوة المسلمين فى غزوة بدر كانت ثلاثمائة وخمسة من المقاتلين ومعهم فرسان اثنتان فقط أما فى غزوة تبوك فقد كانت القوة ثلاثين ألفا منها عشرة آلاف فارس .. أى أن نسبة الفرسان قفزت من شىء لايذكر حتى بلغت الثلث من القوة الإجمالية للجيش . . وقد تم هذا التطور الكبير فى أقل من سبع سنوات .. ولعل هذا يفسر اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بتدريب المسلمين على ركوب الخيل وعلى فنون الحرب بها ، ومن ذلك قوله عليه السلام « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

وقوله « عاتبوا الخيل فإنها تعتب» أى أدبوها وروضوها للحرب والركوب فإنها تتأدب وتقبل العتاب .

كما رغب عليه الصلاة والسلام فى اقتناء الخيل والعناية بها ، لجعل للفارس

عند توزيع الغنائم سرجين وجعل للراجل سرجا واحدا ، وذلك لكي يستعين الفارس بالسرج الزائد على إعاشة فرسه وإعدادها للحرب . . وكان من أثر ذلك أن كان بعض الفرسان الأشداء يخرج للقتال بفرسين يحارب عليهما كما فعل الزبير بن العوام فى غزوة حنين وفى حروب الشام المختلفة .

٢ — وكانت مهارة الفرس فى الرماية فائقة حتى قال عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم مخاطبا قومه : « هم أقوى منكم رمية » .

فكان اهتمامه بتدريب المسلمين على الرمى سببا فى بلوغهم مستوى رفيعا استحقوا معه أن يطلق عليهم لقب (رماة الحدق) أى أن الرامى كان إذا أراد تصويب سهمه نحو عين عدوه لم يخطئها .

والأحاديث النبوية الشريفة الدالة على عناية النبي صلى الله عليه وسلم بالرماية كثيرة ، فهو يكرر « إلا أن القوة الرمى ثلاثا . . ويمر بموضع كان الصحابة يتدربون فيه على الرمى فينزع نعليه ويقول : « روض من رياض الجنة » أى أن التدريب على الرمى يوجب روضة من رياض الجنة .

ثم أنه عليه الصلاة والسلام يشجع على التدريب على الرمى والطعن بالحراب حتى لقد سمح باتخاذ المسجد ميدانا له فيقول لعمر رضى الله عنه حين أنكر على بعض الأحباش لعبهم بالحراب فيه : « دعهم يا عمر » .

كما يحث على محافظة الرامى على كفاءته ومهارته بالتدريب المتصل فيقول : « من ترك الرمى بعدما علمه فإنما هى نعمة جحدها » ويقول : « من علم الرمى ثم تركه فليس منا ، أو فقد عصى » .

وها هو الإمبراطور البيزنطى « ليو » — مع ماعرف عنه من تعصب ضد العرب والمسلمين — يعترف بقدرتهم على ملاحقة عصرهم فيقول « إن الجندى العربى ما كان يفترق عن الجندى البيزنطى فى المؤن والسلاح » (فون كريمر فى كتابه الشرق تحت حكم الخلفاء) .

رابعاً — الصناعة الحربية :

المعروف أن أسلحة القتال وخاصة الأسلحة الثقيلة كالمدافع والدبابات والطائرات والسفن الحربية لا تقوم إلا على أساس الصناعة الثقيلة التى تعتمد على صناعة الحديد والصلب .

والتوجيه القرآنى حول الآية الكريمة : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » . يوحى بعدة مبادىء على الأمة الإسلامية أن تلتزم بها .

١ — تقيم الأمة بنيانها الاقتصادى على « الصناعة » أساساً ، والمعروف أن الصناعة هى الأساس الحقيقى للتنمية الاقتصادية ولتقدم الأمم وقوتها .

٢ — وأن تتملك الأمة الإسلامية زمام « صناعة الحديد والصلب » التى لا تقوم الصناعة الثقيلة إلا على أساسها .

كل هذا تؤكده الآية الكريمة حول الحديد الذى اتفق الاقتصاديون على أنه هو مصدر القوة الحقيقية للأمم .

— فى مجال الحرب (فيه بأس شديد) .

— وفى مجال التنمية الاقتصادية عامة (ومنافع الناس) .

وابلغ دليل على اهتمام العرب بعد الإسلام بالصناعة الحربية أنهم برعوا — وهم أبناء الصحراء — فى صناعة السفن وقيادة الأساطيل وحرب البحار . . يقول ابن خلدون : « كان الروم مهرة فى ركوب البحر والحرب فى أساطيله ، ولم يكن العرب أول الأمر مهرة فى ركوبه ، فلما استقر الملك لهـــم ، وشمخ سلطانهم ، صارت أمم العجم تحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته ، فاستخدموا فى حاجتهم البحرية كثيرا من هؤلاء وانشأوا السفن ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأسسوا دارا لصناعة الآلات البحرية بتونس ، ومنها كان فتح صقلية .

ويقول أيضاً « أن المسلمين تغلبوا على لجة بحر الروم (يعنى البحر الأبيض المتوسط) وأن أساطيلهم سارت فيه جائية وذاهبة من صقلية إلى تونس . والرومان والصقالبة . والفرنجة جميعا تهرب أساطيلهم أمام البحرية العربية ، ولا تحاول الدنو من أساطيل المسلمين التى ضربت عليهم كضراء الأسد على فريسته .

خامساً — الحرب النفسية :

قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم » وقال عليه الصلاة والسلام لحسان بن ثابت وكان من شعراء الإسلام : « ياحسان أهج المشركين وجبريل معك ، إذا حارب أصحابى بالسلاح فحارب أنت باللسان » وقال أيضاً : « إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده لكان ماترمونهم به نضح النبل » (نضح النبل يعنى الرمى بالسهام) .

نستخلص من ذلك المبادىء الآتية :

١ — أن الجهاد باللسان واحد من أساليب جهاد الأعداء .

٢ — أن الجهاد باللسان واجب وجوب الجهاد بالنفس والمال .

٣ — أن الجهاد باللسان قد يكون أسرع وأشد تأثيرا على الأعداء من القتال .

والواقع أن العلم العسكرى وخبرة الحروب يجمعان على أن الحرب النفسية سلاح فعال وشديد التأثير فى المعركة ، بل أن الحرب النفسية تعد أخطر أنواع الحروب لأنها تستهدف فى المقاتل عقله وتفكيره وقلبه ، فتحطم روحه المعنوية وتقضى على إرادة القتال فيه وتقوده بالتالى نحو الهزيمة .. ويقول عنها تشرشل « كثيرا ماغيرت الحرب النفسية وجه التاريخ » .

والنظرية الإسلامية فى الحرب النفسية تحتوى على الأساليب المختلفة لشنها

ضد الأعداء ، وعلى أساليب وقاية المسلمين منها وكذلك على أساليب إزالة آثارها من نفوس المسلمين » .

— وتعتبر غزوة فتح مكة تطبيقا رائعا للحرب النفسية فقد أدى التخطيط العبقرى الذى وضعه الرسول القائد صلى الله عليه وسلم الذى اعتمد فيه إلى أقصى حد على العوامل النفسية ، إلى زعزعة ثقة قريش فى قدرتها على مواجهة المسلمين حتى لقد قال زعيمهم أبو سفيان لقومه « يامعشر قريش » ، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به . .

— أما عن الوقاية من الحرب النفسية فإن الإسلام يقرر أن الإيمان والعقيدة هما الركيزة العظمى لتحصين المجاهد ضد الحرب النفسية ، فالمؤمن إيمانا كاملا لا يخاف الوعيد ولا يرهب التهديد . كأولئك الذين يقول الله فيهم .

« فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت » (الأحزاب ١٩) .

بل أن المؤمن لا يزيده التهديد والوعيد وأساليب الحرب النفسية المختلفة إلا إيمانا وثباتا كأولئك الذين قال فيهم جل شأنه :

« الذين قال لهم الناس أن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » (آل عمران ١٧٣) .

وقد أجمع خبراء الحرب النفسية على أن الحرب النفسية « يزيد تأثيرها على الجنود الذين لا يحملون فى قلوبهم عقائد ثابتة » .

— وأما عن إزالة آثار الحرب النفسية فإن الإسلام قد قرر لها خير الأساليب التى تستعيد للمسلمين قواهم المعنوية ، وقد طبق الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه هذه الأساليب حتى أنه فى بعض المواقف كان يزيل الآثار بالقتال الفعلى وهو أحدث ما تنادى به النظريات الحربية ، ومن أمثلة ذلك خروجه بالمسلمين إلى حمراء الأسد فى اليوم التالى لغزوة أحد فوقع فى روع أبى سفيان أن المسلمين جاءوا من المدينة بمدد جديد ، وخاف لقاءهم وعاد إلى مكة.

فكانت تلك الحركة العسكرية الجريئة سببا فى إستعادة المسلمين لقواهم المعنوية ، كما ادخلت الرهبة فى روح اليهود والمنافقين فى المدينة .

سادساً — الاستعداد الدائم لرد العدوان :

فى هذا العصر الذى تقدمت فيه العلوم تقدما مذهلا أدى إلى تقدم فنون الحرب وأسلحتها ، أصبح مصير الأمم متوقفا على درجة استعدادها لرد العدوان المباغت عليها . لذلك نراها تؤسس استراتيجيتها العسكرية على أن تكون قواتها مستعدة دائما لرد العدوان فى أيه لحظة ونراها تستخدم أجهزة الانذار المبكر ، ووسائل الاستطلاع المتقدمة كالاقمار الصناعية مثلا لكى تكشف لها عن نوايا أعدائها .

ومن أساليب الاستعداد لرد العدوان أيضاً أن يكون هناك جانب من القوات المسلحة كامل الاهبة للقتال الفورى بحيث يستطيع الاندفاع للقتال عند الخطر ، فتكون هناك مثلا قوات مجهزة بالعتاد الكامل تقيم فى إحدى القواعد الجوية وبالقرب من طائرات النقل التى تكون هى الأخرى مجهزة للاقلاع الفورى بهذه القوات إلى المكان المطلوب وأن لمن الامور المدهشة إن تلك النظريات فى الاستعداد الدائم للقتال والتى عرفها العالم حديثاً ، قد سبق بها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا وجعلها مبدأ من مبادئه لتحقيق أمن الإسلام والمسلمين .

١ — فلقد عنى الإسلام أشد العناية باتخاذ الحيطة والحذر لحرمان العدو من مباغتة المسلمين ، يقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم » .

وهل أدل على ذلك من أن الإسلام يأمر باتخاذ الحذر وبالاستعداد حتى فى الصلاة التى يؤديها المسلمون لله ويكونون فيها بين يديه ؟

٢ — ويفتح الإسلام عيون المسلمين على الخطر المحدق بهم من أعدائهم المتربصين الذين ينتظرون لحظة الغفلة منهم وما يترتب على تلك الغفلة من أضرار بالغة ، فيقول الله تعالى « ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة (النساء ١٠٢) .

وقد قرر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم المعيار الصحيح للاستعداد القتالى لمنع العدو من المباغتة والذى لا تتسامى إليه أحدث معايير العلم العسكرى الحديث ، يقول عليه الصلاة والسلام : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله ، كلما سمع هيعة (أى صيحة خطر) طار إليها » .

وبتحليل هذا الحديث الشريف نستخلص المبادىء التالية : ـ

ـ المبدأ الأول : الاستعداد المستمر وهو ما يستفاد من لفظ (ممسك) فهو يعنى ـ لغويا ـ درجة من الاستعداد أكبر من مجرد ركوب الفرس ، وهى تفيد معنى « استمرار » حالة الامساك بعنان الفرس استعدادا للانطلاق .

ـ المبدأ الثانى : السرعة الفائقة فى الانطلاق فى حالة الخطر ، وهو ما يستفاد من لفظ (طار) فهذا اللفظ يفوق كثيرا جدا كلمة اندفع أو تقدم أو أسرع وهو يعبر عن أسرع أشكال الحركة على الاطلاق .

ـ المبدأ الثالث : مراعاة خفة الحركة فى تركيب القوة المتأهبة ، وهو ما يستفاد من تحديد الحديث للفارس (رجل ممسك بعنان فرسه) ويرمز هذا المبدأ إلى ما يطلق عليه العسكريون « خفة الحركة » . فلابد أن تتسم القوات التى توضع فى حالة التأهب بخفة الحركة فيراعى فى تشكيلها أن تكون محمولة على سيارات أو طائرات أو زوارق حربية وغيرها من الوسائل التى تحقق خفة الحركة ، والتى كانت الخيل فى صدر الإسلام تعبر عنها .

ـ المبدأ الرابع : تكريم منزلة القوات التى توضع فى حالة التأهب . وهو ما يستفاد من لفظ « خير الناس » فى الحديث الشريف ، فهو ينطوى على تكريم للمجاهد الذى يقف فى أعلى درجات التأهب ، وهو تكريم يستحقه لقاء العناء والجهد البدنى والعصبى الذى يبذله ويستحقه أيضا لأنه سوف ينذر أمته وينبهها إلى الخطر الذى يتهددها حتى لا تؤخذ على غرة .

* * *

وبعد : فإن ما ذكرته ماهو إلا قطرة من بحر مما فى الإسلام من نظريات ومبادىء فى أمور الحرب .

ولا مراء فى أن للاسلام مدرسة عسكرية كاملة تحتوى على كل ما ينشده رجال العسكرية من نظريات وقواعد فى كافة الأمور العسكرية وما أحوج الأمة العربية والإسلامية إلى إحيائها بالدراسة والتطبيق . لكى نستعيد مجدها وترهب أعداءها ، ونسترد أرضها السليبه .

واسأل الله تعالى أن يوفق أمتنا إلى تحقيق نهضتها الحضارية الشاملة ، التى تعتبر العسكرية الإسلاميه بنظرياتها المحكمة رتيمها الرفيعة ، درعها التى يصونها ويحميها «ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز» .

(اللواء الركن : محمد جمال الدين محفوظ)

الباب الرابع

التوسع الإسلامى بعد الفتح

(القرن الأول الهجرى : السادس الميلادى)

إن الحدود البعيدة التى يمتد إليها اليوم العالم الإسلامى فى آسيا وأفريقيا تعطينا فكرة واضحة عن هذا التوسع العظيم الذى استطاع أن يحققه التوغل الإسلامى الحضارى فى العالم القديم بيد أن الأمر يتعلق فقط بهذا التوسع الظاهرى ، الذى يمكننا أن نعتبره فى معنى من المعانى امتداداً طبيعيا للفتوح العربية الأولى التى استطاعت حتى أواخر القرن الاول من الهجرة أن تصل إلى حدود السند وإلى أواسط أسيا والتى استطاعت فى الغرب أن تصل إلى شواطىء المحيط الأطلنطى وصحراء إفريقية الكبرى ولدينا بالأخص تاريخ طويل للتوغل الإسلامى فى القارة الهنديه وقد وصلت الفتوح الأولى إلى شواطىء نهر السند .

ولكن هذه الفتوح استؤنفت منذ نهاية القرن العشر الميلادى على يد فاتحين عدة من الافغان والتتار وكان فى مقدمتهم السلطان محمود الغزنوى الذى استطاع أن يدفع فتوحه حتى حدود هضبة الدكان وبدأت الفتوحات التتارية فى بداية القرن الثالث عشر واستطاع زعيمهم الكبير إتيمورلنك أن تحقق أعظم توغل فى الهند وعند ذلك ظهرت عدة ممالك إسلامية من البنجاب حتى بنغالة ، واستطاع الفاتح (بابر) حفيد تيمور أن يؤسس الإمبراطورية المغولية منذ أوائل القرن السادس عشر .

وقد كان أعظم سلاطين هذه الإمبراطورية المغولية الكبرى ، وقد بلغت الامبراطورية الهندية الإسلامية فى عهد (أكبر خان) إلى ذروة قوتها وعظمتها وهنا وفى ظل هذه الإمبراطورية المغولية الكبرى ازدهرت

الحضارة الإسلامية فى سائر أنحاء الهند ، ووصل الإسلام إلى ذروة توغله فى القاهرة الهندية ، ويوجد الآن بالهند نحو مائة وخمسين مليونا من المسلمين وهو ما يمثل ثلث سكانها .

ومن المعروف من انتشار الدعوة الإسلامية فى الشرق الأقصى يرجع إلى جهود الرحل والتجار المسلمين ، فهم الذين حملوا الدعوة الإسلامية واللغة العربية إلى هذه الأنحاء النائية وهم الذين غزوا تصورها ومجتمعاتها بالتعاليم الدينية والحضارية الممتازة التى تتفوق ببساطتها وروحها الإنسانية على المذاهب الأخرى ، وعلى الرسوم الوثنية .

أما فى أفريقيا فإن الغزو السياسى كان يعضده الغزو الحضارى والواقع أن الفتوح الإسلامية قد وصلت فى القرن الحادى عشر الميلادى إلى قلب الصحراء الكبرى ووادى النيجر ، وممالك غانة ومالى السوداء وموريتانيا وكذلك إلى حدود السنغال .

وقد قامت بهذه الفتوح كلها الجيوش المرابطية المغربية وكان (المرابطون) هم الذين أذاعوا الدعوة الإسلامية فى هذه الأقطار . ويقول لنا الجغرافى الأندلسى الكبير أبو عبيد البكرى : أن عبد الله بن ياسين أمام المرابطين بعد أن فتح درعة وسلجامة فى سنة ١٠٥٣م توغل فى الصحراء نحو الجنوب وغزا مدينة أردغست التى كانت يومئذ من أملاك غانة ، وكان بينها وبين سلجامة مسافة شهرين ، وقام خلفه فى قيادة المرابطين الأمير أبو بكر اللمتونى ، وسار فى جيشه الكبير وغزا مملكة السودان الواقعة جنوب بلاد القبلة عاصمة المرابطين فى الصحراء الكبرى ، وتوغل حتى مسافة ثلاثة أشهر وكثر الإسلام بين أهلها وإلى غزوات هذا الأمير يرجع انتشار الإسلام فى حوض النيجر

وفى المنطقة التى تحتلها اليوم جمهورية مالى وغرب موريتانيا واستطاع ابن بطوطة أن يكتشف حوض نهر النيجر ومنابعه وكان يومئذ يظن أنه أحد أفرع نهر النيل العظيم ، وقد سبق ابن بطوطة سائر الرحالة الاوربيين الذين

لم يستطيعوا اختراق هذه المنطقة إلا فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر على يد الرحالة الاسكتلندى منجو بارك والرحالة الفرنسى رنى كايبه وهما أول من اكتشف هذه المنطقة من الأوربيين.

وقد أكمل التجار العرب عمل الغزو السياسى ونشر الدعوة الإسلامية فى شرق أفريقية ولا سيما فى منطقة موزمبيق ودار السلام وهكذا وصل التوغل العربى الإسلامى فى أفريقيا إلى مدى عميق لم يستطع الاستعمار الأوربى أن يصل إليه بالرغم من سائر جهود المبشرين والبعثات التبشيرية .

أما التوغل العربى الاسلامى فى جزائر البحر الأبيض المتوسط . فقد فتح المسلمون جزيرة صقلية فى أوائل القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) وأقاموا بها دولة استمرت زهاء قرنين وقامت بها حضارة إسلامية زاهرة ، وكذلك غزا المسلمون جزيرة قبرص فى أوائل الفتوح الأولى، ثم غزوا كريت (أقريطش) فى أوائل القرن التاسع ، ولبثوا منها قرناً وربع القرن وتسرب التوغل الإسلامى عن صقلية إلى قلورية فى جنوب إيطاليا .

ولم تكن هذه فتوحاً عسكرية فقط ولكنها كانت قبل كل شىء توغلا سلمياً وحضارياً (ما تركته العلوم العربية من الحركة الفكرية فى جنوب إيطاليا وقد كانت كتب الطب العربية تدرس فى مدرسة سالرنو الشهيرة فى القرنين ١٠، ١١م (الرابع والخامس الهجريين) وغزا المسلمون جزيرتى سردانية وقورسقة مراراً ولكنهم لم ينجحوا فى أن يقيموا بها دولة إسلامية .

أما التوغل الإسلامى فى أوربا ، فقد وصل إلى بلاد ومناطق بعيدة قد لا تصدقها لأول وهلة . نحن نعرف أن العرب قد فتحوا أسبانيا وعبروا جبال البرنية مراراً وافتتحوا مدائن غالة أو جنوب فرنسا وبقوا هناك نحو نصف قرن .

واخترقت الجيوش الإسلامية التى يقودها عبد الرحمن الغافقى قلب فرنسا حتى وصلت إلى ضفاف نهر اللوار ؛ والله وحده يعلم ماذا كان يحدث لو لم

يخسر العرب موقعه تور أو بلاط الشهداء أمام الجيوش التى كان يقودها شارل مارتل ٧٣٢ م

ولقد كان من المحقق أنه لو لم يقع هذا النصر الحاسم لاستطاع العرب أن يجتاحوا أوربا بأسرها ولساد فيها الإسلام، ولكان القرآن يدرس فى أكسفورد ولكانت منابرها تخصص لتأييد دعوة محمد وصدق رسالته كما يقول المؤرخ أدوارد جيبون .

أسس العرب فيما بعد خلافه قرطبة العظمى التى جعلت من أسبانيا المسلمة أعظم دول الغرب فى العصور الوسطى ، وقد لبثت الأمة المسلمة العظيمة فى أسبانيا ثمانية قرون تدهش أوربا بعلومها وحضارتها .

وقد استطاعت جيوش الإسلام أن تنفذ إلى قلب أوربا وأن يقيم فيه مدى قرنين وأن تترك فى مجتمعاتها كثيراً من الآثار المعنوية والحضارية . وإنه لمن المدهش أن تلك الآثار الحضارية الهامة يكاد يجملها المؤرخون الأوربيون ولا يعنى بها إلا بعض العلماء ، ولقد أثارت البحوث الإسلامية اهتمام الغرب وإعجابه وحقق العلماء المسلمون لا سيما فى ميدان الكيمياء إكتشافات مدهشة ، وكذلك فى الطب والفلك .

وهكذا نرى أن التوغل العربى الإسلامى قد حقق فى سائر أركان العالم القديم آفاقاً لم تصل إليها أية أمة أخرى ، سواء فى أمم العالم القديم أو العالم الحديث وأن أعجب ظاهرة فى هذا التوغل هى أنه لم يستند إلى الفتوحات السياسية وحدها ولكنه اعتمد بالأخص ، لا سيما فى المناطق النائية على الغزو السلمى والإخاء الانسانى ومن المحقق أن الآثار الحضارية لمثل هذا التوغل الذى تطبعه حضارة قومية ذات آفاق بهذا البعد يجب أن تكون وافره العظمة والأعماق.

محمد عبد الله عنان (العروة الوثقى — ١٩٨١)

(٢)

المسلمون فى أوربا فى العصور الوسطى

وقف المؤرخون مندهشين أمام سرعة الفتح الإسلامى وهى ظاهرة مثيرة حقا ، ونحن نستطيع أن نجد الأسباب فى الإسلام وتعاليمه التى أذكت الحماسة الدينية فى نفوس المسلمين ، وجعلتهم يستهينون بالمخاطر ، ويستعذبون الاستشهاد فى سبيله ، فهذا عقبة بن نافع ، البطل المشهور وقف على ساحل المحيط الأطلسى ممتطيا جواده ثم شهر سيفه وقال :

اللهم فاشهد أنى لو كنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضا لخضته غازيا فى سبيلك ،ويجاهد زهير بن أبى قيس البلوى والى أفريقيا زمن عبد الملك بن مروان وينتصر فى معاركه ثم يصمم على مغادرة إفريقيا خوف الفتنه قائلا :

قدمت للجهاد فأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك .

هذه هى الروح التى كانت وراء انتصار المسلمين .

ومن أسباب سرعة انتصار المسلمين تعاليم الإسلام القائمة على التسامح ، وهو أمر لم يكن مألوفا فى تلك الفترة من تاريخ البشرية ، هذا التسامح الذى أظهره المسلمون هو الذى جعل الشعوب المظلومة ترحب بهم وبالاسلام ،فيتقرر مصير بلاد الشام فى معركة واحدة هى [معركة اليرموك ١٥ هـ — ٦٢٦ م] كما تقرر مصير مصر فى (معركة حصن بابليون ٢٠ هـ — ٦٤١ م) ومصير أسبانيا فى معركة (وادى لكو ٩٢ هـ — ٧١١ م) .

والمعروف أن الجيش الإسلامى كان جيشاً بريا لا يعرف ركوب البحر ولكن مجابهته لاوربا أجبرته على أن يفكر فى بناء الأساطيل للعبور إليها ،

من بحث للدكتور إبراهيم على طرخان تلخيص الدكتور محمود السمرة (العربى) .

وكان معاوية بن أبى سفيان أول من نظم أسطولا فى الإسلام وأول من أرسل حملة عربية إسلامية للغزو فى البحر المتوسط فكان النصر الساحق على البحرية البيزنطية فى المعركة المشهورة باسم (غزوة ذات الصوارى) عام ٣١ هـ ٦٥١ م رغم أن الأسطول الإسلامى كان يتكون من مائتى قطعة بحارتها من المصريين والسوريين بينما كانت سفن الأسطول البيزنطى تتراوح بين سبعمائة وألف سفينة .

وغدت عكا أهم قاعدة بحرية فى بلاد الشام ، ونقل عبد الملك بن مروان ألف صانع مصرى من بناة السفن مع أسرهم لانشاء قاعدة بحرية فى قرطاجنة

أما فى حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى فقد تم تنظيم البحرية فى الأندلس زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر وكانت أكثر القواعد البحرية فى أسبانيا على طول الساحل الشمالى الشرقى بين طرطوشة وبلنسيه وكانت مدينة المرية فى الجنوب الشرقى من أسبانيه هى القاعدة الرئيسية للبحرية الأندلسية .

وكانت لشبونة هى قاعدة الأسطول الأندلسى على المحيط الأطلسى وعندما تم للمسلمين السيطرة على نحو ثلثى البحر المتوسط وجزره ، أصبحت لهم قواعد ممتدة من شرقه إلى غربه وهكذا تحولت الدولة الإسلامية إلى دولة بحرية وغدا البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية .

وكان موسى بن نصير أول من فكر فى غزو فرنسا بعبور جبال البرانس ، وقد قام السمح بن مالك عام ١٠٠ هـ ٧١٩ م فاحتل إقليم سبتمانيا وتعرف الآن باسم(الريفيرا الإيطالية) وعاصمتها أربونه وتتبع السمح مجرى نهر الجارون، حتى وصل إلى طولوشه (عاصمة اكوتيانيا) ثم عاد الجيش الإسلامى إلى أربونه .

وواصل عنبة بن سحيم الكلبى الغزو فى فرنسا الجنوبية حتى وصل إلى مدينة سانس (على بعد ثلاثين كيلو مترا جنوبى باريس) وبين عامى ١١٢ — ١١٤ هـ تولى إمارة الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، وأعلن الدعوة للجهاد فى سبيل الله ، فى الأندلس وإفريقية ، فتدفق عليه سيل المتطوعين من

كل ناحية وبلغ جيشه سبعين ألف ومائة ألف فعبر جبال البرانس من ممرات رونسفال ، حتى وصل إلى مدينة تور فاستولى عليها ثم تقدم إلى مدينة بواتيه فالتقى بجيش كارل مارتل على بعد سبعين كيلوا مترا من باريس جنوبا وقد هزم المسلمون فيها من ناحية الغنائم ، وسقط الغافقى شهيدا وانسحب المسلمون .

ولم تتوقف حركة الفتح الإسلامية فإنه بعد غزو صقلية وبعد فتحها ، تمكن المسلمون من اجتياح إيطاليا الجنوبية بسرعة كما غزوا شواطئها المطلة على البحر الأدرياتيكى والبحر التيرانى .

وغزا المسلمون روما عدة مرات مما دعا البابا حنا الثامن إلى أن يفاوضهم فى الصلح والجلاء مقابل دفع جزية سنوية مقدارها مائة ألف مثقال ذهب . وكانت السيطرة الإسلامية على جنوب إيطاليا ووسطها تهدد تجارة البندقية فى الدرجة الأولى ، ولما جهزت البندقية أسطولا مؤلفا من ستين سفينة لمحاربة المسلمين هزموا شر هزيمة أمام الأسطول الإسلامى .

وقد تعرض شمالى إيطاليا لغزوات المسلمين أيضا ، فعلى أثر معركة بلاط الشهداء توجه عقبة ابن الحجاج السلولى على رأس جيش ودخل بيدمونت ، ثم غزو جنوه ، ولم تسلم البندقية من غزوهم وتحكموا فى ممرات جبال الألب ولم يكن يستطيع المسافرون قطعها إلا بعد دفع رسم لهم نظير مرورهم منها .

وكانت قلعة المسلمين الحقيقية فى (فراكسينتوم) بجنوبى فرنسا هى مركزهم الذى منه يقومون بغزواتهم فى البلاد والأقاليم المجاورة حتى أصبحوا سادة منطقة جبال الألب ، والحدود بين فرنسا وإيطاليا وسويسره ومن ممرات الألب هاجموا سويسره فوصلوا إلى شواطىء بحيرة جنيف عام ٣٢٥ — ٩٤٦ م وكذلك إلى مناطق أعالى نهر الراين .

(٣)

غزو المسلمين لأوربا

(فرنسا وشمال إيطاليا وسويسرا)

تقدم العرب من الأندلس إلى جنوب فرنسا وغزوا من هناك شمال إيطاليا وسويسرا حتى سيطروا زمنا على قسم كبير من وسط أوربا يمتد من شاطىء نيس حتى بحيرة كونستانس . ومن الرون إلى جبال الجورة ولومباردية .

سيطر العرب على هذه المنطقة من وسط أوربا حوالى عام ١٠٥٠م وأخرجوا من أوربا حوالى عام ١٠٥٠م

بدأت غزوات المسلمين باحتلال ساحل بروفانس . إن عشرين جنديا ركبوا السفن من الأندلس ونزلوا ليلا على الشاطىء واحتلوا قرية هناك ثم أرسلوا يطلبون نجده فاستطاعوا فى مدة قصيرة أن يسيطروا على الساحل وما حلت سنة ٩٠٦م حتى كان المسلمون قد سيطروا على دوفينى ووصلوا إلى حدود بيد مونت .

وباحتلال المسلمين لهذه المنطقة قطعوا الطريق بين فرنسا وإيطاليا حتى أنهم فى عام ٩١١م سيطرو على ممرات الأندلس .

واستمر المسلمون فى تقدمهم فوصلوا إلى بحيرة جنيف (بحيرة ليمان) وجبال الجورة وكان اسم الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث (٩٦١)م يبعث الرعب فى نفوس أهل أوربا .

وتوقف الجيش الإسلامى فترة عن التقدم ، ثم عاد المسلمون إلى غزواتهم فى أوربا فاحتلوا ميناء طولون عام ٩٤٠م

وسيطروا على منطقة نيس ثم احتلوا جرينوبل وسهلها الخصب وأقام المسلمون فى المنطقة قلاعا حصينة منها يرسلون الغزاة وإليها يلوذون إذا دهمهم الخطر .

ثم سيطر المسلمون على سويسرا ووصلوا إلى بحيرة كونستانس ، ثم انسحبوا منها .

ثم بدأ النفوذ الإسلامى بعد ٩٦١م يتراجع فى أوربا .

وبقيت قلعة فراكسينت فى يد المسلمين ثمانين عاما .

ثم أقض مضاجع الفرنسيين المنصور ابن أبى عامر .

ولم يترك العرب آثاراً وراءهم ، وخير ما قدموه فى ميدان العلوم والآداب من ترجمات الكتب اليونان واللاتينية ومهارتهم فى الطب الذى بلغ من مهارتهم فيه أن أمراء أوربا ونبلائها كانوا يأتون للعلاج إلى الأندلس ، ويدرسون على علمائها .

وقد درس فيها الراهب الذى أصبح من بعد البابا سلفستر الثانى وكانت العملة الأندلسية هى العملة المستعملة فى فرنسا .

الدكتور محمود السيمرة

(٤)

البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية إسلامية

يرجع الفضل الأكبر فى غزو البحر الأبيض إلى بنى أمية خصوصاً فى عهد معاوية بن أبى سفيان والقائد عبد الله بن أبى سرح فهما اللذان أذلا الأساطيل الرومانية وأنشآ أول بحيرة إسلاميه .

كانت جزيرة قبرص معقلا للبحرية الرومانية وكان الأسطول الرومانى يناوش شواطىء سوريا حينا بعد حين ، ويقض مضجع معاوية وهو واليها من قبل عمر بن الخطاب فاستأذن معاوية الخليفة فى غزو قبرص فلم يأذن له جريا على عادته . ومن الجانب الاخر كان الأسطول الرومانى ينقض على مدينة الاسكندرية ويثيرها وقد استولى على المدينة وطرد المسلمين منها بعد فتحها بقليل ، ولكن عمرو تمكن من استرجاعها ، ثم استولى الرومان عليها بعد ذلك بعام واحد وكان الحاكم إذ ذاك هو ابن إلى السرح الذى عجز عن القيام بعمل حربى يسترد به المدينة أو يمنع انتشار الروم فيها ، ودعا ذلك كله إلى التفكير فى إنشاء أسطول يرد عدوان الرومان أو يوقف هجومهم المتكرر على الشواطىء الإسلامية ونشأ أول أسطول إسلامى ، وكان فى عكا دار صناعة كاملة ، وركب معاوية البحر واتجه من عكا قبل الجزيرة فارتاع الرومان وتقدموا إلى معاوية يطلبون الصلح ، ودفع الجزية (سبعة آلاف ومائتى دينار كل عام) وأمن المسلمون الغارات البحرية .

وظل الأسطول ينمو وظلت الجزر تتوالى إلى حوزة المسلمين قبرص ثم ارواد وفى سنة ثلاث وثلاثين كانت للمسلمين سفن حول قبرص عددها خمسمائة سفينة عدا ما كان فى عكا وصور ، ومصر ، ونزل قبرص اثنا عشر ألفا من المسلمين بنو المساجد وعلموا الناس الإسلام وقرأوهم القرآن وفى عام ٣٤هـ (٦٥٥) أعد الرومان حملتهم البحرية ذات الصوارى بقيادة ابن الامبراطور هرقل واستطاع المسلمون تدمير نحو خمسمائة سفينة رومانية على شاطىء لكيا وحاصرت السفن الامبراطور المغامر .

وقد قضت هذه الموقعة على قوة الروم البحرية وأذلت كبرياءهم .

دكتور عبد الجليل شلبي

(٢)

بينما كان الرسول يتأهب لفتح مكة أرسل بعثا من المسلمين يستولى على مؤته فى الشمال الغربى لشبه الجزيرة على الباب الجنوبى للشام وكان الرسول يقدر أهمية هذه الحملة فجعل عليها ثلاثة من أصحابه هم :

زيد بن حارثة ، جعفر بن أبى طالب ، عبد الله بن رواحة .

وقد استشهد القادة الثلاثة ، ولم يستطع بقية الجيش الانسحاب إلا بفضل خالد بن الوليد .

وكان هذا أول لقاء بين الاسلام وعالم البحر المتوسط ، هذا يدرك على اتجاه نظر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الشام فى نفس الوقت الذى كان يمهد لفتح مكة .

وكانت غزوة تبوك ختام غزوات الرسول(٩) هـ — ٦٣٠م عظيمة الدلالة على اتجاه التوسع الإسلامى نحو الشمال والسير برآية الإسلام إلى هذا الطريق .

قرر الرسول قبيل وفاته أن يسير بعث آخر نحو الشام جعل دليه ابن زيد بن حارثة (أسامة) الذى استشهد فى مؤته ، وتوفى الرسول والبعث على أهبة المسير ، وكان أول ما بدا به أبو بكر عقب توليه الخلافة : انقاذ بعث أسامة .

اختصر أسامة بعثه فلم يزد على أربعين يوما أغار على بعض قبائل قضاعة الضاربة فى جنوب الشام .

وبعد الفراغ من حروب الردة مباشرة بدأ أبو بكر فتوحه الكبرى وكان همه موجها نحو الشام .

فى صفر ١٢ هـ سارت نحو الشام أربع جيوش (٢٤ ألف مقاتل) على رأسها أربعة من خيرة القادة :

أبو عبيدة ، عمرو بن العاص ، شرحبيل بن حسنه ، يزيد ابن أبي سفيان .

وكان أبا بكر قد سير خالد بن الوليد قبل ذلك افتتح العراق وأمر خالد بالمسير إلى الشام بنصف من معه.

وسار وتولى قيادة الفتوح فيه .

واستطاع المسلمون أن يهزموا قوات البيزنطيين فى موقعه اليرموك الحاسمة وتم فتح الشام كله بعد ذلك خـــلال ١٣ - ١٥ ﻫ ووصلت قوات المسلمين إلى إيطاليا عاصمة الشام أيام البيزنطيين واحتلتها ونقلت العاصمة إلى دمشق.

وبفتح الشام وصلت الدولة الإسلامية إلى البحر المتوسط .

وصارت إلى الإسلام كل الموانى والمراكز التجارية على الساحل الشمالى من انطاكيا إلى عسقلان بما فيها من دور صناعة ومراكز تجارية وسفن وملاحة ورابئة .

ثم تم فتح فلسطين (عمرو بن العاص) وخف لفتح مصر ٢٢ﻫ ثم سار عبد الله بن سعد بن إلى سرح ففتح أفريقيا وهو ما يعرف اليوم بتونس ومضى المسلمون يسلكون فتح المغرب فى شجاعة واستبسال حتى وصلوا ٩١ ﻫ ٧٠٩م إلى طنجة وأشرفوا على المحيط الأطلسى :

ثم عبد المسلمون الزقاق بعبادة طارق عن زياد ثم موسى بن نصير ويملكسجون شبه الجزيرة الايبدبرية كله فى نحو عامين . ثم يسيطرون إلى ماوراء جبال البيرنات المعروف بالبرانس ويفتتحون جنوب فرنسا إلى شواطىء نهر الرون ثم يهجون إلى الشمال مزه أخرى حتى يصلوا إلى سانس على نحو ٧٠ كيلوا مترا جنوبى باريس .

ولم يتوقف هذا التدفق العنيف إلا بعد موقفه ببلاد الشهداء فيما بين تور وبواتيه عام ١١٤ ٧٣٢ .

واستمر المسلمون بعد ذلك أجيوش فرنسا متخذين أربونة قاعدة لهم فلم يخرج عن أيديهم إلا بعد ذلك بسبعين سنة .

وكان موسى بن نصير يزمع مواصلة الفتوح عبرا وربا حتى يصل إلى القسطنطينية ويفتحها من الغرب ، ثمانية آلاف كيلو متر من المدينة المنورة إلى ضفاف الرون وثمانية آلاف أخرى فى القسطنطينية .

ولكن الوليد استهول الأمر وخاف على المسلمين مغبة هذا الاستطراد الشامخ ، وقد كلفتهم هذه الفتوح ألوفا بعد الوف من الشهداء .

لأن من الاستقرار والتنظيم وتعريب الناس وإدخالهم فى الإسلام جاوز العرب فى هذه الوثبة الأولى كل حد لطاقات البشر .

لم يعد البحر الأبيض بحيرة رومانية بل بحيرة إسلامية إلى معاوية أبى سفيان يرجع الفضل فى عناية الدولة الإسلامية بشئون البحر الأبيض واجتهادها فى إدخاله فى صورة الأسبق .

اهتم معاوية بسواحل الشام وشئون البحر ، بل من اهتمامه بذلك أن يحتم الخروج بنفسه لفتح قبرص بعد أن رفض الخليفة عثمان الأذن له فى فتحها إلا على هذا الشرط وقد فتح معاوية قبرص بنفسه وأسكنها المسلمين قال البلاذرى أن المسلمين لم يركبوا بحر الروم قبلها .

على المسلمون على تملك الشواطىء وتحصينها وتحديد صناعة بناء السفن للحماية لا للصرف .

كسب عبد الله بن سعد والى مصر أول معركة بحيرة كبرى خاضها المسلمون هى معركة ذات الصوارى ٣٤ ﻫ ٦٥٥ .

يعتبر من المواقع الحاسمة فى تاريخ البحر المتوسط لأنها قضت على الأسطول البيزنطى وجعلت العرب سادة الحوض الشرقى .

حملات كبرى على القسطنطينية : التى لم تفتح إلا بعد تسعة قرون على يد محمد الفاتح وبعد انتهاء الدولة الأموية وفى عصر الدولة العباسية انتقل النشاط البحرى إلى وسط البحر المتوسط وغربه حيث قامت بعبئه دول المغرب والأندلس.

الاغالبه الذين فتحوا صقلية ابتداء من ٢١٢هـ (٨٣٧م) فتحها الفقيه المجاهد القاضى أسد بن الفرات .

أهل صقلية المسلمين هم الذين فتحوا جنوب إيطاليا وجعلوا بعضاً من بلادها بلاداً إسلامية نصف قرن من الزمان وهم الذين صمدوا للأساطيل جنوب وبيره وابتدعوا أنها سيادة الحوض الأوسط للبحر .

أنشأ المغاربة الموانى العامرة على شاطىء الأندلس الغربى مرسيه ، والحرية وبجايه ومالقه ودانته وعبروا إلى المغرب وأنشأو على سواحله موانى لاتزال باقية إلى اليوم من أمثال تلمسان ووهران وبونه .

عمر بنو أمية جزر البليار التى كانت تسمى بالجزائر الشرقية وساروا البحر الغربى فظل بحيرة إسلامية زهاء ثلاثة قرون .

(٣)

. وعمل الأتراك العثمانين فى البحر الأبيض وتمكنوا من احتلال أسيه الصغرى ثم عبروا البحر وغزوا القسطنطينية وأدخلوها فى بلاد الإسلام .

أصبحت الدولة العثمانية دولة بحرية بحكم موقعها وامتداد سلطانها على كل بلاد الحوض الشرقى للبحر الأبيض وكانت أساطيلها أيام محمد الفاتح ، سليم الاول ، سليمان القانونى أكبر أساطيل هذا البحر وأعظمها .

ظهر من بين رجال البحر : عروج وأخوه خير الدين الملقب ببارباروسا واسحق الأصغر ، هؤلاء الإخوة هم الذين استولوا على الجزائر

وطردوا منها الأسبان وحالوا بينهم وبين ما كانوا يمهدون له من التوغل فى ذلك البلد الإسلامى المجيد وبعد أن أتموا هذا (عروج وإخوته) ضموا الجزائر إلى إمبراطورية آل عثمان .

وكان عروج مجاهداً شديد البأس وهو الذى تصدى لفرناند الكاثوليكى الأسبانى وأوقف عدوانه على بلاد المسلمين وآخر ما استرجعه ميناء تكسمان ١٥١٧ وقتل ١٥١٨ وهو يحارب الأسبان عند وهداف وخلوه أما أخوه خير الدين فدوخ أساطيل أسبانيا والجمهوريات الإيطالية وهو الذى أنشأ ميناء الجزائر بل غزا مدينة نيس فى فرنسا (١٥٣٨) توفى فى الأستانة ١٥٤٦ كان قد رد عادية النصرانية عن بلاد الإسلام .

ولقد تذكر أسماء أسد الدين دراغوث ، بيرى محى الدين دميس فى كتب الغرب على أنهم قراصنة البحر والحقيقة أنهم تصدوا لعدوان الغرب واوقفوه أما ربابنة البحر الاوربيون (القراصنة) الذين كان ملوك أسبانيا يبعثونهم لغزو بلاد المسلمين ونهبها فهم فى حسابهم فاتحون عظماء . هل الاستيلاء على تونس أو طرابلس أو الجزائر عمل مجيد أما تحريرها فعمل قرصنة .

دكتور حسين مؤنس

(٥)

العرب والملاحة فى المحيط الهندى

يحيط البحر بالجزيرة العربية من الخليج الفارسى إلى البحر الأحمر ، وهذا ماجعلها متصلة بطريقين مهمين من طرق التجارة البحرية . فالخليج العربى يصلها بشواطىء إيران و يجعلها مفتوحة على الشرق الأقصى ، كما كان بالإمكان التصعيد فى دجلة والفرات ، أما البحر الأحمر فيصلها بشواطىء أفريقيا الشرقية والنيل وبه تتصل بالبحر الأحمر .

لم يكن غرب الشمال ذوو اهتمام بالبحر بسبب موقعهم الجغرافى وإنما كانوا يعتمدون على التجارة البرية التى تقوم بها القوافل فتصل خيرات بلاد البحر المتوسط الشرقية إلى الموانى الغربية ومنها تنقل إلى الشرق وتعود محملة بخيرات الشرق .

ومما يؤكد أن عرب الشمال لم يكونوا رجال بحر أن قريشا لم تستطع مطاردة المسلمين الذين فروا إلى الحبشة وقنعت بالانتظار حتى يعودوا كما انتظرت حتى تحطمت سفينة يونانية على الشاطىء فاشتغلت خشبها فى سقف الكعبة . وشعر العرب فى الجاهلية ليس فى إلا إشارة عابرة إلى البحر .

أما شعراء الشواطىء الشرقية من شبه الجزيرة ففى شعرهم صورة حية للبحر والغوص .

وقد كان للفتوحات الإسلامية أثر بين على الطرق البحرية فقد اقتحموا شواطىء الخليج العربى الشرقية ، وسيطروا على البحر الأحمر ، وبهذا ساد الأمن وراجت التجارة وأشرفوا على البحر المتوسط ونقلوا إليهم الشراع المثلث وسيطروا على شواطئه الشرقية والجنوبية والغربية .

وكان معاوية أول من إهتم بانشاء أسطول عربى يقف أمام الأسطول البيزنطى والذى ساعد العرب على أن يكون لهم أسطول فى البحر المتوسط هو أن للأسكندرية ميناء ممتازاً وأحواضا لبناء السفن ومهرة فى صنعها من الأقباط . الطريق الذى سلكه العرب فى تجارتهم مع الشرق الأقصى يمتد من الخليج العربى إلى كانتون . وهذا أطول طريق بحرى استعمله الإنسان على نحو منتظم قبل التوسع الأوروبى فى القرن ١٦ .

وكان لانتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين أثر بالغ فى تنشيط التجارة فى هذا الطريق .

وكانت السفن المتوجهة إلى الصين تترك الخليج العربى قبل أن تشتد عواصفه (فى سبتمبر واكتوبر) .

وتعبر المحيط من مسقط إلى ساحل ماليبار مع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية كما تفعل اليوم .

وبعد قضاء الصيف فى كانتون تعود السفن مع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية إلى مضيق ملكا فيما بين أكتوبر وديسمبر وتعبر خليج البنغال ثانية فى يناير ورحلة الذهاب والعودة معاً تستغرق عاماً ونصف عام وكان الرجال يقضون الصيف بين أهليهم قبل الرحلة التالية .

أما السفن التى تترك البحر الأحمر إلى الشرق الأقصى فقد كانت عدن ميناءها الأساسى وخصائص السفن العربية فى القرون الوسطى أنها كانت ألواحا تخاط معا ولا تدق بالمسامير وإن الشراع فيها كان مثلثا يمتد على طوال السفينة، وتختلف عن السفن الحديثة فى أنها كانت حادة المقدمة والمؤخرة .

فى سنة ١٤٩٨ وصل الملاح البرتغالى فاسكودى جاما إلى ملندى بشرق أفريقيا وأخذ يبحث عن دليل يقوده إلى الهند فوجد ذلك الملاح العربى الشهير شهاب الدين أحمد بن ماجد الذى كان قد وضع دليلا بحريا ممتازا ولم يكن ليث البحر أحمد بن ماجد يعلم أنه بهذا قد ساعد فى على القضاء على الملاحة العربية فى المحيط الهندى ذلك لأن هذه الحملة البرتغالية فتحت الطريق أمام الأوربيين لجاءوا بسفنهم التى تسير بالبخار والزيت والتى لم يستطع العرب منافستها .

وما زالت سفن شرق الجزيرة العربية تبحر إلى الهند .

جورج حورانى

(٦)

الإسلام فى ارخبيل الملايو

أهم الجزر الملايو وسومطرة وجاوة وسليبس وبورينو ومولوكاس فضلا عن جزر الفيلبين التى تشتمل وحدها على ألف ومائتى جزيرة أشهرها لوزون فى الشمال ومنيدا فى الجنوب .

ويعد تجار جنوب الجزيرة العربية (الحضارية) أقدم من وطىء هذه المنطقة قد كان قدومهم للتجارة وللاستيطان نظرا لطبيعة أرضهم القاحلة كانت تدفعهم إلى خوض عباب المحيط الهندى والبحث عن أبواب جديدة للرزق .

وكانت مراكبهم تخرج من خليج عمان وساحل حضرموت إلى المحيط الهندى فى الربيع ، وفى الخريف العودة وذلك فى إطار الرياح الموسمية .

وقد تمكن العرب بالرغم من منافسة الرومان والفرس فى نهاية القرن الخامس إلى السابع من أن يصبحوا سادة التجارة دون منازع بين مصر وإيران والهند من جهة ومن الهند وشرق وصور شرقى آسيا من جهة أخرى ، وذلك منذ القرن التاسع حتى قدوم البرتغاليين فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى .

وكانت موانى سيراف (على الخليج العربى) وعمان من أكبر موانى الإسلام وكانت عدن نقطة ارتكاز التجارة بين الهند والصين ومصر حتى أطلق عليها « دهليز الصين » .

وقد حمل التجار المسلمون الإسلام إلى الصين .

وصل الإسلام على أيدى التجار إلى هذه المناطق منذ القرن الثامن الميلادى على الأرجح ، وتدل المصادر التاريخية على ازدياد ملحوظ فى التجارة العربية مع الصين من طريق سيلار فى القرنين التاليين لظهور الإسلام .

وكان الوصول إلى كانتون : منطلقا لدخول بعض الوثنيين فى الإسلام .

كان على رأس الجالية الإسلامية فى كانتون رئيس مسلم يعينه امبراطور الصين وكان يقضى بين أفراد الجالية بأحكام الشريعة .

وقد تعرف العرب بشعوب ماليزيا وغيرها من شعوب الشرق الأقصى .

ومن أهم المصادر التى سجلت حالة الملاحة فى المحيط الهندى :

١ — ما كتبه أحد التجار العرب (سليمان ٨٥١ م) سماه : أخبار التجار المسلمين عن الطريق البحرى من سيراف إلى كانتون .

٢ — ما كتبه أبو زيد السيرافى ٨٧٧ هـ حولى ٩١٥ م

أول من قدم معلومات مفصلة عن المنطقة .

(هذه المادة التى استفادت منها كتابات السندباد البحرى وقصص ألف ليلة)

وقد إهتم بكتابات السيرانى كثير من المستشرقين .

٣ — المسعودى فى كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر :

حيث قدم معلومات مفيدة عن المحيط الهندى :

فذكر المسعودى أن مدينة كيرا فى ملكا (موضع سنغافورة) اليوم هى النصف من طريق الهند وإليها تنتهى مراكب أهل الإسلام من السرافيين والعثمانيين

كما أشار إلى بلاد الجاوى والسلطنة الهندوكية التى كانت تحكم بعض أجزائها.

الجغرافى الإدريسى : أول من سمى باسم المالين أحد الشعوب الساكنة فى جاوه وتكشف كتابات أبى الفداء وابن خرداذبه تزايدا ملحوظا فى معرفة العرب بتلك البلاد .

وبعد سقوط الدولة العباسية على أيدى المغول ازداد انتشار الإسلام فى الشرق الأقصى ١٢٥٨ م ٦٥٦ ﻫ .

فقد استمر التجار المسلمون يتحكمون فى الوساطة التجارية بين أوربا والشرق الأقصى كما ظهرت ردود فعل قوية تمثلت فى الحماس الزائد لنشر الدعوة الإسلامية درءاً للصدع السياسى الذى أصاب العالم الإسلامى

وظهر ذلك فى اعتناق بعض مقاطعات الهنـــد الاسلامية وانتعاش فى المراكز التجاريه الإســـلامية التى قامت فى أجزاء من سواحل المليار والـكرومانديل وشمال سومطرة التى كانت عطا هاما التجار المسلمين.

• — أشار مركوبولو فى رحلة إلى الشرق الأقصى ١٢٩٢ م أن سومطره وغالباً سكانها من الوثنيين قد اعتنق الإسلام منها جماعة فى الشمال الشرقى .
ولم تمض سنوات على رحلة ماركوبولو حتى أصبح حاكم مقاطعة باساى مسلماً .

٦ — رحلة ابن بطوطة : النصف الأول من القرن الحادى عشر :
زارسلطنة جاوة وملكها الملك الظاهر وقال أن أهل بلاده شافعية محبون الجهاد.
وقد دخل الاسلام هذه المناطق دخولا سلمياً .

١ — العرب التجار استمروا عنصراً فعالا فى نشر العقيدة الإسلامية .

٢ — فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر بدأت تظهر المجتمعات الإسلامية والامارات الإسلامية بعد إمارة دهلى فى منطقة الـكجرات .

× تأثير مسلمى الهند فى شعوب جاوة وسومطره .

ما ذكره توماس ارنولد فى كتابه الدعوة إلى الإسلام .

الإشارة إلى أن معظم السلطات الإسلامية اسسها جماعات من الأشراف.
الظاهرة التى استرعت انتباه الباحثين هى انتشار الأمية فى تلك الشعوب بعد عنف وبعد اجتهاد فى الدعوه فى أكثر الأحيان .

لقد كانت القدوة الحسنة كفيلة وحدها بنشر الإسلام وهناك ظاهرة انتشار الطرق الصوفية والفكر الصوفى: القادرية ، والشاطرية ، والنقشبندية ، والشاذلية والسمانية وقد احتل الدعاة الصوفية مركزا هاما فى الحياة الاجتماعية .

فى سومطره (باساى) كانت أولى السلطنات فى القرن ١٣ ، تشكل القوة التى وصل إليها المسلمون بالدرجه التى أتاحت لهم تأسيس سلطة حاكمة . ومن باساى انتقل الإسلام إلى ملت التى أصبحت موئلا للعلماء والفقهاء . ثم انتقل الإسلام إلى جاوة .

وفى النصف الثانى من القرن ١٥ دارت رحى الحرب بين الأمراء المحليين وسقطت البوذية وتدهورت ١٤٧٥م واحرز الإسلام انتشارا كبيرا بين الأمراء والسكان .

وانتقل الإسلام إلى بورنيو — ومن بورنيو انتشر الإسلام فى الفيليبين . حيث أخذت غالبية السكان تتحول عن الديانتين البوذية والهندوكية حيث قدم الإسلام للشعوب آمالا جديدة .

بعد أن فشلت البودية والهندوكية فى تلبية المتطلبات المتزايدة للسكان إذ أن الإسلام أعطى الفرد العادى إحساساً بقيمة ذاته كعضو فى المجتمع بينما كان هذا الفرد فى مفهوم العقائد الهندوكية أقل قيمة من أبناء الطبقات العليا كما ارتفع المسلمون بفضل الدين الجديد فوق مستوى الولاءات المحلية والقبلية .

أما الخطر الذى واجه المسلمين فهو خطر وصول البرتغاليين الذين استفادوا من الخرائط والمرشدات الملاحية التى وضعها الملاحون المسلمون (١٤٩٢) .

فما كاد البرتغاليون يسيطرون على طريق الهند حتى بدأوا فى إحراق السفن الإسلامية والكيد ببحارتها ومنازعة المسلمين سيادتهم التجارية ثم هزمت القوى الإسلام فى معركة ديو ١٥٠٩ التى استمرت عدة قرون وبها انتهت سيطرة الملاحة الإسلامية فى المحيط الهندى .

أسقط البوكرك ١٥١١ سلطة ملقا الإسلامية وإن كان ذلك لم يؤثر فى السلطات الإسلامية المجاورة وإنما ظهر تحد وردود فعل عنيفة ضد القوى الصليبية الوافدة ، إذ نقل التجار المسلمين مركزهم من ملقا إلى اتجيه فى شمال

سومطرة . وغدت تلك السلطة مركزا للدعوة الإسلامية وللتجار المسلمين وازدهرت فى مواجهة ملقا التى أصبحت من قلاع البرتغاليين .

وقد أشارت كتابات المؤرخين المسلمين للغزو البرتغالى وأعمال القسوة والعنف التى ارتكبها البرتغاليون فى بحار الشرق .

× تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين .

للشيخ زين الدين أحمد مسلمى المليبار

الغزو البرتغالى للشرق الإسلامى كان يحمل مع تلك الروح الصليبية التى كانت امتدادا للحروب الدينية بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس .

وفى الفيليبين واجه الإسلام تحد جديداً هو الأسبان الذين استولوا على تلك الجزر ، بعد أن نجح الملاح البرتغالى (ماجلان) فى اكتشافها (الفيلبين نسبة إلى فيليب الثانى حاكم أسبانيا فى عهد ١٥٦٨) وبذلك انحصر النفوذ الإسلامى فى ارخبيل سولو وجزء من جزيرة مندنا وانقسمت جزر الفيلبين بدورها إلى ثلاثة أقسام : مسيحى ، الكاثوليك ، المالذون .

هؤلاء المالذيون الوثنيون الذين وقفوا حاجزا بين الإسلام والنصرانية أما المسلمون فى الجنوب فهم الذين أطلق عليهم اسم الموردس . ومنذ استيلاء الأسبان على جزر الفيلبين وعملياتهم التبشيرية تتوالى وقد عجزوا عن تنصير المقاطعات الجنوبية .

واتصفت الحروب بين المسلمين والأسبانيين فى الفيلبين بما اتصفت به مع البرتغاليين بالروح الصليبية والعداء والكراهية .

وكان دخول هولنده فى المعارك الاستعمارية فى أواخر القرن السادس عشر الميلادى ، وتم إنشاء شركة الهند الشرقية ١٥٩٤ لتحل محل البرتغاليين ومع تعاقب الاستعمار الغربى البرتغاليون والأسبانيون والهولنديون والأمريكيون فإن جذور الإسلام لم تقتلع وإنما ازددت قوة لظهور أجيال جديدة من الفقهاء والدعاة المحليين (مائة مليون مسلم) فى الوقت الحاضر .

(العربى ١٤٨)　　دكتور جمال زكريا قاسم

(٧)

الكشف عن أرض جديدة

محاولتان للمسلمين للكشف عن أرض جديدة عبر أمواج المحيط الأطلسي: وردت الأولى في كتاب (نزهة المشتاق) للشريف الادريسي والأخرى في (مسالك الابصار) لابن فضل الله العمري وصبح الأعشى للقلقشندي) .

وتتلخص المحاولة الاولى فى أن ثمانية من الشباب المسلم الذين كانوايعيشون فى ثغر اشبونة فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) أى قبل مغامرة كوستوفر كولمبس بنحو خمسة قرون دفعت بهم مطامحهم إلى إعداد سفينة حملوها بالزاد ، واقتحموا بها البحر وأخذوا يطاردون بها آفاق المحيط نحو خمسة وثلاثين يوما حتى رسوا على شاطىء مسكون فاعتقلهم بعض الناس بضعة أيام ثم اخلوا سبيلهم وأعادوهم إلى سفينتهم مكرمين فعادوا إلى إلى وطنهم حيث قصوا مشاهداتهم المثيرة التى انفرد الشريف الادريسى بتسجيلها والتى أصبح ما ورد بها من وصف الحيوان والنبات موضعا للدراسات استدل منها المحققون الجغرافيون أن هؤلاء الفتية المغروورين كما سماهم الشريف الادريسى قد أدركوا إحدى جزائر برموده أو الانتيل أو إحدى موانى المكسيك .

أما المحاولة الثانية فقد أقدم عليها مسلمو غرب إفريقيا فى نحو القرن السادس الهجرى (١٣ م) عندما زود السلطان محمد قاو سلطان غانة بضع مئات من سفنه بالزاد والماء وكلف رجاله بأن يضربوا فى عرض المحيط غربا حتى يدركوا نهايته فغابت السفن زمنا طويلا ثم عادت إحداها أخيرا فقص ربانها مالقى فى رحلته الشاقة من أهوال البحر ، إلا أن السلطان أبى أن تبوء

فكرته هذه بالفشل فأعد سفنا أخرى أبحر على رأسها بنفسه ولم تلبث أن انقطعت أخبار تلك الرحلة الجريئة ولم تعرف شيء عن مصيرها .

وقد قام الأب انستاس مارى الكرملى بدراسة لهذا الموضوع فأشار إلى أن همم العرب قد قذفت ببعض ملاحيهم المغامرين إلى تلك البقاع منذ أزمان قديمة وأنهم كانوا يبحرون إليها من بعض جزر بحر المانش ، التى كانوا يتعاملون معها مستعينين فى أبحارهم بتيار الخليج الذى يشاع أنه لم يكتشف قبل أوائل القرن السادس عشر .

وقد تركوا أثرا ظاهرا فى حضارة تلك البلاد .

وقد كانت فكرة الفتية المغررين حافزا لكولمبس إلى هذه المغامرة .

(إبراهيم محمد الفحام)

(٨)

المسلمون فى صقلية : أسد ابن الفرات

فى ربيع الأول ٢١٢ هـ أقلعت من مدينة سوسه على البر الإفريقى مائة مركب إسلامية بقيادة أسد ابن الفرات متجهة إلى صقلية . وقد ثبتت قدم المسلمين فى الجزيرة بعد دخولهم إلى بلرم ٢١٦ هـ واتخذوها قاعدة لهم ، وظل المسلمون بها إلى ٤٤٤ هـ عندما احتلها النورمان .

تقدمت الزراعة تحت الحكم الإسلامى وأدخل المسلمون إليها مزروعات لم تكن معروفة من قبل (كالليمون والبرتقال والقصب والأرز والنخيل والبردى) كما انتعشت الصناعات وخاصة صناعة السفن والكتان الذى يصفه ابن حوقل فيقول أن نبات الكتان فيها لانظير له جودة ورخصا وأدخل العرب إلى الجزيرة الخيول العربية التى طمست شهرتها الخيول المحلية كما جاءوا إليها بالجمل ولكنه انقرض منها .

وانتعشت فى هذه الفترة الثقافة الإسلامية فأصبحت (بلرم) تذكر مع القاهرة والقيروان وقرطبة وأخذ العلماء المسلمون يهاجرون إلى الجزيرة من أطراف العالم الإسلامى أو منها إلى الأندلس وشمال إفريقية ومصر .

ويذكر ابن حوقل أن مما استرعى انتباهه فى الجزيرة كثرة المساجد وكثرة المعلمين حتى يذكر أن فى بلرم وحدها مايزيد على مائتى مسجد ومالايقل عن ثلاثمائة معلم .

الدكتور محمود السمره

(٨)

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الباب الخامس

مواجهة الغزو الخارجي

لابد أن يستوعب الشباب المسلم اليوم صفحات ذلك التاريخ فهى الخلفية الحقيقية لكل مايحدث الآن ويقع ، والتاريخ خيط ممتد ، على قوائمه الأساسية ، ولما كان التاريخ لايعيد نفسه حقيقة ، فى وقائعه وأحداثه ولكنه يعود فى غاياته ومطامعه وأهوائه فإن خصومه الغرب والقوى الطامعة لاتزال تفرز مرة بعد مرة أسلوبا جديدا فى الغزو والسيطرة على بلاد المسلمين .

والمسلمون يعرفون الطريق الصحيح : هو طريق الإسلام وفريضة الجهاد الماضية إلى يوم القيامة هى سبيل النصر وأسلوب العيش الإسلامى هو المنطلق والطريق .

« إن السلاح الوحيد الذى ينبغى أن يدخل معركة المصير ويحارب به فى مواجهة التحدى الذى يواجه المسلمين اليوم أزاء القوتين الطامعتين وأزاء الصهيونية العالمية ، هو الإسلام : عقيدة وتربية وجهاداً فى سبيل الله وتحصين الأمة بعقيدتها عن كفاحها ، ودرع صمودها ، وهو السلاح الذى تخشى إسرائيل دخوله المعركة ولا تخفى الجهد بذلك وأن الأمه ستظل تتردى فى مهاوى الهزائم والنكبات مادامت تأبى أن تطلب النصر من الله ، وتعد للنصر عدته وإن الذين يحولون بين الأمة وعقيدتها هم جنود جيش العدو » .

الفصل الأول

مواجهة التتار

(١) عندما سقطت بغداد فى أيدى التتار ٦٥٦ هـ وتسامع الناس بأخبارهم فى ديار حلب والشام ومصر وكانت هذه الديار مقسمة دولا صغيرة متنابذة متعادية متواثبة يحكمها بقايا من أمراء بنى أيوب ، بينما كانت مصر قد تأثل فيها للماليك دولة عزيزة وسلطة مجيدة ، هنالك تلاقى حاكمى دمشق والقاهرة على العمل والاتحاد .

وكان السلطان قطز قد قاد امراءه وجنوده بمقاد الحزم وذكرهم بواجبهم المقدس حيال الاسلام وأنهم أن أحجموا بادوا أن أقدموا سادوا .

فلما جاءه رسل هولاكو قتلهم وعلق رءوسهم على باب زويلة وأعلن فى الناس الجهاد والخروج فى سبيل الله دفاعا عن النفس والعرض والدين .

وفى عين جالوت التقى الجمعان فى معركة حامية .

وصرخ قطز « واسلاماه » فدوى صوته فى آذان جنوده وكروا حتى قتل قائدهم كتبغا وولت فلولهم لا تلوى على شىء ، فتبعهم المسلمون إلى بيسان فدرات رحى حرب جديدة دحر فيها التتار وأسلموا للفرار ، تاركين وراءهم قتلى قد ضاق بها القضاء .

(محمود رزق سليم)

(٢) استطاع الملك المظفر قطز أن يبطل أسطوره الجنس المغولى الذى لا يغلب فهزم المغمول فى عين جالوت هزيمة لم يتوقعها أحد ، وكان انتصاراً حاسماً للاســلام بالنسبة للنتائج البعيدة التى أدى إليها هــذا النصر

فقد أوقف ذلك الزحف المغولى الذى ظل يتقدم لايقف أمامه شىء ، والذى انهارت أمامه جميع القوى ، حتى خيل للناس أنه لن يتوقف ، فبعد أن سقطت الخلافة فى بغداد كانت مصر هدفه بعد الشام ، فقادت مصر المقاومة الباسلة ، والصمود الرائع الذى أعده لهم المظفر ، فباءوا بالهزيمة الساحقة .

(٣) فى ٦٥٦هـ ١٢٥٨م قتل التتار آخر الخلفاء العباسيين المعتصم بالله وقتلوا معه كثيرا من أهل بغداد وأحرقوا المدينة وأزالوا معالم الإسلام ، ووضعوا علوم سبعة قرون فى أعماق نهر دجلة ، بزعامة هولاكو وقومه الذى تسلطوا على تدمير الجزء المضىء من العالم وهو عالم الحضارة الإسلامية .

وايقظ المصير المشترك مصر والشام .

وأحيت الخلافة فى مصر (٦٥٩هـ - ١٢٦٠م) واستقبل الظاهر بيبرس الخليفة وبايعه العلماء وقال عز الدين عبد السلام للملك المظفر : بيعوا كل مالديكم من النفائس وتساووا مع العامة .

وفى أبان محنة المسلمين بالتتار ظهر أحمد عبد الحليم بن تيمية الذى خرج من الشام ٧٠٠هـ إلى مصر ليحث السلطان إلى متابعة الجهاد ضد التتار ويستنهضه للخروج إلى الشام ، وقد ألقى بنفسه فى غمرات القتال بحماية قومه ، فى موقعة شقحب ٧٠٢هـ ١٣٠٢ التى تم فيها النصر الساحق للمسلمين .

(٤) لم تنفصم الرابطة العربية الإسلامية إلا حينما هبت جموع التتار فى آسيا الوسطى فى بداية القرن الثالث عشر الميلادى واجتاحت شرق العالم الإسلامى ، وقضت على الدولة العباسية واستمرت فى زحفها حتى الشام ، واستمرت هذه العاصفة حتى ١٢٦٠م وحتى استطاع الجيش المصرى أن يرد هذا السيل القوى المدمر فى موقعة عين جالوت بفلسطين وأن يحمى

العروبة والإسلام وأن ينقذ المدنية الإسلامية من الانهيار النهائى بل يستطيع أن نقول أن انتصار الجيش المصرى فى (عين جالوت) كان نصرا نهائياً .

وكما حدث فى موقعه شالون حينما ردت جحافل الهون ٤٥١م فى عين جالوت لم تنقذ الحضارة الإسلامية وحدها بل انقذت الحضارة البشرية شرقية وغربية .

ذلك أن الفتوح العربية الأولى التى استطاعت حتى أواخر القرن الأول من الهجرة أن تصل إلى حدود السند وإلى أواسط آسيا والتى استطاعت فى الغرب أن تصل إلى شواطىء المحيط الأطلنطى وصحراء أفريقية الكبرى وقد وصلت الفتوح الأولى من القارة الهندية إلى نهر السند .

واستؤنفت الفتوح منذ نهاية القرن العاشر الميلادى على يد فاتحين عدة عدة من الأفغان والتتار وفى مقدمتهم السلطان محمود الغزنوى الذى وصل حدود هضبة الدكان (الدكن) وبدأت الفتوحات الإسلامية التتارية فى القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الإسلامى) وحقق تيمور لنك أعظم توغل فى الهند ، واستطاع بابر حفيد تيمور أن يؤسس الامبراطورية المغولية من أوائل القرن السادس عشر .

(محمد عبد الله عنان)

— كانت سنة ٦٩٩ هـ سنة مهوله على البلاد إذ قصد التتار تحت قيادة قازان الأراضى الشامية ولم يكن هناك بيبرس أو قلاوون لحميها أو ليخلق من الهزيمة نصراً كما حدث قبل ذلك فى عين جالوت أو مرج حمص .

وكان التتار يغزون وهم على دين أبائهم ، أما هذا العام فقد جاءوا تحت اسم سلطانهم محمود وهم يظهرون الإسلام ومعهم المؤذن والقاضى والشيخ والإمام ليؤمهم فى أوقات الصلاة .

جاءوا إلى الشام وقد اختل أمر مصر والشام .

وانضم فريق من أمراء البلاد إليهم فسلموهم الجزء الشمالي من سوريا بغير قتال .

ووصلوا النبك واحتلوا القطيفة وانكفأ جيش مصر والشام إلى البقاع . وبخليك وفتحت دمشق أبوابها عدا قلعتها العتيدة التي أبت أن تستسلم وكان ابن تيمية في التاسع والثلاثين من عمره في حركة دائمة لا يستقر ولا يهدأ .

لم يقبل أن يترك دمشق بغير أمن فذهب مع أعيان البلاد وقابلوا عاهل التتار واحتج عليه قائلا :

أنت تزعم أنك مسلم فلماذا أتيت إلينا غازيا وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت .

واشتد اللجاج بينه وبين قازان وأتوا الوفد بطعام فأكلوا منه إلا ابن تيمية ، فقيل له : ألا تأكل ، فقال كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس :

وطلب إليه عاهل التتار الدعاء فقال في دعائه :

« اللهم أن كان عبدك محمود هذا إنما يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله فانصره وأيده وملكه البلاد والعباد وإن كان قام رياء وسمعه وطلب للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليذل الاسلام وأهله فأخذله وزلزله ودمره وأقطع دابره .

قال هذا وقازان يؤمن على كلامه ، فلما خرج الوفد من حضرة العاهل التترى التفت إليهم بعضهم قائلا : كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك والله لا نصحبك من هنا .

والغريب من أمره بعد هذا أن يتبرك به جنود التتار ويلوذون به فيدخل دمشق وفي ركابه ثلاثمائة منهم .

وكان موقفا شديدا على الناس فتحت فيه السجون وخرج منها الأشرار ينهبون وامتلأت القرى بالجنود وكثرت المصادرات ولاحت الاراجيف والإشاعات ، كل هذا والشيخ لاينفك يرأس الوفود ويفك الأسرى ويواسى المرضى .

وفى يوم من الأيام رحل جند التتار عن البلاد وانسحبوا إلى عقبة (دمر) ومنها غادروا المدينة تاركين فيها أحد الأمراء من الذين انضموا إليهم نائباً عنهم ، كل هذا والقلعة صامدة وابن تيمية يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلوا عليهم آيات الجهاد والرباط .

وأخيرا انكشفت الغمة بقدوم عسكر مصر وفتح لهم باب الفرج مضافا إليه باب النصر وجاء عسكر الشام وعلى رأسه نائب دمشق جمال الدين الأقرم .

وكان دخولهم فى تجمل زائد الوصف ونفحت روح الجهاد فى نفس ابن تيمية نشاطا جعله يختلف عن غيره من شيوخ عصره ، فهو بمجرد عودة عسكر دمشق لايتركهم بل يلازمهم فى تنقلاتهم وفى ركابه خلق من أهـــل حوران ، يدعو إلى الهدى فمر ببعلبك والبقاع وجبال الجرد والكسروان يخطب ويهدى فتاب كثيرون على يديه وحسن معتقدهم وكان كثيرون لا يحرمون ما حرم الله ورسوله . وحينما عاد أمير دمشق وقد رأى عمل الشيخ وفتوته ما رأى أمر لأول مرة أن يتعلم الفقهاء الرمى بالنشاب وأن وأن يستعدوا بتعلم الفروسية وطرق القتال المختلفة ليواجهوا العدو أن حضر ، ولا ريب فى أن الشيخ بدأ فى ذلك الرأى السديد .

وفى مستهل جمادى الاول ٧٠٠ واجه الجنود وثبتهم وقوى جأشهم وطيب قلوبهم ووعدهم بالنصر والظفر على الأعداء وطلب أمير الشام إليه التوجه إلى مصر ليستحث السلطان على المجيء إليهم ، وأقام الشيخ فى قلعة مصر ثمانية أيام ، وقد اجتمع بالسلطان والوزير وأعيان الدولة فأجابوه إلى الخروج وكان مما قال لهم :

، أن كنتم اعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطانا يحوطه ويحميه ، ولو أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم نصره ، وأنتم حكام وسلاطين وأنتم مسئولون عنه وقدم جيش مصر وعلى رأسه ركن الدين بيبرس وزحف التتار من جهتين من الشمال فوصلوا إلى البقاع واحتلوا بعلبك ومن الشرق وصلت طلائعهم القريتين ولما تم الترتيب أخذت كراديس التتار ترحف كقطع الليل والتحم القتال على طول الجبهة، قتالا هائلا رائعا يبعث فى النفوس الآمل فى النصر وبيبرس يسيطر على المعركة بجند مصر والشام ودامت المعركة أربعة أيام أظهرت فن القيادة واختتمت بالنصر الباهر الذى نفخ فيه ابن تيمية من روحه .

(أحمد رمزى)

٦ — كانت المدينة التى اجتاحها المغول ملأى بالعلماء ولكنهم كانوا قابعين فى مدارسهم منكبين على كتبهم ودفاترهم لايعرفون أساليب القتال ولا يحسنون استعمال السلاح ولذلك أدعى الأمراء والحكام أن ليس لهؤلاء شأن فى الجهاد ولا رأى فى سياسة البلاد .

وهذا ماخرج عليه شيخ الإسلام تقى الدين ابن تيمية فى دمشق ، فكتبه جعلها وسيلة لايقاظ الأمة وتلاميذه دربهم على قيادة الشعب يصحب الجيوش فى حروبها ويحرر المقول من أوهامها فأحبه الناس وتعلقوا به وأصبحت كلمته نافذة لدى الحكام والعوام وآراؤه مسموعة فى كل مكان فلما أقبلت موجة جديدة من المغول ٦٩٩ بقيادة قازان نخاف الناس وجفلوا من حلب وحماه ، وبلغ كرى الجمل إلى دمشق مائة درهم وزاد الخوف واشتد الفزع لمــا هزم السلطان عند سليمه وولى هاربا إلى مصر واشتد البلاء وهرب جماعة من أعيان دمشق إلى مصر ، وبقى البر شاغرا ليس فيه حاكم ، خرج ابن تيمية للقاء قازان فقابله عند بلده النبك وكلمه كلاما فيه شدة وعنف مما جعل قازان يعجب بشجاعته فأعطاه فرمانا بالأمان لأهل دمشق فلما دخل المغول دمشق أرسلوا إلى نائب القلعة ليسلمها إليهم وأرســل إليه الشيخ ابن تيمية فيقول له :

لو لم يبق فى القلعة إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك واطاع قائد القلعة أمر الشيخ وظلت القلعة رمز المقاومة واقتدت بها جميع قلاع الشام وكان فى ذلك مصلحة لاهل الشام ، وأمر الشيخ الناس بتعليق السلاح فى دكاكينهم وأن يتدربوا على الرمى وجعل الفقهاء قدوة للناس فقد أخذوا يتدربون على الرمى فى المدارس ويستعدون لقتال العدو ، ورجع قازان إلى العراق وقد أعجزته القلعة . وخرج المحصورون منها للفتك بمن بقى من جيش قازان ومعاقبة من تعاونوا معه .

وفى سنة ٧٠٢ هـ قويت الأخبار بعزم التتار على دخول دمشق فانزعج الناس واشتد خوفهم وشرعوا فى الهروب إلى مصر والكرك والحصون المنيعة ، ووصل التتار إلى حمص وبعلبك وعاثوا فى تلك النواحى وتحدث الناس بالأراجيف والشيخ ابن تيمية قائم ليله ونهاره يشجع الأمراء ويقسم لهم قائلا :

[والله أنكم لمنتصرون] حتى تحالفوا على لقاء العدو ، واستمر يحلف للأمراء والناس : أنكم هذه المرة لمنتصرون ، فيقول له الأمراء — قل إن شاء الله فيقول : إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا .

وخرج الشيخ من المدينة ليلقى السلطان ويحرضه على القتال ، وهو يقسم له : والله أنكم لمنتصرون .

ومازال بالسلطان حتى عزم على لقاء المغول .

فلما التقى الجمعان ترك ابن تيمية جيش السلطان وذهب يحارب تحت لواء أهل الشام قائلا : السنة أن يحارب الرجل تحت راية قومه ، نحن من جيش الشام نقف معهم ، وكان الناس صياما فكان يطوف على الجنود ويحرضهم على أن يفطروا ويأكل أمام الناس .

وانتصر المسلمون يومئذ انتصارا عظيما وهزم المغول هزيمة لم تصبهم هزيمة مثلها

« محمد على العبد »

الملك المظفر قطز قاهر التتار

يجدر بنا أن نتوقف قليلا لمعرفة أسباب انتصار قطز على التتار ، أن كل الحسابات العسكرية تجعل النصر إلى جانب التتار بدون أدنى شك ، ولكن الواقع يناقض كل تلك الحسابات فقد انتصر قطز وانهزم التتار .

فقد كان لقادة التتار تجارب طويلة فى الحروب ولم يكن لقطز وقادته مثل تجارب قادة التتار ولا مايقاربها والقائد المجرب أفضل من القائد غير المجرب قطعا والجيش المجرب أفضل من الجيش الذى لا تجربة له .

وكانت معنويات التتار قاده وجنودا عالية جدا لأنهم تقدموا من نصر إلى نصر ولم تهزم لهم راية من قبل أبدا ، وكانت معنويات قادة قطز وجنوده منهارة وقد خرج أكثر القادة إلى القتال كرها .

وقد انتصر التتار فى حرب الأعصاب فكانوا ينتصرون بالرعب مما يؤثر فى معنويات أعدائهم أسوأ الأثر . والجيش الذى يتحلى بالمعنويات العالية ينتصر على الجيش الذى تكون معنوياته منهارة .

وكانت كفاية جيش التتار متفوقة على كفاية جيش قطز ، فواقا كاسحا، لأن جيش التتار خاض معارك كثيرة ، لذلك كانت تجربته العملية على فنون القتال باهرة إلى أبعد الحدود ،أما جيش قطز فقليل التجربة العملية قليل التدريب

وكان جيش التتار متفوقا على جيش قطز عددا وعددا وقد ازداد تعداد جيش التتار بالذين التحقوا به من الموالين والمرتزقة والصليبيين بعد احتلاله أرض الشام والتفوق العددى والعددى من عوامل إحراز النصر .

وكان جيش التتار يتمتع بمزية فرسانه المتدربين ، وكان تعداد فرسانه كبيرا مما يهسر له سرعة الحركة ، ويؤدى إلى تطبيق حرب الصاعقة التى كانت من سمات التتار .

وكانت مواقع جيش التتار فى (عين جالوت) أفضل من مواقع الجيش

الصحراوى ، لأن تلك المواضع كانت محتلة من التتار قبل وصول الجيش المصرى إلى المنطقة التى كانت تحت سيطرة التتار .

وللأرض أثر عظيم فى إحراز النصر

وكان جيش التتار متفوقا على جيش قطز فى قضاياه الإدارية ، إذ كان يستند على قواعده القريبة فى أرض الشام وهى التى استولى عليها واستثمر خيراتها ، بينما كانت قواعد الجيش المصرى بعيدة عنه لانه كان يعتمد على مصر وحدها فى إعاشته والمسافة بين مصر وعين جالوت طويلة خاصة فى تلك الأيام التى كانت القضايا الإدارية تنقل على الدواب والجمال مخترقة الصحارى والوديان والقفار .

هذا التفوق الساحق الذى بجانب التتار فى سبع مزايا حيوية : التجربة العملية ، والمعنويات العالية ، والكفاية القتالية ، والعدد والعدة وسرعة الحركة ، والأرض والقضايا الإدارية ، هذا التفوق له نتيجة متوقعة واحدة : هى إحراز النصر على الجيش المصرى أسوة بانتصاراتهم الباهرة على الروم والفرس والعرب والأمم الأخرى فى زحفهم المظفر الطويل .

ولكن الواقع أن الجيش المصرى انتصر على جيش التتار فكيف حدث ذلك

أولا : قدم شيوخ مصر وعلى رأسهم الشيخ العز بن عبد السلام إرشاداتهم الدينية لقطز فأخذ بها ونفذها على نفسه وعلى رجاله بكل أمانة وإخلاص . وأمر رجاله بالمعروف ونهاهم عن المنكر فخرج الجيش من مصر تائبا منيبا طاهرا من الذنوب .

وكان على رأس المجاهدين جميع القادرين من شيوخ مصر على السفر وحمل السلاح وتحمل أعباء الجهاد .

ثانياً : قيادة قطز الذى كان يتحلى بإرادة القتال بأجلى مظاهرها ، فكان مصمما على قتال التتار مهما تحمل من مشاق وبذل من تضحيات ولاقى من صعاب .

ولعل إصراره على مهاجمة التتار خارج مصر وعدم بقائه فى مصر واختياره الهجوم دون الدفاع واستبعاده خطة الدفاع المستكن ، هو الذى جعل رجاله قادة وجنودا فى موقف لايؤدى إلا إلى الموت والنصر، مما جعلهم يستقتلون فى الحرب لأنه لم يكن أمامهم فى حالة الهزيمة غير الإبادة والافناء.

أن قطز لم يجاهد ليتولى السلطة بل تولى السلطة من أجل الجهاد .

ثالثاً : إيمان قطز بالله واعتماده عليه ، وإيمان المتطوعين فى جيشه من المجاهدين الصادقـــين الذين خرجوا طلبا الشهادة ، كان له أثر عظيم فى إحراز النصر .أن أثر قطز والمجاهدين معه فى معركة عين جالوت كان عظيما وحين اطـ.أن قطز إلى نصر الله ترجل عن فرسه ومرغ وجهه فى التراب تواضعا وسجد لله شكرا على نصره ، وحمدا لله كثيرا وأثنى عليه ثناءا عاطرا لقد كان انتصار المسلمين فى(عين جالوت) على التتار انتصار عقيدة لاامراء .

لواء : محمد شيب خطاب

الفصل الثانى

مواجهة الصليبيين

استمرت الحروب الصليبية قرنين كاملين لم تتوقف خلالها الحملات الصليبية على بلاد الإسلام (الشام ومصر) وقد استخدمت دول أوربا كل الوسائل فى سبيل هزيمة المسلمين والسيطرة على بيت المقدس ورأس هذه الحملات ملوك أوربا ومولتها الكنيسة وحاولوا الاتفاق مع المغول لمحاصرة الإسلام واستطاعوا السيطرة على القدس وإقامة مجموعة من المستعمرات فى الرها وانطاكية وطرابلس وعكا .

وكانت هذه المستعمرات على اتصال مستمر بالغرب المسيحى الذى حرص على امتدادها بالرجال والنساء والسلاح والمال مما مكنهم من الاحتفاظ بأصولهم وساعدهم على عدم الذوبان فى البيئة الإسلامية وجعل منهم ركيزة لمزيد من الحملات الصليبية التى استمرت طوال قرنين كاملين حتى قضى عليها المماليك بعد أن استرد صلاح الدين بيت المقدس .

(١)

يرجع نجاح الصليبيين فى إقامة مملكة بيت المقدس أواخر القرن الخامس الهجرى (١١ م) أساسا إلى تفرق كلمة المسلمين فى الوقت الذى انطلقت فيه القوات الصليبية نحو الشرق ، وذلك لما أصاب الدولة السلجوقية بعد وفاة ملكشاه من التداعى والانهيار بسبب التنازع على الحكم ونشوب الفتن الداخلية وكانت الدولة الفاطمية قد اقتربت من نهايتها بسبب ضعف الخلفاء وتنازع الوزراء على الحكم .

ويعتبر « عماد الدين زنكى » صاحب اتابكية الموصل والجزيرة واضع

أسس حركة الجهاد ضد الصليبيين التى تقوم على توحيد المسلمين ونبذ ما بينهم من منازعات ثم حشد جهودهم لقتال الصليبيين ساربهم (نور الدين محمود) الذى ورث عنه القسم الغربى من دولته ومقره حلب . ونجح عماد الدين زنكى فى انتزاعه إمارة الرهامن الصليبية فأصبحت مملكته تمتد من الموصل إلى حلب ، ثم اتجه إلى الاستيلاء على دمشق ، ومات زنكى وترك لابنه نور الدين إتمام توحيد القوى الإسلامية ومواصلة الجهادضد الصليبيين ، استولى على إمارة دمشق وجعل عليها — أسد الدين أكبر أمرائه ومقدم عساكره ، يرجع فضل نجم الدين وأسد الدين وصلاح الدين فى فتح مصر والقضاء على الدولة الفاطمية وإعادة مصر إلى المذهب السنى ، ذلك أن ضعف الدولة الفاطمية فى السنوات الأخيرة من حياتها جعل النزاع بين الصليبيين ونور الدين ينتقل إلى مصر فقد تطلع كل منها إلى الاستيلاء عليها لكثرة مواردها وموقعها الاستراتيجى . نور الدين كان يتطلع إلى الاستيلاء عليها لتضييق الخناق على الصليبيين حتى يتمكن من طردهم من الشام بينما كان الصليبيون يحرصون على أن يمنعوا نور الدين من تحقيق هذا الهدف وإن يتخذوا مصر قاعدة لهم فى حروبهم ضد المسلمين بالشام .

• تمكن زنكى من إقامة دولة قوية فى سوريا وشمالى الجزيرة بعد أن سيطر على الموصل ٥٣٥هـ ١١٢٧م بعد ٣١ سنة من احتلال الصليبيين القدس (٤٩٤) هـ ١٠٩٦م) .

• أكمل أبة نور الدين عمله حيث احتل دمشق ١١٥٤م وبذلك توحدت بلاد الشام تحت قيادة واحدة ثم ضم إليها مصر .

• استطاع صلاح الدين أن يقضى على الخلافة الفاطمية ١١٧١م وإن يعيد سيطرة العباسيين ، ثم تمكن من توحيد مصر وسوريا فى دولة واحدة وعندئذ فقد استطاع أن يعيد القدس إلى المسلمين ١١٨٧م وتحرير بقية الأرض التى إحتلها الصليبيون وحين وفاته ١١٩٣م لم يبق للصليبيين الاخيط ساحلى ضيق على البحر المتوسط .

ه لم ينته هذا النفوذ الأجنبى إلا حين عادت الوحدة بين مصر وسوريا والجزيرة على يد المماليك البحرية ٦٤٨ — ٧٩٢ ه والمماليك البرجية ٧٤٨—٩٢٢ ه

• استطاع الظاهر بيبرس من دحر القديس لويس والصليبيين الذين هاجموا مصر فى موقعه المنصورة ٦٤٧ ه ١٢٤٩ م واستطاع بيبرس كذلك ٦٥٨ ه ١٢٦٠ م أن يهزم التحالف الصليبى المغولى فى موقعه عين جالوت التى كان من نتائجها سحق الصليبين فى الشام والقضاء على الحشاشين فى جبل لبنان وانسحاب المغول من الشام . وكان المغول قد دمروا قلاع الحشاشين فى إيران ٦٥٦ ه ١٢٥٨ ، عند محاصرتهم لبغداد.

(فاروق عمر)

(٣)

عودة القدس

بعد سقوط القدس اشتدت الصيحة للجهاد .

فى كل بلاد الشام والعراق ظهرت جماعات المستنفرين يخطبون فى المساجد وعلى قوارع الطرق والأسواق يهيبون بالناس أن يحملوا السلاح وينفروا لتحرير البلاد . . وذهبت جماعات منهم إلى بغداد وحاصرت قصر الخليفة العباسى وأرغمته على الظهور ، فعاقبوه عقابا شديداً وأهانوا الأمراء ورجال الدولة وطلبوا منهم سرعة النهوض لمواجهة الأعداء.

وظهرت فى شمال العراق والموصل ثم فى حلب وبقية الشام بعد ذلك طلائع النصر رجال أفذاذ عملوا على توحيد الصفوف وتكوين قوات عسكرية للجهاد والتحرير وارتفعت راية الجهاد .

ومن هؤلاء شرف الدولة مودود أمير الموصل ، ونجم الدين ايلغازى

بن ارتق صاحب ماردين الذى كسب المسلمون على يديه أول نصر عسكرى على الصليبين وظهر عماد الدين زنكى فى الموصل وحلب (٥٢١ هـ مايو ١١٢٧ م) وعلى يده تمت أول خطوة حاسمة من خطوات التحرر وهى القضاء على إمارة الرها الصليبية فى أعالى الفرات، وتوفى عماد الدين زنكى شهيداً فى ربيع الثانى ٥٤١ هـ (سبتمبر ١١٤٧) وخلفه فى القيادة ابنه نور الدين محمود . ذلك المجاهد الذى لا يكل والذى وهب حياته كلها للجهاد وقضى اثنين وعشرين سنة فى الميدان حطم فيها قوات الصليبين تحطيما وقضى على الحملة الصليبية الثانية وتوج أعماله بالقضاء على الفاطميين وضم مصر بمواردها العظيمة إلى معسكر الجهاد .

وتولى بعد وفاته (٥٦٩ هـ — ١١٧٤) نائبه على مصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب الذى توج الجهاد العربى الإسلامى فى بنصر حطين فى ربيع الثانى ٥٨٣ هـ — يوليو ١١٨٧ م واستعادة القدس فى الشهر التالى وقضى نهائياً على مملكة بيت المقدس ، وضعفت أمارتا انطاكية وطرابلس الصليبيتين ضعفاً شديداً ، واستطاع صلاح الدين أن يطمئن إلى أنه أكمل حركة التحرير واستعاد للاسلام بلاده المسلوبة .

والفضيلة الكبرى لصلاح الدين أنه أخذ عن نور الدين فكرة الجهاد المطلق حتى التحرير التام وسار بها إلى الأمام وجعلها سياسة ثابتة لكل دول الإسلام فى الشرق العربى . وكما استفاد نور الدين إلى أقصى حد من قوات المجاهدين الأحرار فقد عرف صلاح الدين كيف ينتفع بها إلى درجة تدعو إلى الإعجاب ومن الحق أن تقرر أن جانباً كبيراً من الفضل فى نصر حطين يعود إلى المجاهدين الذين أهلكوا الجيش الصليبي بالغارات المتتابعة ليلا ونهاراً أسبوعا بعد أسبوع ، وعلى صخرة صلاح الدين العاتية تحطمت الحملة الصليبية الثالثة ، وقد أبدى صلاح الدين من الشهامة والنبل وعلو الهمة ما جعله موضع إعجاب الصليبيين والأوربيين جميعا .

دكتور حسن مؤنس (العربى)

(٤)

صلاح الدين فى معركة حطين

(أولا) مهد صلاح الدين إلى استكمال الجبهة الإسلامية المتحدة بالشرق تحت رايته تمهيداً لما عقدت النية عليه على النهوض به من مشروع جهادى عام ضد السيطرة الصليبية على فلسطين ، ومضى صلاح الدين يناوش الصليبيين هنا وهناك كلما سنحت له سانحة كافية لازعاج سلامتهم بعد أن ضمنت له مهارته الدبلوماسية وسياسته الاقتصادية نحو كل من الدولة البيزنطية والجمهوريات الايطالية حيدة تلك الدول بصدد ما قام به من أعمال ضد الصليبيين .

(ثانياً) عندما ركز صلاح الدين جهوده الحربية والسياسية عام ١١٨٢م حول الاستيلاء على حلب والموصل وما بينهما من بلاد الجزيرة الفراتية ، قامت قوات من الصليبيين بتهديد القوى الأيوبية ، وأول تلك الفئة فارس فرنسى الأصل قديم العهد بالحروب الصليبية وفلسطين هو (ريخالد شاتليون أمير حصن الكرك (المشهور بارناط) ما كاد يسمع بخبر مسير صلاح الدين شمالا نحو حلب حتى أخذ فى تنفيذ مشروع راوده منذ سنين ، ذلك بأن أخذ سفناً حربية صغيرة نقلها أجزاء مفككة على ظهور الجمال إلى رأس خليج أيله (العقبة) حيث جعل من تلك السفن أسطولا قرصنياً لمفاجأة قوافل السفن التجارية فى البحر الأحمر والهجوم بعدئذ على مكة والمدينة برأ إذا استطاع إلى ذلك سبيلا .

(ثالثاً) : استولى ارناط على ميناء أيله (وهى من ممتلكات المسلمين) ثم حاصر قلعتها بنفسه على حين ابحرت سفنه جنوبا وسارت على طول الساحل المصرى للبحر الأحمر وأخذت تغير على الموانى المصرية حتى وصلت إلى ميناء (عيذاب) لأخربت ذلك الميناء تخريباً شديداً وهو الميناء الرئيسى للتجارة المصرية

الدولية بين الشرق والغرب منذ أوائل العصور الوسطى ونهب مابه من سفن ومتاجر ، ثم عبرت تلك السفن إلى ساحل بلاد العرب واستولت على مراكب راسية بميناء (الحوراء) شمالي ينبع والمدينة وأبحرت من هناك إلى رابغ وهي إحدى موانئ مكة ثم عادت محملة بما اجتمع لها من إنهاب وإسلاب .

(رابعاً) نهض الأمير العادل محمد (أخو صلاح الدين) لاعتراض تلك السفن الصليبية الجامرة ، وهي في أول طريقها وأنفذ لذلك حملة بحرية مصرية بقيادة أمير البحر حسام الدين لؤلؤ ، غير أن تلك الحملة هجمت أولا على ارناط وهو لا يزال على حصار قلعه (آيله) واضطرته إلى رفع الحصار والفرار إلى حصن الكرك .

ثم أبحر حسام الدين بسفنه المصرية الأيوبية جنوباً من البحر الأحمر باحثاً عن السفن الصليبية حتى باغتها على مسافة غير بعيدة من ميناء الحوراء قبالة مكة وهي محملة بما نهبت وسلبت ، واستولى حسام الدين على السفن الصليبية جميعها وعمد إلى إحراقها بمن فيها ، ولذا أخذ الصليبيون يلوذون بالساحل العربي شمالي مكة وجنوبها وراءهم الجند المصرى الأيوبي والإعراب يقتلون ويأسرون .

وحملت السفن المصرية الأيوبية من أولئك الأسرى إعداداً كبيرة جيء بهم إلى القاهرة وشهدهم الرحالة المغربي ابن جبير يطاف بهم في شوارع الاسكندرية

رابعاً : أقسم صلاح الدين يميناً مغلظة لينتقمن انتقاما شديداً من (ارناط) على أساءته الجسيمة ، ولا سيما أنه اعتدى قبل ذلك على أرض شبه الجزيرة العربية من ناحية البر حتى بلدة تيماء .

خامساً : لم يستقر المقام بصلاح الدين في دمشق بعد عودته من حلب سوى خمسة وعشرين يوما حتى زحف لغزو فلسطين في جيش غير قليل ، مما يدل على أنه أعد العدة لذلك منذ وقت طويل ، ودخل صلاح الدين أرض فلسطين مجتازاً نهر الاردن عند ملتقاه بالساحل الجنوبي من بحيرة طبرية أي من حيث

جسر قرية الصنبرة وهى قرية على الطريق الرئيسي من شرق الاردن إلى جوف فلسطين ثم وصل جنوبا إلى بيسان وانفذ منها دوريات من جيشه فى اتجاهات متعدده لتخريب الحصون والمعاقل الصليبية المجاورة ، ولإغراء جيوش مملكة بيت المقدس وتوابعها بأن تخرج لمواجهته على حين عسكر هو بمعظم جيشه حول بلدة الطوبانية وصهاريجها ذوات المياة الوفيرة الطيبة وهو ما كان يحرص على توفيره دائما لعسكره .

سادساً : تحركت جيوش مملكة بيت المقدس وتوابعها من مختلف المراكز الصليبية وتجمعت عند قرية (صفورية) وهى موضع يمتاز بمياه عذبة وأرض خضراء . ثم تقدمت تلك الجيوش الصليبية جنوبا إلى عين جالوت وعسكرت عندها وصارت بذلك وجها لوجه أمام جيوش صلاح الدين فى الطوبانية .

ولم يلبث صلاح الدين أن عمد إلى فتح جناحى جيشه فى سرعة ابتغاء القيام بحركة خاطفة لتطويق المعسكر الصليبى حول عين جالوت واجتذاب الجيوش الصليبية إلى الدخول فى معركة حربيـــة مكشوفة ، واحجم الصليبيون .

ولكن صلاح الدين لم يقتنع بهذه النتيجة السالبة ، بل عرج فى طريق عودته إلى إمارة الكرك ليسوى بعض حسابه مع البرنس (ارناط) ودخل بلدة الكرك نفسها واستولى عليها عنوة ولاذ البرنس بالفرار منها إلى داخل حصنه المشهور ، على حين اخذ صـــلاح الدين فى حصار الحصن ، والرمى عليه بحجارة منجنيقية وما زال رجاله يعملون فى الرمى ويهيلون أكوام التراب والصخر إلى الخندق حتى أوشكوا على العبور إلى الحصن فى سهولة ، لولا وصول الملك بلدوين الرابع (صاحب مملكة بيت المقدس) بنجدة كبيرة وتراجع صلاح الدين ثم عاد إلى حصار حصن الكرك مرة أخرى .

وعمد صلاح الدين إلى استكمال تكوين الجبهة الإسلامية ، وكانت الموصل

لا تزال لم تدخل الحلف ، كان للهدنة التى عقدت بينه وبين ملك بيت المقدس أربع سنوات أثرها فى تمكينه من احكام الحصار .

سابعاً : لم تدم تلك الهدنة طويلا إذ تخللها من جانب الصليبيين ماعكرها تعكيرا شديدا ، ومالبث ارناط أن اعترض قافلة تجارية مسافرة من القاهرة إلى دمشق وهى مارة بحصنه واستولى عليها ، والمرة الثانية أقسم صـــلاح الدين لينتقمن من ذلك البرنس المعتدى أقصى الانتقام .

ثامناً : أعلن صلاح الدين الجهاد فى معسكره بدمشق وجاءت إليه جيوش من أنحاء مصر والشام والبلاد الفراتية وبلغت عدة تلك الجيوش عشرين ألفا من الخياله والمشاه ، وقد جعل بداية زحفه الكبير نحو الأراضى الصليبية من عند تل العشترا واختار لذلك الزحف ساعة الصلاة من يوم الجمعة ١٧ ربيع الثانى ٥٨٣ (يونيه ١١٨٧) إيمانا منه وإعلانا بما فى دعاء الخطباء على منابر صلوات الجمعة من بركة واستجابة وعبر صلاح الدين بجيوشه نهر الأردن عند قرية الصنبرة جنوبى بحيرة طبرية وعسكر حول قرية الأقحوانة على الضفة الغربية من نهر الأردن وأقام هناك خمسة أيام دون أن يتقدم الصليبيون للهجوم عليه . هناك زحف بجيوشه شمالا إلى رأس الطريق المرتفع المؤدى من صفورية إلى طبرية ، ثم عاد جنوبا بجزء من عسكره وزحف بنفسه على طبرية نفسها فأرسلت تطلب النجدة فتحرك الجيش الصليبى ، فلما تحرك جيشهم قال : جاءنا ما نريد ونحن أولو بأس شديد وإذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل وما دونه مانع ولا عن فتحة وازع ، وانفذ صلاح الدين من الخيالة الخفيفة أعداداً للرمى على الصليبيين بالنشاب من بين الصخور والثنايا على جانبى الطريق الوعر المرتفع والصليبيون يخترقون ذلك الطريق من خيالة ثقيلة كالمعتاد .

تاسعاً : وصل الصليبيون إلى منتصف الطريق بين صفوريه وطبريه ى استعداداً للزحف نحو طبرية فوجد بئرها جافة ووجدوا الخيالة الإسلامية وقد أخذت تسد الطريق إلى مدينة طبرية وبحيرتها ذات المياه العذبة القريبة

فقضى الصليبيون ليلتهم فى ضنك من تعب المسير وشدة العطش مع قلة الأمل فيما سوف يأتى به الصباح ، على حين امتلأ المعسكر الإسلامى بقرية حطين ذات المياة الكريمة بحركة تنبىء عن خير كثير من خيالة ومشاة ، تنبعث من خيامها تكبيرات وتهليلات مرجوزة عالية بلغت أصداؤها اسماع الصليبيين فى جنح الظلام ، وفى وسط تلك الحركة وتكبيراتها وتهليلاتها كان صلاح الدين ساهراً يرقب الطريق إلى طبرية وبحيرتها العذبة بكتيبة من خيالته لمنع أى محاولة صليبية للوصول إلى مورد يرتوون منه حتى الصباح .

وأولى صلاح الدين اهتمامه بالخيالة الخفيفية وذخيرتها ، فأمر بملء جعاب الفرسان بالنشاب حتى بلغت كمية ما فرقه عليهم منها أربعمائة حمل من أحمال الجمال ، فضلا عن سبعين حملا أخرى جعلها على ظهور الجمال بمثابة الاحتياطى المتحرك .

تاسعاً : أصبح صلاح الدين والمسلمون فركبوا وتقدموا إلى الفرنج فركب الفرنج ، واقتتلوا واشتد القتال مع شدة عطش العدو .

ورمى خيالة المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر فقتلوا من خيول الفرنج كثيرا ، فلما علم بوجهتهم نحو طبرية صدهم عن مرادهم ووقف بالعسكر فى وجوههم فلما رأى رايموند الطرابلسى شدة الأمر على أنهم لاطاقةلهم بالمسلمين اندفع فهزم ، ثم حملوا حملات متداركة كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم من مواقفهم ، وما كانوا يرجعون إلا وقد قتل منهم عدد كبير فوهنوا لذلك وهنا عظيما فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها .

وارتفع الصليبيون إلى تل بناحية حطين وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا أنفسهم فاشتد القتال عليهم من جميع الجهات ومنعوهم عما أرادوا . ولم يتمكنوا من نصف خيمة غير خيمة ملكهم لا غير فلما رأى صلاح

الدين ذلك صاح فى جند المسلمين « كذب الشيطان » ، عاد المسلمون على الفرنج ، قال الملك الأفضل فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحى (هزمناهم) فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ، وعطف المسلمون عليهم فالحقوهم بالقتل فصحت أنا أيضا « هزمناهم » فالتفت والدى إلى وقال :

« اسكت : ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة .

وإذا الخيمة قد سقطت ونزل السلطان عن فرسه وسجد لله تعالى شكرا وبكى من فرحته ، وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشاً وقد كان يرجون الخلاص من بعض تلك الحملات مما هم فيه

فلم يجدوا إلى الخلاص طريقا فنزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض فصعد المسلمون إليهم فألقوا خيمة الملك إلى الأرض وأسروهم عن بكرة أبيهم ؛ وفيهم الملك جاى وإخوة والبرنس ارناط صاحب الكرك وصاحب جبيل وابن هنفرى ومقدم الدواية . وأسروا جماعة الدواية وجماعة من الاسبارتية .

وما أصيب الفرنج منذ جاءوا إلى فلسطين . وهو سنة إحدى وتسعون وأربعمائة إلى الآن بمثل هذه الواقعة .

من بحث للدكتور : محمد مصطفى زيادة (العربى)

* * *

(٥)

كان صلاح الدين قد بلغ سن الثالثة والخمسين ، وكانت قد انقضت تسعة عشر عاما على توليه الملك ، تسعة عشر عاما لم يجد السلطان فيها للراحة سبيلا ، أو ينعم بالترف والمجد ، بل كان يتنقل خلالها من معركة إلى معركة ومن ظفر إلى ظفر آخر كأنه يسابق فى ذلك الزمن .

وطد أقدامه فى مصر ، ونهتد منها إلى الشام والجزيرة فاحتلها مدينة بعد أخرى ، والف من تلك المنطقة الجغرافية الكبرى وحدة سياسية كانت دعامته فى حروبه مع المستعمرين الاوروبيين الذين تسموا زوراً باسم الصليبيين واطلت سنة ١١٩٠ (٥٨٨ ﻫ) وليس فى أيدى الصليبيين من مملكة القدس سوى مدينة صور ومن إمارة طرابلس سوى عاصمتها طرابلس وقلعة طرطوس وحصن الأكراد ومن امارة انطاكية سوى عاصمتها وميناء السويد أو حصن المرقب . ولكن صلاح الدين اقترف فى هذه الانتصارات خطيئة كبرى : هذا مايقوله ابن الأثير ويشايعه فى ذلك عدد كبير من المؤرخين الغربيين ، أما نحن فنكبر هذه الخطيئة وننحنى أمام مقترفها باحترام وإعجاب ، خطيئة صلاح الدين هى أنه أطلق القادة والجند الذين قاتلوه فى المدن التى أحتلها بالحرب أو بالأمان وسمح لهم بالهجرة إليها آمنين ، بدلأن يعتقلهم حسب الاعراف المتبعة فى تلك الأيام فتجمعوا فى مدينة صور التى كانت تمتاز بالمناعة الجغرافية فأضافت إلى ذلك المناعة البشرية وتحولت إلى قاعدة للحملة الصليبية الثالثة بزعامة الملك جى دى لوستينان الذى أطلق السلطان سراحه بعد أن قطع على نفسه عهدا ألا يشهر فى وجهه سيفه .

قال جون لامونت : لم يظهر صلاح الدين طوال حربه مع الدول اللاتينية بمظهر المتعصب الدينى وكان حلمه وشهامته مثار إعجاب معاصريه .

وكان موضع مدح المؤرخين منذ عصره فطالما ، وقد أبدى فى معاملته لشعوب البلاد المفتوحة من ضبط نوازع النفس واحترام الناس ، ما كان مباينا كل المباينة للقسوة المتعارف عليها فى حروب العصور الوسطى ، وكانت

سياسته القاضية بإيصال اللاجئين من بلاد النصارى المحتلة إلى معقل النصرانية فى صور سياسية نبيلة إلى حد الحماقة لأنها أدت إلى تحشد أعدائه ومن ثم منعته من احتلال مدينة صور نفسها .

لقد تصرف صلاح الدين طوال حروبه وكأنه يحاول محاولة واعية أن يجعل نفسه مقبولا عن رعاياه المقبلين وأن يضع أساس دولة تعيش فيها الديانتان جنبا إلى جنب فى ظل السلطان وكان هدف صلاح الدين سحق قوة الصليبيين السياسية ولم يكن إبادة المسيحيين .

والواقع أن صلاح الدين لم يكن محاربا إلا بالضرورة فهو ليس فاتحا بل محرراً ، والفرق بينهما كالفرق بين الخير والشر وبين الموت والحياة ولأن كان الفاتح يقاتل بطمعه فإن المحرر يقاتل بإيمانه . وإن كان من أخلاق الفاتحين أن يصونوا أمجادهم بالحديد والنار فإن من شمائل المحررين ألا يحملوا الحقد والضغينة حتى لأولئك الذين يضطرون إلى شهر السيف فى وجوههم ، أليس صلاح الدين هو القائل وقد لامه أصحابه لأنه صفح عن جريرة أحد الجناة عليه .

« لأن أخطىء فى العفو أحب إلى من أن أصيب فى العقوبة » .

ضجت أوربا لسقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين وتنادت إلى حرب صليبية ثالثة ، وبلغ من اهتمام ملوكها بالحرب الجديدة التى أعلنوها على الشرق وتناسوا من أجلها أحقادهم وخصوماتهم ، أنهم فرضوا على كل من يشأ التطوع فيها أو تعذر عليه ذلك ،أن يدفع عشر مداخيله مع عشرثمن أملاكه المنقولة،وسموا هذه الضريبة العشور الصلاحية ، وحرم رؤساء الكنائس كل من يتاجون دفعها وهى أول ضريبة فرضت فى تاريخ أوربا ، وقد كان تجمع هذه الأموال السبب الأول فى نشوء المصارف . وكان أول من لبى الدعوة ملك صقلية وليم الثانى الذى أرسل إلى طرابلس أسطولا يتألف من ستين سفينة وتتابعت بعد ذلك امدادات الفرنجة وتطوع الجميع للقتال . ومن لم يستطع التطوع استأجر له عوضا ، أو أعطى معونة ، وكان (جى لوسينيان) قد انتقل إلى طرابلس فلما تكامل له جيش وافر القوة والعدد ، ذهب به إلى صور

كان الشرق والغرب يحشدان قواهما البشرية والمادية ليلتقيا من جديد عند أبواب مدينة وادعة تطل على سهول الاردن ، وتغسل أقدامها فى مياه البحر الأبيض المتوسط ، مدينة كانت مجتمع السفن والرفاق ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى فى جميع الآفاق . كما يقول ابن جبير وشاء القدر أن يكون اللقاء بين القارتين دامياً مدمراً رهيباً ، وحين هرع صلاح الدين لانقاذ عكا وجد أن جيوش الفرنجه قد سبقته إلى احتلال الأماكن المنيعة وتحصنت بها وباتت حائلا دون وصوله إليها ولما هاجم السلطان جيوش الفرنجة دفعة واحدة زحزحهم عن أماكنهم قليلا وشق طريقا إلى باب المدينة فدخلها قسم من جيشه بكميات من الذخائر والأموال والسلاح والغلال ، وعاد من بقى إلى معسكره لمعاودة القتال فى اليوم التالى . ولكن الفرنجة رفضوا منازلته فى ذلك اليوم والأيام التى تلته ولبثوا على ذلك شهرا انصرفوا فيه إلى تعزيز مراكزهم وتحصين مواقعهم ثم انقضوا على خصومهم فشتتوهم وأرغموهم على التقهقر ، وقصد السلطان إلى الخروبه ، القائمة على الفلاة القفر ، ولم يقصد إلى أى عاصمة من عواصمه ،وأرسل فى طلب الامداد من جميع أنحاء بلاده ولبث ينتظر و يفكر و يراقب ، وقد لح به الهم وألح عليه المرض ، قضى فصل الشتاء بطوله وهو دائب على عمله فى مراس قوى وعزم فولاذى ونشاط لا يفتر حتى إذا كان شهر نيسان أبريل ١١٩٠ عاد بما تجمع لديه من قوة إلى المكان الذى كان فارقه إلى سهل عكا ليحاول انقاذها مرة أخرى ، ولكن المحاولة كانت عسيرة وعسيرة جدا ، واستمر القتال فى البر والبحر عامين كاملين خالدين فى تاريخ الحروب والفروسية .

كانت ملحمة لامثيل لها فى التاريخ : الصليبيون يحاصرون المسلمين فى عكا وجيوش صلاح الدين تحاصر الصليبيين . والقتال مستمر فى البر والبحر وجاء إمبراطور ألمانيا فردريك الملقب بربروس على رأس مائة ألف محارب فغرق وهو يعبر نهر وتضعضع أفراد جيشه بموته ، وانتشر بينهم المرض والطاعون ، والتحق بعضهم بجيش فردريك الصغير ابن الامبراطور الغريق فما لبث الشاب أن توفى أمام أسوار عكا .

ووصل هنرى دى شمانيا ، وفيليب أوغست ملك فرنسا ، وريتشارد ملك انجلترا الملقب بقلب الأسد .

ولما رأى صلاح الدين ذلك الطوفان المتدفق من جنود الفرنجة الذين توافدوا من جميع أنحاء أوربا وقد حملوا معهم كل آلات الموت ووسائل الدمار ، وصلاح الدين يجالد المرض ورتب الجنود بنفسه ، ويركب من من بكره النهار إلى المغيب ، يطوف على الأجناد صابراً لمن يلومونه (إذا ركبت للجهاد زال عنى الألم حتى أنزل) .

ولما مرض ريتشارد تأثر السلطان وأرســـل إليه الفاكهة والثلج حتى شفى .

وحاول الصليبيون استعادة القدس فما استطاعوا .

وقال ريتشارد قلب الأسد : هذه مدينة لا يمكن محاصرتها وصلاح الدين حى وكلمة المسلمين مجتمعة .

ولقد تأكد للصليبيين أن الانتصارات التى أحرزتها الحملة الصليبية الثانية على صلاح الدين واشترك فيها خمسمائة أو ستمائة ألف صليبى ، وقضى من أجلها مالا يقل عن مائة وعشرين ألف ضحية إنما كانت انتصارات جزئية محلية لم تنل من مملكة صلاح الدين الشامخة الصرح الراسية الأساس المترامية الأطراف التى تحيط ببقايا المستعمرات الصليبية من كل مكان ، ولولا المجاعة اجتاحت سكان عكا لاستمرت مقاومتها سنين أخرى وربما تحولت هزيمتها إلى انتصار .

« قدرى قلعجى »

- ٦ -

هزيمة لويس

حملة الملك لويس التاسع على مصر وهى المعروفة بالسابعة عام ١٢٥٠ م لا تمحو شيئاً من الواقع التاريخى وهو أن الملك لويس التاسع ينتهى نسبة الصليبى إلى جود فرى دبويون أول حكام دولة بيت المقدس الصليبية وأول المفكرين من زعماء الصليبين فى الاستيلاء على مصر .

وقد تلقى السلطان الصالح نجم الدين أيوب مطالع الزحف الصليبى على مصر بقيادة لويس ، وهو السليل الحقيقى لعمه الأعلى ، أى للسلطان صلاح الدين الأيوبى نفسه . فى الجهاد العام ضد الصلبين فى مصر والشام .

لم يترك ملوك أوربا والبابويه فرصة لتكرار الاعتداء على مصر مرة بعد أخرى منذ قيام الحروب الصليبية بالشام وكانت حلقة الختام حمله لويس التاسع .

وكان آخرها ذلك السباق بين مملكة بيت المقدس ومملكة نور الدين للاستيلاء على مصر ومن أجل ذلك أرسل الصليبيون ثلاث حملات متتابعة إلى الأراضى المصرية كما أرسل نور الدين وراءها ثلاث حملات مثلها ، ثم ختمت أشواط هذا السباق بخيبة الجيوش الصليبية ونجاح الجيوش الإسلامية التابعة لنور الدين فى الاستقرار بمصر ١١٦٩ م حين تسلم القائد صلاح الدين مقاليد الوزارة الفاطمية أولا ، ثم استطاع صلاح الدين أن يعلن نفسه وآرثا فعلياً لإملاك دولة نور الدين بعد وفاته ، وأن يجعل مصر وسورية وأعالى العراق تحت حكمه فكان ذلك كله نذيرا بدنو ساعة الصليبيين وكان مصر صاحبة الزمام — جغرافيا وسياسياً واقتصادياً — فى تلك الامبراطورية الصلاحية ، لذا نادى صلاح الدين من القاهرة عاصمته بأن هدفه ومنتهاه هو « الجهاد » ضد مملكة بيت المقدس الصلبية ولم يلبث صلاح الدين أن بلغ أقصى ما تمناه بعد أن شهد

حربا خاطفة قضى بها أولا على زهرة جنود الصليبين فى حطين قرب طبرية وبعد أن استولى على مدينة بيت المقدس نفسها ولم يبق من مملكة بيت المقدس بأيدى الصليبين سوى مدينة صور .

وهذه الكوارث الصليبية هى التى جاءت بالحملة الصليبية المعروفة بالثالثة من أوربا إلى فلسطين لمحاولة إخراج صلاح الدين من مدينة بيت المقدس على الأقل وكان إخفاقها فى تحقيق ما انتهت من أجله مما اقنع قادة هـــذه الحملة وهو ريتشارد الأول ملك انجلترا بأن الطريق لا سترداد المملكة الصليبية المفقودة يبدأ أولا وقبل كل شىء بالاستيلاء على مصر ولم يكن هذه الفكرة جديدة ، فإن مصر لم تغب عـــن أذهان الصليبين منذ قدومهم إلى الشرق .

ومن ثم فإن الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة فقد توجهت إلى مصر مباشرة وأرست سفنها عند قرية بورة ، على مسافة بضعة كيلو مترات من رأس البر ، ولم تلبث أن بدأت عملياتها الحربية بمحاصره دمياط المصور الوسطى وظلت الجيوش الصليبية قبالة دمياط هذه سنة وبضعة أشهر حتى دخلتها عنوه فى شهر نوفمبر ١٢١٩ م وذلك بالرغم مما بذل السلطان الكامل الأيوبى من جهود سلمية لا نقاذها من ذلك المصير .

ثم زحف الصليبيون جنوبا فى قوات برية بحرية كبيرة واستولوا على فارسكور ، ثم زحفوا منها إلى شرمساح واحتلوها وانتشرت كتائبهم على طول مجرى بحر أشموم طناح إلى قرب اضحال بحيرة المنزلة ولم يفصل بينهم وبين معسكر السلطان الكامل سوى ذلك المجرى المائى المشهور بعمقه وشدة انحدار جانبية .

وقد غفل الصليبيون فى حركتهم الانتشارية على طول بحر اشموم طناح عن قناة قديمة سوف تمتلىء بمياة الفيضان وتصبح حائلا بينهم وبين خط الرجعة إلى دمياط .

ثم حل الفيضان وصار من المتعذر على الخيالة والمشاة الصليبيين أن يعبروا نهر أشموم طناح جنوباً ، نحو معسكر السلطان الكامل ، كما صار من المتعذر عليهم عبور القناة القديمة شمالا إلى قواعدهم فى دمياط على حين وقفت سفن مصرية أيوبية لسفنهم بالمرصاد . ثم أبحر عدد من السفن المصرية الأيوبية فى بحر المحلة وهو فرع كان يخرج وقتذاك من النيل قرب بنها الحالية ويلتقى به ثانية جنوبى فارسكور ، وخرجت هذه السفن من بحر المحلة عند فارسكور إلى مجرى النيل لحالت بين الصليبين وما سوف يهبط إليهم من النجدات النهرية من دمياط كما قطعت خط الرجعة كذلك على السفن الصليبية التى رافقت الحملة سابقا من دمياط : ثم أمر السلطان الكامل بقطع جسر النيل شمالى طلخا ، فضلا عن قطع الجسر الفاصل بين النيل وبحر المحلة ، ففاض الماء وركب مساحة شاسعة من الأرض شمالى مواقع الصليبيين ، وصارت هذه المساحة الفارقة حائلا بينهم وبين دمياط ماعدا طريق ضيق سده السلطان الكامل كذلك بعدد من عساكره عند شرمساح .

وهكذا انحصرا الصليبيون وتبددت آمالهم فى الزحف جنوبا نحو القاهرة ولم يبق لهم سوى أن يشقوا لانفسهم طريقاً نحو الشمال نحو قواعدهم فى دمياط ولذا أحرقوا خيامهم ومجانيقهم وسائر اثقالهم واهتبلوا فرصة المستميت فى الانسحاب فى جنح الظلام لحال الماء والعسكر بينهم وبين مقصدهم ولم يلبثوا أن أدركو يأس موقفهم ، عند ذلك وليس قبله طلب الصليبيون السماح لهم بالعودة إلى دمياط للجلاء عنها من غير ماشرط إلا ما رضى به السلطان وذلك بعد طلب الامان ، وأعطى السلطان الكامل جيوش الصليبيين أمانهم وسمح لهم بالعودة إلى دمياط للجلاء عنها .

الحملة الصليبية السابعة

ولكن الغرب لم يلبث أن عاد إلى محاصرة مصر ، في حملة صليبية جديدة يتزعمها ملك شاب في الثلاثين من العمر . ذلك هو لويس التاسع .

أبحرت الحملة نحو الشواطىء المصرية أواخر سنة ١٢٤٩ م وأنزلت طلائع جيشها عند مصيف رأس البر على الضفة اليسرى للنيل ، ولم تلبث هذه الطلائع أن تغلبت على القوات المصرية المرابطة فى ذلك الموضع الجديد وتشجع الملك لويس بذلك التوفيق الابتدائي المفاجىء ، فزحف بجيشه جنوبا يريد العبور إلى دمياط العصور الوسطى ، على الضفة اليمنى للنيل ، وتقدم الجيش الصليبي إلى جدران برج من أبراج دمياط (عزبة البرج الحالية) فاستولى عليها دون قتال واستقر فيها وحول جامعها الكبير إلى كنيسة كتدرائية وكل ذلك من باب التمهيد لزحف صليبى جنوبى عام نحو القاهرة . تقدمت الحملة إلى فارسكور ومنها إلى شرمساح والبرمون وصارت على مسافة عشرة كيلو مترات تقريبا من بحر أشموم طناح وكل ذلك دون أن تلقى مقاومة كبيرة من ناحية القوات المصرية الأيوبية .

ولم يشأ لويس أن تنتشر كتائب جيشه على طول مجرى بحر أشموم طناح قرب اضمحلال بحيرة المنزلة ، كما فعلت الحملة الصليبية السابعة ، بل قرر الوقوف والتركيز بجيشه فى المساحة الضيقة بين هذا المجرى والنيل وابتنى هناك معسكرا كبيرا وجعل حوله سوراً وخندقا وبذا صار الصليبيون قبالة المعسكر المصرى الأيوبى بالمنزلة — المنصورة ولم يفصل بينهم وبين القوات المصرية الأيوبية سوى ذلك المجرى المائى الهام .

وما أن استولى الصيلبيون على دمياط بغير قتال حتى توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب على أثر وصول الخبر إليه بوقوع الكارثة .

وما أن دق لويس أوتاد معسكره على الضفة الشمالية للبحر الصغير قبالة المعسكر المصرى جنوبى ذلك البحر حتى تراشق الطرفان بقذائف المجانيق

مدة شهر ونصف شهر ، وقد أبادت هذه القذائف معظم العمال الصليبيين الذين كانوا يعملون على إقامة جسر من الخشب فى عرض البحر الصغير ليعبر منه لويس وقواته إلى أطراف المعسكر المصرى .

وجاء رجل من البدو وأرشد الملك الفرنسى إلى مخاضه عند قرية سلمون لعبور الخيالة الصليبيين منها إلى المعسكر المصرى الأيوبى وعبرت طلائع الجيش الصليبى تلك المخاضة وتقدمت نحو أطراف المعسكر المصرى واقتحمها فى وضح الصباح الباكر وتقهقرت الجنود المصريين إلى المعسكر الرئيسى بالمنصورة ؛ وهنا ظن الصليبيون أن النصر سوف يتحقق لهم بعد هذا التوفيق الأول ، فاندفعوا فى الزحف نحو المنصورة ، وخابت الخطة كل الخيبة بفضل خطة حربية رتبها الظاهر بيبرس القائد المملوكى حيث أكمن فئة كبيرة من القوات المصرية فى كمائن متعددة حول المنصورة ، وأمرها أن تظل فى كائنها حتى تصدر إليها الإشارة بالحركة والتقـــدم ودخل الصليبيون المنصورة فوجدوها مدينة خالية من المقاومة ، وانتشرت الفرسان فى الأزقة والحارات تمهيدا لحركة تطويقية صليبية نحو القصر السلطانى لطلب التسليم والاعتراف بالنصر الصليبى العام .

وما كادت القوات تقترب من النصر حتى صدرت الأوامر للعساكر المصرية بالحركة المتفق عليها لحملوا على الصليبيين حملة فجائية من جميع الجهات وأبادوا جنودهم الموزعين بالأزقة والحارات ثم أطبقوا على الكونت القائد وجنوده عند باب النصر ، وانقلب النصر الصليبى إلى هزيمة طامة حيث بلغ قتلى الصليبيين مايقرب من ألف وخمسمائة فى بضع ساعات . ومن ثم رجحت كفة النصر للقوات المصريه يوما بعديوم ومع هـذا ظل المعسكر الصليبى بقيادة لويس فى مواضعه لا يتحرك وكان أن وصل السلطان الجديد تورانشاه إلى المنصورة وتسلم زمام الموقف ودلعلى مهارة فائقة بما اتخذ من تدابير حربية كفلت تحقيق هزيمة الصليبيين فى أقل من شهرين اثنين .

كان أول هذه التدابير الحربية أن أمر توران شاه باحضار عدد من السفن الحربية الخفيفة من القاهرة إلى سمنود وجعلها قطعا مفككة مفصلة على ظهور الجمال إلى بحر المحلة، حيث تم تركيبها وتعويمها وشحنها بالمقاتلة، حيث دخلت مجرى النيل ووقفت بالمرصاد لمنع المراكب الصليبية الواردة من دمياط بالمؤن والذخائر من الوصول إلى معسكر الصليبيين، واستولت هذه السفن الخفيفة على أكثر من ثمانين سفينة من السفن الصليبية الخاصة بالتموين، وبذا باتت الجيوش الصليبية مهددة بالمجاعة، ثم لم تلبث المجاعة أن حلت بالمعسكر الصليبي وأعقبتها الأمراض الخبيثة.

ولم يكن عجبا عند ذلك أن يفكر لويس التاسع فى مختلف الوسائل التى يستطيع بها العودة بجيشه سالما — ولو ببعض السلامة — إلى دمياط وعمد أولا إلى فكرة مهادنة المسلمين على قاعدة الجلاء الصليبى عن دمياط مقابل إعادة مدينة بيت المقدس إلى الصليبيين، غير أن الملك لويس لم يجد سميعا أو مجيبا لمهادنة فات أوانها ثم قرر وجوب التقهقر إلى دمياط، وكانت هذه البداية مؤذنة للعساكر المصرية بالزحف العام لمطاردة الصليبيين وعرقلة حركتهم والاستيلاء على أسلحتهم وأدواتهم الحربية، ثم تحولت إلى حركة هجومية عنيفة، غرضها تطويق الجيوش الصليبية المتقهقرة والوقوف فى طريق عودتها إلى دمياط وإجبارها على التسليم، وضيق المعسكر المصرى الخناق على الصليبيين فى البر والنهر وتراءت الهزيمة المحتومة للملك لويس الذى أصدر أمره بالتسليم من غير قيد أو شرط وجاءت طائفة من الجيش المصرى لتحمله أسيرا فى منية الخولى عبد الله إلى المنصورة حيث سجن مدة بدار قاضيها ابرهيم بن لقمان وامتلأت دور أخرى بالمنصورة باعداد من كبار الصليبيين الأسرى من الفرنسيين والإنجليز كما طفحت أطراف المنصورة وخيام معسكرها بآلاف الأسرى من عامة الجيش الصليبية وبات الناس وأصبحوا على فرح بما تم من النصر على الصليبيين بفضل الجهود الجبارة والخطط العسكرية الجريئة.

* * *

وخلاصة الشروط التى اتفق عليها الطرفان .

١ — أن يجلو الصليبيون عن دمياط جلاء تاما .

٢ — أن تبحر السفن الصليبية عن الشواطىء المصرية .

٣ — أن يتعهد الملك لويس بدفع فدية مالية وأن يدفع كل من كبار الصليبيين فدية عن نفسه .

وتم تسليم المدينة صفر ٦٤٨هـ (مايو ١٢٥٠ م) .

دكتور (محمد مصطفى زيادة)

(٧)

معركة المنصورة

أحس الفرنجة بعد هزيمة « حطين » واستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس أن مصر هى القوة التى تقف فى وجههم فاتجهوا إليها ، هنالك حشد لويس التاسع حملته الكبرى التى قصدت مصر ونزلت دمياط .

وتقدم الصليبيون على الضفة الشرقيـــة فاستولوا على مدينة فارسكو ثم واصلوا التقدم حتى اقتربوا من المنصورة ، وهنالك ارتطموا بأول مانع مائى ، وهو بحر أشموم حيث كانت القوات المصرية المسلحة ترابط على ضفته المقابلة لايفصلها عن العدو إلا مياهه الزرقاء .

وقد تأهبت بحفر الخنادق وإقامة المتاريس والمجانيق وقاذفات الأحجار واحتشدت سفن الأسطول الإسلامى فى النيل أمام المنصورة ثم بدا القتال وحمى وطيسه واشتد التراشق بين المسلمون والفرنجة عبر بحر أشموم ، ولما أدرك الصليبيون فداحة خسائرهم اتجهوا إلى عبور المانع المائى وعمدوا إلى إقامة جسر كبير يعبرون عليه .

وقد حصنوا هذا العمل الحربى بإقامة أبراج خشبية وقف عليها النبالة وحملة القسى لمواجهة المعسكر المسلم حتى لاتتوقف عملية العبور ، غير أن القوات المسلمة لم تلبث أن قامت بعمل حربى مضاد يفسد محاولة الصليبيين ، فقد حفروا حفرا واسعة فى الضفة التى يقيمون فيها فكانت المياه المحجوزة من الجسر تملأ تلك الحفر مما يترتب عليه ظهور تيار سريع يتلف الشاطئين فينهار ما أقيم من الجسر وبينما الصليبيون يتحمسون الضربة القوية واجههم الجيش المسلم باستخدام سلاح مذهل ، فت فى عضدهم وحطم أعصابهم : ذلك هو « النار اليونانية » .

كان ذلك ذات ليلة عندما اندفعت شعلات رهيبة من اللهب عبر آلات قاذفة على معسكر الصليبيين وأبراجهم الخشبية التى أقاموها على ضفة بحر أشموم وظلت سيفا مصلتا كلما حاولوا إقامة أبراج جديدة تلقى الصليبيون وابلا من هذه الصواعق الجهنمية ، فإذا بها تلتهب ثم تصبح رماداً .

وأحس الفرنجة أنه لا أمل فى البقاء ، ولا فى النصر ، وملأ اليأس قلوبهم وعجزوا عجزا شاملاً عن عبور بحر أشموم الضئيل .

غير أن الفرنجة وجدوا مخاضة مأمونة ، قليلة الماء فاتجهوا إلى عبورها إلى المنصورة وبدأت المقدمة المكونة من ألف وأربعمائة فارس تقتحم الطريق إلى المنصورة ولم تلبث أن وجدت نفسها فى شوارع المدينة فى عزلة تامة . ولم يغب هذا عن الفارس (بيبرس) الذى انتهز الفرصة ودبر خطة بارعة للقضاء على مقدمة الصليبيين . فحال دون تقدم القوات داخل المنصورة بينما طارد فرسانه المقدمة وانقضوا عليها كالسيل فأبادوا فريقا كبيرا منها بينما أخذ أهل المنصورة يقذفون الفرنجة بالرمال المحماة بالنار والاحجار من الأسطح والنوافذ ، وتم لأهل المنصورة إبادة القوة عن آخرها .

وكان على قيادة جيش الإسلام فارس الدين اقطاى الذى اقتحم مع الصليبيين فى قتال مرير بينما كان الرماة يقذفون الصليبيين بالنار مما عجل باندفاع الفرسان المسلمين لاختراق صفوفهم ، وإنزال هزيمة ساحقة بهم وتفشت فيهم الأمراض والأوبئة والحميات وعمت معسكراتهم أنات الاحتضار وشهقات الموت .

ودبرت المقاومة المسلمة خطة محكمة للقضاء على جيش القديس لويس بعزله وقطع خطوط المواصلات عنه حيث كانت ترد الامدادات من طريق النيل ، وقد صنعوا عدة سفن ونقلوها مفككة على ظهور الجمال إلى بحر المحلة شمال بحر أشموم وأنزلوها بعد تزويدها بالمقاتلين ، فلما جاءت سفن الصليبيين من دمياط إلى بحر المحلة تحمل الامدادات خرجت لها السفن العربية من مكانها وأحاطت بها من كل جانب وظفروا منها بمائتين وخمسين مركبا وقتلوا وأسروا نحو ألف من بحارتها وجميع ما كان في السفن من الأقوات والمؤن .

وواصل الأسطول المسلم شن هجماته من سفن التموين الصليبية القادمة من دمياط ، وبذلك حلت مجاعة مروعة فى معسكر الصليبيين ولم يجدوا أمامهم إلا أسماك النيل والحشائش وجذور النبات .

وحلت الهزيمة الساحقـــة فى التراجع إلى دمياط تاركين معسكرهم الملىء بالذخائر والمهمات غنيمة للمسلمين ، وحاصرهم المسلمون فمنعوهم من التقدم ، ومن التراجع واندفعت القذائف المدمرة من شمال وجنوب فأبيد أغلب الصليبيين وأسر الباقون .

ولما تمت الهزيمة النهائية ذكر لويس خطاب الملك الصالح إليه .

ورد كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ونحن ارباب السيوف وما بغى علينا باغ إلا دمرناه فلو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا الحصون والسواحل ، وفتكنا بكم فى الأواخر والأوائل لكان لك أن تعض على انامك بالندم ،ولابد أن يزل بك القدم من يوم أوله لنا وآخره عليك ، هنالك تخيب الظنون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون وكم من فئة قليله غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

ولكن لويس فيما يبدو كان يبيت الكيد مرة أخرى فى حملة خاسرة على تونس وصفت بأنها الحملة التاسعة بعد عشرين عاما من هزيمته فى المنصورة حيث دفع حياته ثمنا لها .

(٨)

قال جوانفيل مؤرخ الحملة الصليبية التى قادها لويس التاسع ضد مصر ٦٤٧هـ ١٢٤٩ م : وذات ليلة تقدم المماليك بآلة من آلات فظيعة لإحداث الضرر والأذى ووضعوها قبالة قاذفات الحجارة التى كان يحرسها فى تلك الليلة السير والتر ذى كوريل وانا ، ولقد أطلقوا من هـذه الآلة كميات هائلة من النار الإغريقية غير أنها كانت أفظع مارأت عينى على الاطلاق فقد شاهد زميلى سير والتر هذا السيل المنهمر من النيران كالبراميل المشتعلة ومن خلفها ذيل طويل ، أما الصوت الذى كانت تحدثه عن انطلاقها فكان الرعد وكانت تشق الهواء كأنها تنانين من النار تطير فى الهواء تضيء ظلمة الليل ضوءاً قوياً حتى لقد كنا نرى الأشياء فى خيامنا وكأننا فى النهار تماماً ، ولقد أطلقوا النار من هذه الآلة ثلاث مرات فقط فى تلك الليلة وكان مليكنا الطيب فى كل مرة يسمع هذه الطلقات يركع على الأرض ويتجه إلى السماء باسطا ذراعيه والدمع ينهمر مدراراً من خديه ويقول :

« أيها الرب عيسى المسيح احمنى وجميع الذين معى » ،

الفصل الثالث

تصفية الخطرين : المغولى والصليبى

كان يمكن أن تكون الضربة التى حلت بالإسلام وحضارته على أيدى التتار ضربة قاصمة قاضية لولا ما اتصف به الإسلام من قدرة على الثبات وتخطى العقبات وتعدد مراكز الفكر والحضارة بحيث إذا أصيبت أحدها انتقل مشعل الحضاره بسرعة ودون توقف إلى مركز آخر .

لم ينجح المماليك فى تخليص مصر من حملة صليبية كبرى بزعامة لويس التاسع فحسب وإنما نجحوا فى انزال هزيمة كبرى بالتتار فى (عين جالوت) على أرض فلسطين وطاردوهم حتى أجلوهم تماماً عن بلاد الشام .

من القرن السابع الهجرى إلى القرن العاشر (١٣ م ١٦ م) تمكن سلاطين المماليك فى القاهرة من وحر التتار وطرد الصليبين نهائياً من بلاد الشام وحسب المسلمين أنهم كانوا مسلمين جاهدوا فى سبيل الله ونجحوا فى حماية الإسلام فى منطقة هى بمثابة القلب من أكبر خطرين معاصرين هدداه ، هذا إلى أنهم لم ينجحوا فى حماية حضارة الإسلام وحفظ تراثه من الضياع فحسب بل نجحوا فى إنماء هذه الحضارة حتى حققت فى كثير من الميادين قدراً من الازدهار لم تحققه فى عصر آخر .

فالشائع أن عصور المماليك كانت كلها عصور انحطاط ولكن الحقيقة غير ذلك ومرحلة المماليك ظلمها المؤرخون .

وربما جاء إسهام غير العرب من الشعوب التى دخلت فى الإسلام فى حمل الأمانة ومواصلة حركة المد الإسلامى خير دليل على نجاح العرب فى التبشير

بالإسلام وإيصاله مكتملا إلى تلك الشعوب والتمكين لمبادئه فى قلوبهم بحيث عدوا فى مرحلة لا حقة عدة الإسلام وأداته فى الجهاد فى هذه الشعوب .

وعلى سبيل المثال « البربر » الذين ما كادوا يدخلون فى دين الله حتى أسهموا بقيادة زعيمهم طارق بن زياد فى فتح الاندلس وظل البربر طوال عدة قرون يمثلون « حراس الإسلام » فى المغرب الإسلامى فى حين عدت بلادهم (شمال أفريقيا) بمثابة المخزن البشرى الكبير الذى يمد دولة الإسلام فى الأندلس بالجند والمجاهدين كلما اشتد الضغط المسيحى عليهم .

وجهود البربر فى عصر المرابطين وزعيمهم يوسف بن تاشفين سواء فى نجدة المسلمين بالأندلس أو فى نشر الإسلام فى قلب أوربا وغربها مذكورة، وفى القرن السابع الهجرى إلى عشر أعلام عندما اشتد ساعد البربر فى الدفاع عن الإسلام منذ الهجمات الصليبية فى الأندلس ظهرت فى المشرق عناصر عربية الأصل دخلت فى الإسلام فى وقت متأخر نسبيا وآمنت به إيمانا دفعها إلى تزعم (حركة الجهاد) فى المشرق فقد سوى الإسلام فى جوهرة وشريعته بين مختلف العناصر والأجناس والشعوب التى دخلت فيه وجعل منها على اختلاف أصولها وتباين ألوانها أمة واحدة : « هى أمة الإسلام ، الأمة التى اختارها الله (تبارك وتعالى) لجعل منها خير أمة أخرجت للناس ، هى أمة الإسلام . لا أمة العرب ولم يجعل للعرب الوصاية أو الأسبقية وإنما جعل لها التكريم لا التفضيل حيث نزل الكتاب بلسانها والنبى منها وبيت الله الحرام فى أرضها .

ومن أبرز أسرار عظمة الاسلام وقدرته على الصمود فى وجه المخططات التى هددته أنه كان قادراً على تجــــديد دمائه مع الاحتفاظ بأصوله وتجديد فكره مع الاحتفاظ بقيمه الأساسية) .

وما كاد يضعف العنصر العربى فى مدافعة اعداء الإسلام فى أواخر القرون الوسطى حتى برز دور الاتراك السلاجقة والتركمان والأكراد ثم المماليك فالاتراك العثمانيون وجميعهم كانوا بمثابة دماء جديدة زودت أمة

الإسلام بطاقات كبرى مكنتها من الصمود بل التغلب على الأخطار الكبرى التى تعرض لها دون أن يتوقف دور العنصر العربى عن مواصلة الجهاد .

وقد أسهمت القبائل والإمارات العربية فى بلاد الشام والعراق فى الدفاع عن الكيان الإسلامى ضد الغزو الصليبى ، ولكن الحقيقة التاريخية أن الصفحة المشرقة التى سجلها الحمدانيون فى معركة الجهاد ضد الروم تعتبر بمثابة خاتمة لدور العنصر العربى فى مدافعة أعداء الإسلام .

جاءت المقاومة الرئيسية التى صادفها الصليبيون من جانب الأتراك السلاجقة : سلاجقة الروم وسلاجقة الشام وسلاجقة فارس .

وانبعثت حركة الجبهة الإسلامية فى الشرق الأدنى من بين صفوف السلاجقة الأتراك بالذات وتزعم هذه الحركة (أتابكة البيت الزنكى) بالموصل (القرن السادس الهجرى) وبفضل جهود (عماد الدين زنكى) ثم ابنه (نور الدين محمود) إمتدت الجبهة الإسلامية من الفرات إلى النيل ومن الموصل إلى القاهرة مروراً بحلب ودمشق ولم يكن عماد الدين زنكى وابنه نور الدين عربا .

كذلك لم يكن الجيوش التى اعتمد عليها البطلان مؤلفة فى جوهرها من عناصر عربية وإنما جمعت مجاهدين : أتراك وأكراد وتركمان ألف الإسلام بين قلوبها .

ثم ظهر القائد الكردى شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب الذى ورث سيده نور الدين فى دولته الواسعة ثم فى سياسته ضد الصليبيين .

والثابت أن سلاطين بنى أيوب وملوكهم اعتمدوا فى حركة الجهاد الواسعة التى قاموا بها وبخاصة فى الشام ومصر على جيوش مؤلفة غالبيتها من الأتراك والأكراد على قول المؤرخ أبى شامه ومعها أقليات متعاونة من العرب والتركمان .

ثم ظهر المماليك (والمماليك من الرقيق الأبيض) أما العبيد فهم من الرقيق الأسود ، وقد عمل على استخدام المماليك فى عهد الصالح نجم الدين أيوب

بأعداد كبيرة ، حيث أنشأ طبقة ضخمة تمكنت فى نهاية الأمر من السيطرة على شئون الحكم وازداد نفوذهم تدريجيا ، بعد أن تمكنوا من إنزال ضربة قاضية بلويس التاسع وحملته الصليبية على مصر مما أضفى عليهم هالة من المجد وأظهرهم فى صورة الأبطال القادرين على حماية ديار الإسلام وقد أقاموا دولة حكمت مصر والشام أكثر من قرنين ونصف من الرخاء ومدت نفوذها على بعض بلاد الشرق الشرق الأدنى .

وكان لملوكها الظاهر بيبرس ، والسلطان قطز الدور البارز فى تصفية الممالك اللاتينية وتصفية التتار . وقد عرفوا بصلابتهم فى الحرب وشجاعتهم فى القتال وحماستهم فى الدفاع عن عقيدتهم حتى غدو مضرب المثل فى الإقدام والجرأة والثبات على المبدأ والإيمان بالعقيدة .

وكان المماليك فرسان الإسلام وطلائعه وحماته .

وقد واجهت دولة سلاطين المماليك : مشكلتين كبيرتين وخطرين هددا الوطن العربى الإسلامى : أعنى خطر التتار وخطر الصليبيين .

والخطران التترى والصليبى متفقان على أن لهما عدوا واحدا مشتركا كبيرا يتمثل فى الإسلام والمسلمين ، وقد نظر العالم المسيحى بزعامة البابوية فى الغرب نظرة أمل ورجاء إلى التتار وحركتهم التوسعية على حساب أرض المسلمين .

كان التتار عندما شرعوا فى دهم بلاد المسلمين ، كانوا وثنيين بوذيين مما جعلهم يبدون فى نظر الكنيسة الغربية فى صورة المادة الخام التى يسهل تشكيلها فى قالب مسيحى ، وظل هذا الحكم يداعب أجفان البابوية ودعاة الحركة الصليبية لأن تحويل كتلة تتار فارس والعراق بالذات إلى المسيحية معناه حصر قلب العالم الإسلامى بين : (فكى الكماشة) التتار من الشرق والصليبيون من الغرب .

وعندئذ يمكن سحق الإسلام والمسلمين نهائيا .

وبدأت الاتصالات بين التتار والبابوية ، وسعت البابوية إلى تحريك التتار ضد الجناح الإسلامى فى المشرق ، فأرسل البابا إلى خاقان التتار الأعظم فى قراقورم بجوف آسيا بدعوة للدخول فى المسجد والقيام بعمل مشترك لسحق الإسلام ، ولكن التتار أصروا دائماً على دخول البابوية وكان ملوك وأمراء الغرب المسيحى تحت سيادتهم كشرط لا تمام تلك الخطوة .

وما كان لويس التاسع يصل على رأس حملة إلى جزيرة قبرص وهو فى طريقه إلى مصر حتى وفدت على نيقوسيا سفارة من نساطرة الموصل ، نيابة عن الخاقان فى فارس لعقد تحالف عسكرى بين الصليبيين والتتار يستهدف القضاء على الخلافة العباسية فى بغداد والقوى الإسلامية فى الشام ومصر .

ووجدت القوى المسيحية والصليبية فى الشرق الأدنى فى تحركات التتار ضد العالم الإسلامى فرصتها الذهبية ، ومنها مملكه (أرمينية الصغرى) المسيحية وهى إحدى القوى التى أفرزتها الحركة الصليبية فى إقليم قليقية فى الركن الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى .

وأظهر الخاقان عطفة الشديد على المسيحية والمسيحين وأعان وضع الكنيسة ورجالها فى جميع البلاد التى يفتحها التتار تحت رعايته وصدر تكليف إلى هولاكو بالاستيلاء على العراق وتحطيم الخلافة العباسية ، العدو اللدود . ثم اجتياح الشام واستعادة الأراضى المقدسة للمسيحين وهكذا استهدف التتار والصلبين (من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب) : ضرب الإسلام كعقيده واحتلال أرضه والنيل من أهله : الأمر الذى جعل المسلمين فى القرن السابع الهجرى (١٣ م) يحسون بمرارة قاسية عندما رأوا أنفسهم بين شقى رحى ضخمة تعمل لسحقهم والقضاء على كيانهم .

وقبل أن تمر عشر سنوات على قيام دولة المماليك فى مصر كان التتار قد اجتاحوا العراق وأسقطوا الخلافة العباسية فى بغداد ، ثم اندفعوا إلى الشام فاقتحموا حلب وسقطت دمشق .

وبوصول التتار إلى جنوب بلاد الشام بدا الاستعداد لغزو مصر وأثبت المماليك أنهم فرسان الإسلام المستميتون في الدفاع عن أهله وأرضه ، وعندما تخاذل أمراء الشام عن مدافعة التتار ، واجهه ركن الدين بيبرس :

فقد أرسل هولاكو إلى سلطان المماليك فى مصر (قطز) يطلب منه الاستسلام ، ولم يهتز قطز أمام ذلك التهديد فقتل رسل التتار وعلق رءوسهم على باب زويلة ودعا إلى الجهاد ،

وفى موقعة عين جالوت دارت الموقعة الفاصلة بين المماليك والتتار ٦٥٨ هـ — ١٢٦٨م) وقد تفوق التتار فى أول الأمر ، ولكن قطز ثبت فى القتال واستثار روح الإسلام فى قلوب رجاله فألقى خوذته عن رأسه إلى الأرض وصاح :

(وا إسلاماه)

ولأول مرة منذ حركته التتار التوسعية تحل بهم الهزيمة :

هزيمة شاملة كبرى بقتل من قتل وأسر من أسر ونجا من نجا وولوا الأدبار لا يلوون على شيء . واستمر المماليك يطاردون التتار حتى أجلوهم تماماً عن بلاد الشام ، وعادت وحدة مصر والشام تحت زعامة سلاطين المماليك باالقاهرة

كان خطر التتار من النوع الداهم المفاجيء الذى لا يرتبط إلا بالرغبة فى التوسع والسلب والنهب ولا يتصف إلا بسفك الدماء والتخريب . ومع عنف الخطر التترى فإنه كان قصير العمر ، ظهر بعد قرون سبعة قرون تقريبا على مولد الدولة الإسلامية وخفت وطأته بعد ظهوره بأقل من قرن ، وذلك عندما أخذ التتار يذوبون تدريجيا فى محيط البلاد التى استقروا فيها ويتأثرون بالعقائد التى سادت فيها ، فقد أخذ الاسلام ينتشر بصورة واضحة بين التتار وعندئذ أمكن عقد صلح بين الطرفين ٧١٨ هـ — ١٣٢٠)

وترتبط الخطر الصليبي على المسلمين بأصول قديمة ترجع إلى فجر الإســلام وإلى أيام حركة التوسع الإسلامي في القرن الثاني الهجري (السابع الميلادي) إذ لم ترض الكنيسة عن ضياع بلاد مثل الشام ومصر وشمال إفريقيا والأندلس ومنها كانت كنائس راسخة ، فاذا بالإسلام يغلب عليها تدريجيا ويتحول معظم أهلها إلى قواعد راسخة فى بناء الدولة الإسلامية ، والعداء بين الصليبيين والمسلمين كان يمثل خلافا عقائديا ، أما العداء بين التتار والمسلمين فلم يكن جوهره عقائديا ، بقدر ما كان توسعيا ، استغلاليا رغم جهود القوى المسيحية فى شد التتار إلى دائرة المسيحية ، واستثارتهم ضد الإسلام وأهله وتحويل هجماتهم على بلاد الإسلام إلى هجمات صليبية ، ثم أن الحرب الصليبية التى شنها العالم المسيحى الغربى ضد الإسلام والمسلمين كانت أوسع نطاقا ، ولقد كان شعار الكنيسة الغربية : (اضربوا المسلمين حيث تعثرون عليهم)

فى الأندلس ، فى صقلية ، فى جزر البحر المتوسط فى شمال إفريقيا ، فى الشام ، فى مصر ، فى إقليم الجزيرة وآسيا الصغرى .

بل لقد خرج الصليبيون فى البحر الأحمر لضرب مقدسات المسلمين فى الحجاز واتصلوا بالحبشة بوصفها القوة المسيحية الكبرى فى وسط إفريقيا لتطويق العالم الإسلامى من الجنوب والشمال .

من الغرب الأوربى استمر خروج جموع الصليبيين فى شكل حملات ليجدوا المسلمين على مقربة منهم ، وعندما استقر الصليبيون فى بلاد الشام وأقاموا عدة إمارات وسط المحيط الإسلامى فى الشرق الأدنى ، كانت هذه الامارات على اتصال مستمر بالعالم المسيحى الغربى الذى حرص على أن يغذيها بالرجال والنساء وبالسلاح والمال مما مكن الدخلاء من الاحتفاظ بأصولهم وساعدهم على عدم الذوبان فى البيئة الجديدة وجعل منهم ركيزة لمزيد من الحملات الصليبية التى استمرت طوال قرنين تخرج من الغرب الأوربى إلى الشرق الإسلامى .

والضربة الأولى الكبرى التى وجهها المماليك كانت للتتار على أرض الشام

دون أن يغفلوا عن خطر الصليبيين ، فقد كانت المعركة مع الصليبيين هى المحك الأول الذى أظهر فيها المماليك قدرتهم العسكرية وشجاعتهم فى الدفاع عن الإسلام على أرض المنصوره فى دلتا النيل ، وقد كانوا أبعد نظرا فقرروا ألا يدخلوا المعركة ضد العدوين فى وقت واحد ، وإن كانوا قد بدأو بالخطر التترى فلأنه كان ، أكثر إلحاحا وأشد فتكا وأوقع أثرا وعملوا على تحييدهم فى المعركة الكبرى التى قرر المماليك دخولها ضد التتار .

ولكن ما كاد المماليك يحققون نصرهم الكبير ويطردونهم من بلاد الشام حتى جاء دور الصليبيين .

شن المماليك حربا شعواء على الكيان الصليبى فى بلاد الشام ووضعوا نصب أعينهم هدفا كبيرا لم يحيدوا عنه وهو ضرورة اقتلاع ذلك الكيان من جذوره وتطهير البلاد تماما من الدخلاء الغاصبين وهكذا ما كاد قطز يفرغ من انتصاره الخالد على التتار فى عين جالوت حتى بدا خليفته الظاهر بيبرس المعركة ضد الصليبيين وهى المعركة التى توجها بالاستيلاء على انطاكية ٦٦٦هـ - ١٢٦٨ م والمعروف أن (انطاكية) كانت أول إمارة أسسها الصليبيون منـــذ نحو قرنين فى بلاد الشام وثانى إمارة أسسوها بعد (الرها) .

ولذلك جاء سقوطها إيذانا بتداعى بقايا البناء الصليبى وقـد غنم المسلمون غنائم ضخمة حتى قسمت النقود بالطاسات أما الأسرى فقد بلغ من كثرتهم أنه لم يبق غلام إلا وله غلام وعندما جاء دور (إمارة طرابلس) الصليبية هاجمها السلطان المنصور (قلاوون) على رأس جيش من أربعين ألف مقاتل (٦٨٧هـ - ١٢٨٩م) واستولى عليها وعلى توابعها من مركز ومدن مثل بيروت وجبله .

ولم يبق للصليبيين فى مراكزهم الكبرى فى الشام سوى (عكا) التى اتخذوها مركزاً لمملكتهم الصليبية بعد أن استولى صلاح الدين على بيت المقدس وقد قام الاشرف خليل بالاستيلاء على (عكا) وسقطت فى قبضة المماليك ٦٩٠ هـ ١٢٩١ .

ولم يقف دور المماليك فى الدفاع عن ديار الاسلام ضد الهجمات الصليبية عن حد طرد الصليبين عن بلاد الشام ، بل إن الظاهر بيبرس ما كاد يسمع بحملة لويس التاسع على تونس ٦٦٨ م ١٢٧٠ م حتى أعد حملة للدفاع عن هذا البلد الاسلامى وشرع فعلا فى حفر الآبار فى الصحراء فى طريقهم من مصر إلى تونس .

وبعد انتهاء الحروب الصليبية لجأت البابوية ودعاة الحروب الصليبية إلى شن حرب بحرية على موانى المسلمين فى شرق حوض البحر المتوسط واتخذوا من جزيرتى قبرص ورودس مراكز لهذه العمليات الحربية ولم يكتف الغرب المسيحى بفرض حصار اقتصادى على شواطىء مصر والشام ليحرم المماليك من المورد الأساسى لثروتها وقوتها وإنما قام ملك قبرص بحملة على الاسكندرية دمر فيها المدينة وقام الأشرف برسباى بثلاث حملات بحرية على قبرص انتهت بالسيطرة على الجزيرة وأسر ملكها .

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

ملاحق

(١) السلاجقة

السلاجقة عنصر قوة فى الإسلام

كان ظهور السلاجقة على مسرح التاريخ يعد نقطة انتقال هامة فى التاريخ الاسلامى فقد نشأت عدة دويلات من هذه الزمرة الصغيرة التى خرجت من مجارى يقودها مسلمون ويدفعها حبها للمخاطرة . إما من الناحية الدينية فقد كانوا حماة الاسلام يذبون عن نبضته وينافحون عنه ونبغ فيهم رجال نصروا الحنيفة السمحة كما ظهر فى أيامهم من أدرجوا فى عداد المجتهدين .

قال هربرت لوى : أنه لا يعزى إليهم بحسب ما منى به الصليبيون من فشل ذريع بل يرجع إليهم كذلك الأثر المباشر للشرق على الغرب ، ذلك الأثر الناجم عن الاختلاط الذى كان بين الفرنج والمسلمين فى الحروب المقدسة فقد كان ظهور شأو السلاجقة مقوياً للمذهب السنى كما يرجع إليهم الفضل فى إعادة الوحدة إلى الأمارات الاسلامية المحترمة ، كما أنهم وضعو أسس الامبراطورية العثمانية فى القسطنطنية وهم مسلمون هاجروا من تركستان إلى بلاد ما وراء النهر .

ظهر السلاجقة فى وقت كانت عوامل الضعف، والانحطاط تعمل فى جسم الخلافة العباسية ، فأنقذوا الاسلام كما أن شخوصهم أضاف عنصراً جديداً إلى الاسلام مكن المسلمين من الوقوف ضد الغزاة الأوربين . فقد وحدوا الاقليم الممتد من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى حدود الهند تحت زعامة واحدة ، وإن كان لفترة محدودة ، وردوا الصليبين والبيزنطين مادين فى حياة الخلافة العباسية التى ظلت قائمة حتى تخريب المغول لبغداد ٦٥٦ هـ سنة ١٢٥٨م ويعزى إليهم قيام الدولة الأيوبية فى مصر :

قال لين بول : أحيوا عصبية المسلمين بعد ركودها ، وأوجدوا جيلا من المحاربين المسلمين المتعصبين الذين يرجع إليهم ما منى به الصليبيون من إخفاق مرات عدة وهذا ما يحمل للسلاجقة المكانة الهامة فى التاريخ الاسلامى

ثم قامت دويلات سلجوقية فى فارس والعراق والشام وآسيا الصغرى، ورفرف علم إسلامى واحد على آسيا من حدود أفغانستان الغربية حتى البحر المتوسط :

أول رجالهم طغرك بك الذى خرج لغزو بلاد الموصل وديار بكر والد أرسلان ونظام الملك فى عهده إنتصاره على ملك الروم ارمانوس وامتدت رقعة مملكته من أقصى بلاد ماوراء النهر إلى أبعد أطراف الشام .

(دكتور حسن حبشى)

(٢) قبرص

كانت قبرص قد تحولت إلى مركز الشغب والعدوان على مصر بعد أن حطمت مصر معاقل الصليبين بالشام وطردهم السلطان خليل بن قلاوون من عكا وصور وصيدا وحيفا وبيروت وخيم السكون الرهيب على امتداد ذلك الشاطىء بعد قرنين من الزمان فانهزمت ملوك الصليبين إلى قبرص فى شمال البحر وصارت تثير الشغب ضد مصر ويتصدى لسفنها التجارية وتقوم بالاغارات الخاطفة على ثغورها البحرية حتى أن ملك قبرص بطرس لوزنان سير حمله غادره خاطفة على الاسكندرية قامت خلالها بنهب المدينة وذبح عدد كبير من الأهالى .

فزع السلطان الاشرف برسباى لهذا الأمر فسير عدة حملات بحرية لتأديب قبرص ولم يرتدع القراصنة وحشد سلطان مصر أسطولا من مائة سفينة حربية وانطلق من رشيد وغايته غزو قبرص وتحطيم قوتها وقد دخلت القوات المصرية نيقوسيا واستولت عليها وعاشت قبرص تابعة لمصر قرابة قرن من الزمان ولما جاء سليم الأول إلى مصر صارت قبرص تدفع الجزية لتركيا .

٣ — فتح عكا

أطبق الاحتلال الأوربى على طرابلس ١٨٠ عاما إلى قرب نهاية الحروب الصليبية وكان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الذى نشط لمواصلة خطأ قطز وبيبرس .

كانت عكا عاصمة الصليبيين الغزاة وأكبر مدنهم فى الشرق كله ، لأن القدس التى قتلوا حين فتحوها مائة ألف من أهلها تحررت من أيديهم بعد أن ملكوها قرابة مائة سنة ولم يبق بعد تحرير القدس إلا عكا رمزاً لمملكة بيت المقدس ، وقد أتم الفتح شرف صلاح الدين خليل بن السلطان قلاوون ٦٩٠ وقد نصبوا تجاه أسوارها المجانيق الكبار ، أكثر من خمسة عشر منجنيقا لاتصيب أحجارها شيئا إلا أهلكته . المجانيق الواحد يرمى بقنطار من الحجر ، وقد حاصر جيش مصر والشام عكا من كل جهة إلا من البحر وجاء أسطول ملك قبرص غير أنه بعد ثلاثة أيام ركب سفنه وانطلق ناجيا بجلده ، وأطبق السلطان وعساكره على المدينة قبل طلوع شمس الجمعة ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧هـ وأخذهم الرعب والفزع وطلبوا البحر فمنعهم الجيش فوقعوا بين أسير وقتيل . وانتهت قصة الفرنجة الغزاة فى عكا وعادت عكا عربية مسلمة وأمن المسلمون كل أهلها ، ثم إستسلمت صور بعد قتال وكانت امتع مدن الساحل وطويت صفحة الحروب الصليبية .

فتح القسطنطينية

اتفق المؤرخون على أن العصر الحديث يبدأ بفتح القسطنطينية فى ٢٩ مايو ١٤٥٣م أن محمد الفاتح لم يفتح القسطنطينية فقط ولكنه غير تاريخ أوربا كله وذلك حين رأى محمد الخامس أن فتح القسطنطينية يحقق أملا عقائديا ويحقق للدولة العثمانية أن تقتحم فتوحها فى منطقة البلقان وحتى تكون بلاده متصلة لايتخللها عدو وكانت القسطنطينية تمثل العدوة الواقعة فى طريق الفتوحات إلى أوربا .

قارن بين أعمال جنكيز خان وتيمور لنك فى الشرق وفلال وهو ينادى فى الغرب وبين موقف محمد الفاتح من المسيحين واليهود بعد فتحه القسطنطينية كمثال .

قارن بين موقف دولة بيزنطة عندما هدمت حى المسلمين فى القسطنطينية وأبادت سكانه بعد أن علم الإمبراطور بانتصار تيمور لنك على السلطان العثمانى بايزيد الصاعقة فى واقعة أنقره ١٤٠٢ وبين محمد الفاتح فى تناسيه لهذه الحادثة والصفح عنها وعن نصارى المدينة بعد دخوله القسطنطينية .

أن الجيوش الصليبية قد أزهقت فى عملية احتلال القدس أرواح سبعين ألف نفس : يقول هـ . ج . ولز فى ذلك .

[وكانت المذبحة التى دارت فى بيت المقدس رهيبة وكان الراكب على جواده يصيبه رشاش الدم الذى سال فى الشوارع] .

ويقول ولز : أن هولاكو كان يفتح فارس وسوريا وأظهر فى ذلك الزمان عداوة مريرة للإسلام ولم يكتف رجاله بتذبيح سكان بغداد فقط بل وقد صارت أرض الجزيرة منذ تلك اللحظة التعسة يبابا من الخرائب والاطلال لا يسكنها إلا العدد القليل من السكان .

وقال سامح أى ويورى : أن الجيوش الصليبية التى تدفقت على القسطنطينية

١٤٠٢ قامت بتحويل المدينة إلى خرابة يائسة ، فقيرة معدمة ، بعد أن كانت غنية معمورة يسودها الرخاء .

وعندما دخل شارل الخامس تونس ١٥٤٠ لم يترك حيا أمامه إلا قتله ولم يسلم من وحشيته حتى الجمال والقطط (شهاب الدين يكن داغ فى مذكراته عن الدولة العثمانية) .

أما السلطان محمد الفاتح فقد كان رحيما فلم يطق شريعة الحرب فى القرون الوسطى وهى نفى شعب المدينة المفتوحة إلى مكان آخر أو بيعه فى أسواق النخاسة ولكنه قام بتسامح واسع ، فأطلق سراح الأسرى فورا نظير مقابل مادى قليل يسدد على أقساط طويلة المدى . وقام باسكان الأسرى الذين كانوا من نصيبه فى المغانم فى المنازل الواقعة على ساحل الخليج ، لم تغتصب امرأة ولم يمس شيخ عجوز ، ولا طفل ، ولا راهب بأذى ولم تهدم كنيسة ولا صومعة ولا دير مع أن المدينة أخذت بالحرب ورفضت التسليم .

كان من الحق الفاتح مادامت المدينة قد أخذت عنوة أن يكون هو مالكا لكل مافى المدينة وكان من حقه تحويل نصف الكنائس والبيع وعلى مدى زمنى طويل إلى صوامع ومساجد ولكنه لم يفعل ، فقد أعترف لليهود بملكيتهم لبيعهم كاملة وعين بطريقا للأرمن وأعاد للأرثوزكس كرامتهم التى أهدرها اللاتينيين الكاثوليك .

والمعروف أن أوربا كانت تعيش إلى ما قبل فتح القسطنطينية فى العصر الاقطاعى الذى كان يمثله الاقطاعيون الذين يعيشون داخل حصون مسورة بأسوار ضخمة ، وكان هذا رمز العصور الوسطى فى الغرب .

فلما اخترع العثمانيون المدفع الهاون والمدفع الضخم ، وانهارت أمام طلقات المدفعية العثمانية أسوار القسطنطينية ثم أخذ المدفع فى الانتشار وأخذت أسوار الاقطاعيين فى التهاوى والسقوط فانتهى عهد الأمراء الاقطاعى المستبد ، وأخذت الدول تتشكل ومنها ظهرت بداية التاريخ الحديث ، ومن هنا فإن فتح العثمانيين للقسطنطينية هو مفتاح العصر الحديث

(محمد حرب عبد الحميد)

(٢)

كان فتح الترك العثمانيين لقسطنطينية من أعظم الحوادث الحاسمة فى تاريخ الشرق والغرب والنصرانية وكان له أعمق الآثار فى تحويل سير التاريخ فى خاتمة العصور الوسطى والعصر الحديث وكان الفتح فى ٢٩ مايو ١٤٥٣ على يد السلطان محمد الثانى الذى أسبغ عليه قيامه بهذا الفتح العظيم لقب الفاتح وخلد اسمه بين أعظم الفاتحين فى التاريخ .

ولم يكن فتح القسطنطينية فتحا لحاضرة من حواضر العالم القديم ولم يكن فقط غنما إقليميا وسياسيا عظيما للدولة العثمانية الفتية ، بل كان حادثا أجل وأخطر من ذلك بكثير ، كان عنوانا لأعظم المعانى الأدبية والتاريخية والدينية والفلسفة التى ترددت مدى عصور بين شطرى العالم القديم وكان تحقيقا لأعظم الأمانى التى جاشت بها الأمم الاسلامية زهاء ثمانية قرون .

كانت الخلافة الإسلامية تطمح إلى أن تحمل رسالة الإسلام إلى الغرب كما حملتها إلى أمم المشرق ، وكانت ترى فى (الدولة الرومانية الشرقية) مجازها الطبيعى إلى الغرب وفى عاصمتها قسطنطينية حصن النصرانية الذى يجب اقتحامه لتحقيق هذه الغاية ، ومن ثم فإن قسطنطينية كانت منذ الساعة الأولى هدف الغزوات الإسلامية .

ومنذ خلافة عثمان نرى العرب يحاولون فتح عاصمة الدولة الشرقية فى سلسلة من الحملات البرية والبحرية الشريدة . بدأت هذه الحملات سنة ٦٥١م ثم تكررت فى بداية الخلافة الأموية فى عهد معاوية فسار العرب إلى فتح قسطنطينية وقاموا بحصارهم الأول لها فى سنة ٦٦٩ م واستمرت هذه الحملة تحت أسوار قسطنطينية زهاء سبعة أعوام تعاود حصارها فى كل صيف .

وفى ٧١٧م قامت الخلافة بأعظم محاولاتها لفتح قسطنطينية فسيرت إلى عاصمة الدولة الشرقية جيشاً عظيما سار إلى مياه المرمرة أعظم أسطول وقام العرب بحصارهم الثانى لقسطنطينية وبذلوا لأخذها جهودا فادحة ولكنهم ارتدوا عنها عند دخول الشتاء .

وكانت قوى الإسلام قد جاوزت بوقفه فى زحفها المظفر نحو الغرب مضيق جبل طارق وافتتحت أسبانيا ثم عبرت جبال البرنية وغزت جنوبى فرنسا ، وكان بوادر المعركة الحاسمة بين الشرق والغرب وبين الإسلام والنصرانية يتجمع فى الأفق ؛ ووصلت الجيوش الإسلامية إلى قلب فرنسا فى ربيع ٧٣٢ م بقيادة عبد الرحمن الغافقى أمير الأندلس .

والتقت على صفات نهر اللوار بجيوش الفرنج بقيادة كارل مارتل ونشبت بين الفريقين معركة تورا وبلاط الشهداء الشهيرة التى انتهت بارتداد المسلمين .

واستمر الصراع بعد ذلك قرونا بين قوى الدولة البيزنطية وبين قوى الإسلام ، وكانت قوى الإسلام تنساب من الجنوب والشرق إلى آسيا الصغرى فى غزوات لا تنتهى وكانت الدولة الرومانية الشرقية تحمل تراثها القديم مزهوة آمنة حتى كانت وثبة الترك العثمانيين واكتساحهم آسيا الصغرى فى القرن الرابع عشر الميلادى وختام الدولة العثمانية الفتية على حدود الدولة البيزنطية ، وكانت قسطنطينية مزهوة آمنة وكأنها لؤلؤة ساطعة ، وبذل الترك لأخذها جهودا متوالية وحاصروها عشر مرة ، حتى كان السلطان محمد الثانى حين حزم أمره على أخذها وحاصرها فى ربيع ١٤٥٣ بجيش ضخم واستمر الحصار ثلاثة وخمسين يوما وبذل آخر القياصرة جهدهم اليائس فى الدفاع عن حاضرته ولكن عزيمة المسلمين الترك حملت فى طريقها كل شىء ، واقتحم الترك قسطنطينية فى اليوم التاسع والعشرين من مايو ١٤٥٣ ودخل السلطان قصر القياصرة وأدى صلاة الجمعة الأولى فى كنيسة اياصوفيا لؤلؤة الآثار البيزنطية .

وهكذا تحقق حلم الخلافة والإسلام القديم على يد الترك العثمانية وغدت عاصمة الدولة الرومانية الشرقية مدينة إسلامية .

وكان فتح القسطنطينية عملا إقليميا وسياسيا بفتح الطريق للترك لزحفهم المظفر إلى بلاد البلقان وأوربا فقد استطاعوا بعد ذلك أن يتوغلوا بعيداً فى قلب أوربا وأن يصلوا إلى مدينة فينا وأن يفتحوا سائر الأقاليم الواقعة فى حوض الدانوب وأن يسندوا أعظم امبراطورية إسلاميـــة منذ الدولة الأموية .

(محمد عبد الله عنان)

(٣)

قال السلطان محمد الفاتح لرجاله قبل بدأ المعركة :

إذا تحقق لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزة من معجزاته وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التقدير فأبلغوا أبنائنا العساكر فرداً فرداً أن الظفر العظيم الذى ستحرزه سيزيد الإسلام قدرا وشرفا ويجب على كل جندى أن يجعل تعاليم ديننا الحنيف نصب عينه فلا يصدر عن واحد منهم ما ينافى هذه التعاليم وليجتنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى .

وقد ظل الجند المسلمون طوال ليلهم يهللون ويكبرون حتى إذا لاح الفجر صدرت إليهم الأوامر بالهجوم .

وكان محمد الفاتح قد أرسل إلى قسطنطين يخبره بأنه لو سلم البلد إليه طوعا يتعهد له بعدم مس حرية الأهالى او أملاكهم وأن يعطيه جزيرة موره فلم يقبل قسطنطين بذلك .

ولم يكن فتح القسطنطينية أمراً سهلا كما يحلو لبعض المؤرخين أن يصوروه بسبب ضعف الدولة البيزنطية والانشقاق الكنسى فى الشرق والغرب ، بل الحق يقال : أن الجنود الإسلاميين بذلوا أرواحهم رخيصة فى سبيل ذلك . وكانوا

بالتضحية والفداء حتى تم لهم النصر المبين ، كما أن السلطان محمد أعد كل ما يمكن من الوسائل العسكرية الناجحة ولم يشك لحظة فى ثقته بنصر الله عز وجل حتى تم له ذلك وصدق المؤرخ الفرنسى الشهير (كارادى فو) فى قوله فى هذا الصدد : أن هذا الفتح لم يتيسر لمحمد الفاتح اتفاقا ، ولا يتيسر بمجرد ضعف الدولة البيزنطية بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل ويستخدم له ما كان فى عصره من العلم .

وكان من آثار هذا الفتح أن اتحد كلا من القسمين الجنوبى والشمالى ، الآسيوى والأوربى للدولة الإسلامية العثمانية وتحولت العاصمة من ادرنه إلى القسطنطينية التى سميت بأسماء عدة (إسلام بول) أى مدينة الإسلام ودار السعادة واسمها الرسمى الاستانة وفى العهد الكمالى (استنبول) وأصبحت القسطنطينية بعد ذلك قاعدة للأعمال العسكرية فى الشرق والغرب وامتد النفوذ الإسلامى إلى شواطىء البحر الأسود الشمالى وكييف (حاليا فى روسيا) وإلى المجر واليونان وسواحل البحر الأدرياتيكى وإلى شرق المتوسط .

(خليل حسن فخر الدين)

الباب السادس

عودة الأندلس

تتعالى اليوم صيحات فى جوانب أسبانيا والبرتغال بظهور جماعة المسلمين مرة أخرى فى هذا الجزء من العالم بعد أن مضى على خروج المسلمين منه أكثر من خمسة قرون ، وبعد أن عاش الإسلام فى الأندلس ثمانمائة سنة ، فقد دخل المسلمون أسبانيا ٧١١ م وخرجوا منها ١٤٩٢ وقد تركوا فيها حضارة باذخة وجامعات تشتغل بالعلوم التجريبية ، التى كان المسلمون هم صناعها ومنها نفذت إلى أوربا وكانت فى حقيقتها الأساس الذى قامت عليه الحضارة الحديثة .

يقول الدكتور خالد الصوفى : أن الحضارة الأندلسية الإسلامية كانت أرقى حضارة عرفها العلم وقتذاك . فنى الوقت الذى كان فيه الخلفاء المسلمون والناس بصورة عامة يقبلون على القراءة والتأليف والبحث ، كان أهل أوربا مازالوا غارقين فى جهالة العصور الوسطى ، بل أن معظم الأوربيين كانوا يجهلون فى ذلك الوقت القراءة والكتابة ، بينما كانت مدن الأندلس الرئيسية وهى قرطبة وغرناطة واشبيلية ومالقة وغيرها مليئة بالنساخين والكتب ومن ثم كانت الأندلس الإسلامية هى نقطة الإشعاع العلمى والأدبى والثقافى فى عالم العصور الوسطى ، ومن ثم انتشرت حضارة الأندلس فى القارة الأوربية وتعددت السفارات الدبلوماسية والمبادلات التجارية بين الأندلس والأقطار الأوربية التى كان يدهش سكانها لما رونه من عظمة الدولة الإسلامية وتقدم حضارتها وازدهار أحوالها ، وعلى ذلك فإن القرون الثمانية التى قضاها العرب فى ربوع الأندلس أنتجت حضارة رائعة فريدة من نوعها ساهم فى إيجادها الفكر الإسلامى والبيئة الاسبانية معا ، فجاءت متفوقة على ماعداها فى تلك العصور ، ذات تأثير عميق فى ثقافات البلدان المجاورة لها ، قادرة على أن تحفر لها مجرى ثابتا فى تلك البقعة من العالم ، عدا ما حفلت به تلك الفترة الذهبية

من مؤلفات فى الأدب واللغة والتاريخ دون أن تخلو من ذلك حقبة من حقباتها . وليس من شك فى أن وجود العرب فى شبه الجزيرة الايبيرية إذا ما احتفل بالمؤلفات والأبحاث والآراء المفيدة ، لو استمر فترة أطول لأدى للإنسانية خدمات أعظم وأكبر فائدة .

أما ماذا ذهب أحدهم إلى القول بأن الدولة العربية فى الأندلس قد تفككت فى أواخر أيامها وضعفت وصارت الدول الأسبانية الشمالية تهدد وجودها ، وبالتالى فلا بد أن يكون نتاجها الأدبى قد ضعف فإنه حتى فى تلك الظروف التى ظلت فيها مملكة غرناطة وحيدة فى الميدان تدافع قرابة المائتى سنة عن مصالح الدولة الإسلامية فى غرب البحر الأبيض ، فإن الفكر العربى لم يتوقف عن الإنتاج ووصلتنا مؤلفات هامة أدبية وتاريخية عديدة فى تلك الفترة ، كان فى مقدمتها مؤلفات لسان الدين بن الخطيب التى تبرهن على أن العقم لم يصب الفكر الإسلامى فى الأندلس وأن تلك البلاد ظلت منارا للعلم حتى آخر لحظة من وجودها ، لذلك أكاد أجزم أنه لو امتد عمر تلك الدولة لكانت هناك إضافات جديدة ، ولكانت هناك إرادة جديدة ، ولكان هناك بالتالى حضارة أوسع وأعم وأشمل فى مجالات الادب واللغة والتاريخ وغيرها من العلوم .

* * *

حضارة الأندلس التى انبثقت من تفاعل الحضارة العربية الإسلامية فى تلك البيئة الأسبانية الغربية : ذلك التفاعل الذى أنتج حضارة كان لها أكبر الأثر فى ظهور العالم المتمدن الذى نعيش فيه اليوم وبشكل أوضح فى ظهور النهضة الاوربية التى أدت إلى وصول العالم إلى ماهو عليه من رقى وتقدم .

وكان من الطبيعى أن تنتقل علوم الأندلس وصقلية إلى الأقطار الاوربية المجاورة كى تستفيد منها وتبنى نهضتها عليها ولما خرج العرب من أسبانيا ١٤٩٢ خلا الجو لأسبانيا ولاوربا كلها بصورة عامة لتغترف بنهم مما تركه حكام العرب المستنيرون من مختلف مجالات الثقافة ، فأخذ شأن الأقطار

الأوربية يعلو بينما أخذت الأقطار العربية تغط فى ثبات عميق لم تستفيق منه إلا فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى .

* * *

يقول جوستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب .

أن همجية أوربا ظلت واضحة مدة طويلة من غير أن تشعر بها ولم يبد عند بعض الأوربيين الميل إلى العلم فى القرن الحادى عشر والثانى عشر على الخصوص ، فلما ظهر أناس رأوا أن يرفعوا اكفان الجهل الثقيل عن عقولهم ولوا وجوههم شطر العرب الذين كانو أئمته وحدهم .

لم تكن الحروب الصليبية سببا فى إدخال العلوم إلى أوربا كما يتردد على ألسنة الكاتبين ، وإنما دخلت العلوم أوربا من أسبانيا وصقلية وإيطاليا فمنذ سنة ١١٣٠هـ بدأ مكتب فى صقلية تحت رعاية رئيس الأساقفة ريمون ينقل أهم كتب العرب إلى اللاتينية فكللت أعماله من هذه الترجمة بنجاح . ولم يقتصر الغربيون على ترجمة أعلام العلماء العرب إلى اللغة اللاتينية مثل أبى بكر الرازى ، الذى يعد من أعظم الأطباء والكيميائيين الذين عرفهم التاريخ ، وله بحوث هامة فى مواد الجراحة الرمدية والولادة وأمراض النساء وقد ترجمت معظم مؤلفاته إلى اللغة اللاتينية ونشرت بعد ذلك بمختلف اللغات الأوربية .

فقد ترجموا الخوارزمى وابن سينا وابن رشد ولم تعرف كتب العالم اليونانى القديمة إلا من خلال ترجمتها إلى اللغة العربية ، وبفضل هذه الترجمة استطاع العالم الأوربى أن يقرأ كتب اليونان التى ضاع أصلها .

يقول جوستاف لوبون : وإذا كان هناك أمة نقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة ، لا رهبان العصور الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان فعلى العالم أن يعترف بجميل صنعهم فى إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافا أبديا » .

ولقد اتجه مثقفوا أوربا إلى بلاد الأندلس يغدون على معاهدها وجامعاتها ينهلون من معارف المسلمين .

ولقد تخرج على كتب العرب كثير من علماء أوربا مثل روجر بيكون الذى كان مدينا لكتابات الحسن بن الهيثم أشهر العلماء المسلمين فى علم الطبيعة والذى أثبت أن للضوء زمانا وسرعة ينتقل بها وهو الذى أبطل علم المناظر الذى وضعه اليونان وأنشأ علم الضوء بمعناه الحديث .

لقد قدمت الأندلس للعالم الأوربى كل مقومات الحضارة وسلمت كل المعارف من نتاج القرائح العربية إلى تلاميذها فى أوربا ثم أخذ الأوربيون ينسبون لأنفسهم فضل العلم والمعرفة والسبق فى مضمار الحضارة والتقدم ، لقد تناول الأوربيون مشعل العلم والحضارة من أيدى المسلمين فاستضاءوا بهما بعد ظلمة .

(محمد رجاء حنفى عبد المتجلى)

الفصل الثانى

صمود فى المحنة

لم تستغرق موجة الفتح الاسلامى للاندلس سوى أربع سنوات وعدة أشهر (٧١١ — ٧١٥) فوصل العرب فيها إلى جبال البرانس الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا .

جاءت فى أعقاب فترة الفتح فترة أخرى امتدت قرابة أربعين سنة (٧١— ٧٥٥) كانت الأندلس فى خلالها ولاية تابعة لدمشق مركز الخلافة الأموية ثم أقبل إلى الأندلس عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) وانشأ إمارة قرطبة عام ٧٥٦ وبعد نضال طويل مع زعماء العرب ثبت دعائم السيادة العربية .

وهكذا قدر بعد مرور ست سنوات على سقوط الخلافة الأموية فى دمشق أن ينهض أحد أفراد الأسرة الأموية نفسها فيشيد صرح ملك جديد دام حوالى قرنين ونصف القرن كانت قاعدته فى قرطبة ثم اشبيليه فغرناطة ونهض بعد عبد الرحمن الأول سبعة امراء من خيرة من عرف المسلمون من حكام كفاية وعدلا وحزما ويعد عبد الرحمن الناصر أعظم الحكام الذين عرفتهم أسبانيا المسلمة وأصبحت (قرطبة) فى أيامه درة العالم وكعبة الحضارة وهو أول من اتخذ لقب الخليفة ٩٢٩ وتسمى بالناصر لدين الله .

وفى عصر هشام بين الحكم سيطر محمد بن أبى عامر على الحكم وتلقب بالمنصور وقد تمكن من توسيع رقعة الإسلام فى الأندلس .

وجاء ملوك الطوائف أثناء ضعف خلافة قرطبة ، حيث انتهز ملوك النصارى الفرصة فأخذوا فى الادالة من مملكة الأندلس ، وقد نهضت دولة المرابطين فى شمال أفريقيا بقيادة يوسف بن تاشفين لنجدة ملوك الطوائف فهزم الملك

الفونسو السادس فى معركة الزلاقة (٢٣ أكتوبر ١٠٨٦) فى معارك اقليش (١١٠٨) وإفراغه (١١٤٣) .

وفى عام ١١٥٠ عبر الموحدون إلى الأندلس ليعملوا على الحفاظ على مابقى منه ونجحوا فترة قصيرة فانتصروا على المسيحيين فى معركة الارك ١١٩٥ ثم لم يلبثوا أن انهزموا فى معركة العقاب (١٢١٢)

عبد الرحمن زكى

(٣)

فى عام ٩٢ هـ (٧١١ م) زحف جيش إسلامى من العرب والبربر فى سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثى حاكم طنجه (ينتمى إلى بطن من بطون البربر) كان جندياً عظيماً أظهر فى غزوات المغرب شجاعة وبراعة مما أدى إلى اختياره لحكم طنجة وما حولها وهى أخطر مناطق المغرب فى ذلك الوقت وأشدها ضراما ، ثم أختير لفتح الأندلس عبر طارق البحر ونزل فى القلعة إلى تحمل اسمه اليوم (أعنى جبل طارق) فى رجب ٩٢ (٢٧ أبريل ٧١١) فهزم من تصدى له وتابع سيره جنوب عاصمة القوط حيث تحركوا فى مائة ألف ، وأمد موسى بن نصير طارقاً بخمسة آلاف مقابل : وجاءت المعركة الحاسمة فى سهل شريس على مقربة من نادس ٢٨ رمضان ٩٢ وانتصر المسلمون بعد اليوم الرابع وهزم القوط شر هزيمة وغرق ملكهم رودور فى النهر

وكانت شذونة موقعة الفصل ومنها دالت دولة القوط وعم الاسلام ملك أسبانيا وقد عبر إلى العدوة سيل من المجاهدين من العرب والبربر وزحف طارق بجيشه شمالا صوب طليطلة عاصمة المملكة القوطية وأرسل حملات متفرقة إلى قرطبة وغرناطة والبيرة ومالقة ومرسية فافتتحت كلها تباعا وبعد أن استولى طارق على طليطلة تابع زحفه شمالا فاخترق قستاله وليون ثم عبر جبال (استورباس) واستمر حتى أشرف على شواطى بسكوينة وعبر موسى البحر

فى عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر ونزل بولاية الجزيرة فى رمضان ٧٣ وبدأ زحفه بالاستيلاء على مدينة شذونة ثم سار إلى قرمونة أمنع معاقل الأندلس فاستولى عليها ثم قصد إلى أشبيليه أعظم قواعد الأندلس فافتتحها بعد أن حاصرها شهراً ثم سار إلى ماردة وقصد إلى طليطله فالتقى بطارق ثم وضع الاثنان خطة مشتركة لافتتاح ما بقى من أسبانيا ثم نفذ موسى إلى مملكة الفرنج وغزا وادى الرون حتى مدينة ليون وكان يطمع فى اقتحام أوربا حتى يعود إلى دمشق من القسطنطينية .

وتم للمسلمين الاستيلاء على جزيرة الأندلس إلا جزءاً صغيراً جبليا فى الشمال الغربى لأسبانيا تركوه ولم يهتموا بشأنه واجتازوا جبال البرنية ووصلوا إلى مدينة تور فى فرنسا ٧٣٢ غير أنهم اضطروا إلى الانسحاب إلى جنوب فرنسا وأسبانيا أثر معركة بلاط الشهداء واستشهاد قائدهم عبد الرحمن الغافقى .

هذا الجزء الشمالى الذى يسمى (جليقية) كان هو النقطة التى بدأت منها الانتقاص مع الدول الاسلامية ، والتى مازالت تنمو حتى طردت العرب من الأندلس بعد ثمانية قرون .

× وحين أن وقفت الجيوش الإسلامية فيما وراء البرانس أثارت أوربا للتحفز واليقظة فى الوقت الذى أهملت فيه إعداد الشعب إعداداً إسلاميا : كان على قادة المد الإسلامى فى الأندلس أن يتوقفوا فيها ليركزوا جهودهم لإعداد الشعب الإسبانى إعداداً إسلاميا حتى إذا نضج حمل الراية واندفع فى قلب أوربا حيث شغل الفاتحون بالتمتع بثمرات البلاد المفتوحة ومشوا الطيلسان وخدمهم أبناء الروم فضرب الله قلوبهم بعضهم ببعض فنالت منهم عوامل العصبيات القبلية والعرقية وظلوا عناصر غريبة عن المجتمع الجديد لم يتذوقهم ولم يهضموه إلى أن تم إخراجهم نهائيا .

وكانت البقعة الصغيرة التى تركوها شمال غربى أسبانيا دون فتح مركز المقاومة خطر عليهم ومن ثم مصدر الإغارة على مملكتهم .

وظلت أسبانيا بلدا إسلاميا منذ عام ٧١١ وحتى عام ٢٤٩٢ وهو عام سقوط (غرناطة) والتى كانت تعتبر آخر قلعة إسلامية فى شبه الجزيرة الايبيرية .

وقد بلغ أوج الازدهار فى الأندلس سنة ١٠٠٠ م حيث كانت (قرطبة) عاصمة الأمويين العربية ومعقل الثقافة فى العالم وقلبها النابض إلى الحد الذى نافست فيه بغداد بل فاقتها فى كثير من النواحى .

وكان سكان قرطبة نصف مليون نسمة وبها أكثر من مائة ألف منزل وبضعة مئات من المساجد وسبعون مكتبه وعدد من القصور والحمامات وكان بناء الزاهرة حيث اشترك فى البناء عشرة آلاف عامل ، وجعل الله الأندلس حقلا للحضارة الإسلامية فى قلب أوربا فقد نقل المسلمون إليها طرق الزراعة والعلوم وثمرات الحضارة كلها ، الزروع والكروم والخيول والبذور وقصب السكر والأرز والمشمش والرمان والبرتقال .وكان تعريب شبه الجزيرة الأيبيرية فى القرن الثامن والقرن الخامس عشر من أهم عوامل نهضة أوربا الغربية .

(فاخر عبد الرزاق المناع)

وقد بلغ عدد الجامعات خمسين جامعة ومدرسة فى قرطبة وتفوقت هذه الجامعات بالطب والفلسفة والرياضيات والكيمياء والفلك وعلم تفسير الأحداث حسب مواقع النجوم وظل هذا التراث يؤثر فى الفكر الاوربى حتى القرون الحديثة .

وكانت مملكة غرناطة آخر الممالك الأندلسية وبالرغم من العمر الطويل الذى قدر لها كانت تواجه الخطر الداهم دائما وتترقب نمو جارتها المملكة النصرانية الاسبانية فى خوف وجزع ، وعاشت غرناطة المائتين العامين الأخيرين (٦٣٠ — ٨٩٨) وقد بلغت غرناطة من الارتقاء ما بلغته قرطبة .

* * *

بدأ العصر الذهبى للأندلس ابتداء من حكم عبد الرحمن الناصر الذى بدأ ٩١٢م حيث هاجر ألوف من النصارى الشماليين إلى بلاد الأندلس لينعموا بالامان والعدل فى ظل دولة الاسلام وكان رجعا بطيئاً لم يشعر به أحد ،

وكان أولئك المهاجرون يستقرون فى مشرق الأندلس ، وكان المسلمون يرضون بهذه الهجرة لأن البلاد كانت فى حاجة إلى أيد عاملة ولكن النتيجة كانت وبالا القرن التالى عندما سقطت دولة الخلافة وانقسم الأندلس إلى ممالك الطوائف فقد تبين أن إعداد النصارى فى الأندلس كانت تزيد على إعداد المسلمين فى الجملة وكان لهذا أثره البعيد فى مصير الأندلس .

(٥)

بقى للأسبان بعد الفتح الإسلامى جزء منعزل فى الشمال الغربى من شبه الجزيرة الايبرية يعرف باقليم (جليقيه) لم يطمع العرب فى امتلاكه لفقرة وبرده ، فانحاز إليه البقية الباقية من نبلاء القوط المغلوبين ورجال الدين ونبتت فيه بذرة الدول الأسبانية التى لا تزال باقية حتى الآن ، وقد ظلوا يترقبون الفرص لتوسيع رقعتهم .

فلما كانت الحروب الأهلية بين عرب الأندلس من ناحية وبين البربر من ناحية أخرى انتهز النصارى الفرصة ووصلوا بملكهم إلى صفاف نهر دويره واحتلوا مدينة ليون وجعلوها عاصمتهم ، وأصبحت مملكتها تسمى مملكة ليون ، وظل أمرها على هذا المثال وهى تتسع رويداً رويداً فى المنطقة التى خلت بنزوح البربر إلى الجنوب أو بعودتهم إلى أفريقيا على أثر انهزامهم أمام العرب ، حتى إذا ماوصلت إلى عصر ملكهم الفونسو الثالث نجد هذه الإمارة تحتل مدينة سموره ، وأصبحت حصن إمارة ليون المواجهة للمسلمين عند غزوهم لبلاد النصارى وقد هاجمها المسلمون وخربوها مراراً حتى سميت عندهم (سمورة الخراب) وقد بدأت هذه الإمارات النصرانية متاخمة لأوربا مما ساعدها على الاتصال المباشر بالبابوية والعالم الكاثوليكى .

(٦)

فى وسط هذه المحن القاسية قاوم الفقهاء والمجاهدون هذا السيل النصرانى تماماً كما فعل زملاؤهم فى المشرق أمام ضربات الصليبين فى البلاد المقدسة فاستشهدوا فى سبيل الله ، وكان منهم أبا على الصدفى ، وأبا الربيع سليمان سالم

وكان سنة قد تخطت السبعين وظل فى المعركة يجاهد حتى أكلته السيوف ومنهم محمد بن يوسف بن هود البطل المقدام الذى قطع الأندلس من جنسية إلى مارده والسيف فى يده حتى استشهد فى قتال على مقربة من حصن صغير كان يعرف بالبسط .

وفى وسط هذا الطوفان استطاع فارس عربى أندلسى هو محمد بن الأحمر أن يعتصم فى غرناطة وماحولها حتى وادى اش فى المغرب ، ومالقه فى المشرق ، وأنشأ إمارة عربية تجمعت فيها جماعات من المهاجرين المسلمين من البلاد التى سقطت وحصن هذه النواحى تحصينا منيعا واستطاع أن يصمد لهجمات الممالك المسيحية ابتداء من عام ١٢٣١ إلى آخر عام ١٢٣٨ وفى هذا القطاع الجنوبى الصغير صمدت مملكة غرناطة الإسلامية .

وكذلك موسى بن الغسان رفض أن يسلم وأصر على أن يقاتل حتى يموت ومن معه من فتية آمنوا بربهم عارضوا التسليم قال ابن أبى الغسان لأبو عبد الله المعروف بالزغل آخر ملوك الأندلس : ياملك المسلمين قل لملك النصارى أن العربى لا يقبل الحيف مادام يحمل السيف ، وأن الأبى الحر يفضل أن يكون له قبر فى انقاض غرناطة عن أن يكون له قصر فى رياض اندرس (فى حمى فردنياند وايزبيلا) فلم يسع أبا عبد الله إلا أن ينزل على حكم القادة فطوى المعاهدة واتخذ الأهبة للدفاع .

وحاصر مرج غرناطة ثمانون ألفا من جنود قشتالة .

وكان لفروسية أبى الغسان حملات مظفرة ارهقت قوات العدو ، غير أن القشتاليين احكموا الحصار على غرناطة واهلكوا ماحولها من الزرع وحاولوا بينها وبين المدد من البر والبحر .

ودام الحصار الشديد فى الشتاء سبعة أشهر قل فيها القوت وقال الغسان لرجاله : لم يبق لنا من الأندلس كلها إلا الأرض التى نقف عليها فإذا فقدناها فقدنا الوطن والحرية .

ثم حمل بهم على المحاجرين حملة صادقة فكسرهم ولكنهم عادوا فأطبقوا عليهم .

ومس الجنود الضر ، واجتمع رأى الملك والفقهاء والزعماء على التسليم ولكن موسى نهض يفند الرأى .

قال : ياقوم : أن وسائل دفاعنا لم تنفذ بعد فما زلنا نملك الوسيلة التى تبطل المستحيل وتصنع المعجزات وهى اليأس ، فلنحي فى نفوس الشعب روح التضحية ولنضع فى يده السلاح ولنقاتل حتى نفنى جميعا . وإذا لم يجد كل منا القبر الذى يواريه فإنه لن يعدم السماء التى تغطيه .

فاعرضوا عنه ، فلما رأى الوزراء يخرجون ليفاوضوا العدو قال : أن الأسبان لن يفوا بما يعاهدون عليه ، أن الموت أقل ماتخشون وستنرون إذا سلمتم مدينتنا أنها ستخرب وأموالها ستنهب ونساءنا تستباح ومساجدنا تدنس ونواصينا تذل ثم نهض مسرعا من مكانه فاجتاز بهو الأسود ومضى لايلوى على أحد حتى دخل داره فلبس سلاحه وركب جواده وخرج إلى ظاهر غرناطة .

أبصره الجنود فاستوقفوه ، فعمد إلى كبيرهم فانتزعه من سرجه وضرب به الأرض ثم حمل عليه حملة من يطلب الموت وهجم وضرب حتى قتل أكثرهم ثم تناوشته السيوف من كل جهة ، فخرج وأصابت الرماح فرسه فصرع ، فلما خر مضرجا بدمه ترجل الفرسان ليحيوه أو ليأسروه فجثا على ركبته واستل خنجره وأخذ يثخن فيهم حتى خارت قواه من كثرة مانزف من دمه .

وخشى أن يقع فى أسر عدوه فارتد إلى الوراء وقذف بنفسه فى النهر فغاص من ثقل دروعه إلى قاعه .

(٦)

بضيف كاتب أوربي الخسارة الفادحة التى حلت بأسبانيا وكان سببها الهوس الدينى : فيقول : لم يعرف الأسبان عندئذ ما كانوا يفعلون ، إذ أنهم فرحوا أشد الفرح بنفى العرب وذلك لأنهم سئموا الحياة الرتيبة (لوب دى فيفا) يغنى أغنيته المثيرة التى مطلعها (الحكم العادل) ولم يدروا أنهم قتلوا أوزتهم الذهبية . ترى كيف قتلوا أوزتهم الذهبية .

اترك الكاتب الأسبانى المسيو كوندو يصف مقتلها :

فى سنة ١٦١٠ م أنجز فيليب الثالث العمل الذى كان بداية والده وهو نفى زهاء نصف مليون من هؤلاء البائسين إلى أفريقية فأمر بانزالهم على الساحل ، أما سكان الشمال وكان عددهم لا يقل عن مائتى ألف نسمة وهم البقية الباقية من ذلك الشعب القوى الباسل ، فقد طردوا من غير شفقة ولا رحمة إلى فرنسا حيث اضطر من بقى منهم حياً بعد مذابح الأسبان وأهوال الطريق النزوح إلى البلاد الإسلامية ، وبلغ عدد الذين طردوا من أسبانيا منذ سقوط غرناطه حتى عهد الملك فيليب ثلاثة ملاين نسمة .

(٧)

الموريسكوس : هم المسلمون الذين بقوا فى أسبانيا بعد ذهاب دولة الإسلام نهائيا من شبه الجزيرة الايبيرية بسقوط غرناطه آخر عاصمة لهم على يد ايزابيل وفرناندو وخروج أبى عبد الله منها آخر ملك عربى مسلم من أسرة بنى الأحمر أو بنى نصر .

وكان بيدهم الزراعة والتجارة والمهن الميكانيكية حتى صاروا سادات أسبانيا وملاكها ، كانوا يقتصدون فى أكلهم وملبسهم ، وفى أثاث بيتهم حتى استطاعوا أن يسيطروا على كل شىء ، ويضاهوا أشراف أسبانيا الذين هم أقل منهم عملا وأكثر ترفا :

فى شروط التسليم أن يبقى المسلمون أحرار فى دينهم ولغتهم ولباسهم وعاداتهم وأموالهم وأرضهم فلا يكرهون على شىء ، ثم لم يلبثوا أن نكثوا بعهدهم وعمدو إلى إزالة كل أثر للإسلام فى الأندلس ، وقد ثار المسلمون أكثر من مرة ازاء المعاملة الوحشية .

وقد حرص المسلمون على الاحتفاظ باسلامهم يختنون أولادهم ولم يكن أحد يأكل الخنزير أو ينقطع عن صيام رمضان ، وقد اكتشفت نسخ من القرآن وكانوا يتكلمون فيما بينهم بالعربية . وكانوا بكدهم ونشاطهم يصيرون أغنياء رغم الضرائب الباهظة التى كانوا يؤدونها ، كانوا أغنى من النصارى الذين يسكنون الأراضى الخصبة وظلت أحوالهم فى اضطراب وقلق طوال أربعين سنة بعد قمع ثورتهم الكبرى فى غرناطة وكانوا يعيشون على أمل النجدة التى يمنون أنفسهم بوصولها من شمال أفريقيا أو من استانبول .

وأخيرا تقرر طردهم عام ١٦٠٨ فتم طردهم ١٦١٠ حيث جمعوا مئات الألوف منهم على الشواطىء وفى عملية تهجير بشعة ، وضعت هذه الأكداس البشرية فى المراكب وقذف بهم على الشاطىء الآخر من تطوان والجزائر وتونس وحيل بين الآباء والامهات حين منعوا كل من دون البلوغ من الهجرة لسهولة تنصيرهم وقد فتشت منازلهم فوجدت بها كتب الدين ومصاحف مكتوبة بالالوان الحمراء والزرقاء فتحقق لهم أن هؤلاء الموريسكيين لم يكونوا فى يوم من الأيام نصارى حقيقيين .

(٨)

ومنذ ١٥١٦ كان خير الدين بربروسا وأخوته قد استقر الجزائر واتخذها قاعدة للصراع المستمر مع قوة أسبانيا البحرية ، وكان المسلمون الذين ازعموا على الفرار من الأندلس قد جعلوا من الشمال الافريقى قاعدة لتحديهم السفن والسواحل الاوربية ، أطلق الأوربيون على هذه المنطقة اسم ساحل القرصان ، وظل هذا التحدى قائما إلى أن استطاعت أوربا مهاجمة أوكار هؤلاء البحارة ، بل أن الحجة التى قدمتها فرنسا لاوربا حين احتلت الجزائر ١٨٣٠

هى أنها بعملها هذا تنقذ العالم الأوربى من براثن القراصنة المسلمين . يطلق على هذا العمل صفة (الجهاد) القرصنة التى أطلقها الاوربيون ، ذلك أن قراصنة العصر كانوا أبطالا قوميين بالنسبة للتاريخ البحرى لبلادهم .

الإخوات عروج وخضر رئيس (المعروف باسم خير الدين) وفى الأوربية باسم بارباروسا (ذى اللحية الحمراء) قبل استقرارهما فى الجزائر أن فى خلق الوادى ميناء تونس دولة قراصنة وقد استطاعا أن يكسبا ولاء معظم الملاحين المسلمين فى المنطقة بعد قيامهما بهجمات ناجحة على الملاحة والسواحل الغربية .

إلا أن الأسبان قاموا رداً على هذه الأعمال بالاستيلاء على عدد من النقاط الحصينة على طول سواحل مراكش والجزائر وإرغام الحفصيين حكام الجزائر على الخضوع لسلطتهم والسماح لهم بانشاء قاعدة بحرية محصنة فى بنيون وراجبل المجاورة وبذلك تحول القراصنة المسلمون من شرق البحر المتوسط إلى غربيه واشتراكهم مع إخوانهم بحارة الشمال الأفريقى للتصدى للمشروعات الأسبانية .

فى هذه الفترة ظهرت زعامة خير الدين وعروج وبعد استشهاد عروج طلب خير الدين مساعدة العثمانيين بعد استيلاء السلطان سليم على مصر ، وإذن له السلطان ووعد بتزويده بالمدافع والبارود فى مقابل سيطرة الدولة العثمانية على الجزائر على أن يقوم خير الدين بحكمها نيابة عن السلطان ، وقد استرجع خير الدين الجزائر وميناء بيون وانتزع خلفائه من الأسبان كل فتوحاتهم ماعدا وهران التى بقيت فى أيديهم حتى القرن الثامن عشر .

وقام خير الدين بسبع رحلات من الجزائر إلى ساحل الاندلس أمكنه خلالها نقل ٧٠ ألف مسلم كانوا يتعرضون لاضطهاد محاكم التفتيش

استولى العثمانيون على جزيرة رودس التى كانت قاعدة الغارات على الملاحة الإسلامية فى شرقى البحر وانتقل فرسان القديس يوحنا إلى جزيرة مالطة وطرابلس الغرب .

وقد استدعى الخليفة سليمان القانونى : خير الدين ونصبه قائداً عاما للبحرية العثمانية ١٥٣٣ وشرع فى بناء أسطول جديد يمكنه من التصدى لقوة الغرب على حين ألحقت الجزائر رسميا بالدولة العثمانية وأصبح القبطان العظيم حاكما عليها وأخذ خير الدين يجمع رجاله وبحارته لانشاء نواة الأسطول الجديد الذى خرج به لملاقاة العدو فاسترجع كودن ولبانتو من بلاد اليونان وتونس واغار على سواحل إيطاليا الجنوبية ومن قاعدته أغار على جزيرة صقلية وفرض النفوذ العثمانى على غربى البحر المتوسط وضرب جزيرة منيورقا ونهب سواحل أبوليا وكالابريا فى أقصى جنوبى إيطاليا .

ولما عقد اتفاق فرنسا والعثمانيين على يد بربروسا ، ونقض بسعى البابا للمصالحة بين فرنسا وإيطاليا فى مواجهة المسلمين اشتد غضب خير الدين لنكوص فرنسا فاستولى على معظم جزر بحر ايجه التى انتزعها من البندقية وردا على ذلك تشكل حلف بحرى صليبى قام بقصف القاعدة العثمانية فى البانيا ، إلا أن خير الدين هزم الحلفاء بالقرب من هذا الميناء .

وفى ١٥٤٠ عقدت الدولة العثمانية صلحا مع البندقية التى تخلت عما تبقى لها من أملاك فى شبه جزيرة المورة ، واعترفت بكل فتوحات خير الدين فى بحر ايجه ووافقت على دفع غرامة ضخمة فى مقابل موافقة العثمانيين على استمرار حكمها فى جزيرتى كريت وقبرص .

وفى مؤامرة أخرى بين فرنسا وإيطاليا احتل خير الدين ميناء طولون

دون إخطار السلطات الفرنسية التى ارغمها على تزويده ببعض المساعدة اللازمة ، وقام بتخريب سواحل أسبانيا وفرنسا وإيطاليا (توفى ١٥٤٦)

وبفضله أمكن إنقاذ الجزائر وتونس من الاستعمار الأسبانى وأصبحت البحرية العثمانية مرهوبه الجانب فى البحر المتوسط الذى تحول إلى بحيرة عثمانية فى الوقت الذى رفع فيه راية الإسلام والقى الرعب فى قلوب الأسبان وغيرهم من الصليبين الأوربيين .

لم تستمر سيطرة البحرية الإسلامية على الملاحة فى البحر المتوسط .

ففى معركة (لبانتو) ١٥٧١ استطاع حلف بحرى صليبى أن يدمر ما يقرب من نصف الأسطول العثمانى ورغم تعويض هذه الخسارة من فترة وجيزة فلم يعد الأسطول العثمانى خطراً يتهدد أوربا بالصورة التى كان يمليها بقيادة بربروسا .

* * *

هل كان شارل مارتيل

وراء وقف المد الإسلامى بأوربا ؟

شارل مارتيل لم يوقف تقدم المسلمين فى أوربا ، ولم يكن ذلك باستطاعته ، ولو حاول ذلك ؟

لقد بدأت مسيرة الفتح الإسلامى فى أوربا سنة ٩٢ هـ بحملة طارق بن زياد على إسبانيا ، حيث نازل ملك القوط بجيش من المغاربة ، قوامه اثنا عشر ألف مقاتل فتم له فتح البلاد فى ظروف أكثر من مواتية . وكان ذلك حافزاً لمولاه موسى ابن نصير ، والى إفريقية من قبل الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ، على عبور البحر إلى الأرض المفتوحة التى سميت بالأندلس ، ومواصلة الجهاد إلى أن دخل « الأرض الكبيرة » وهى فرنسا ، كما كان المسلمون يسمونها .

يقول بعض المؤرخون : إن مقصد موسى بن نصير أو الفاتحين المسلمين على العموم ، كان هو الانطلاق فى أوروبا من غربها إلى شرقها حتى القسطنطينية عبوراً بآسيا الصغرى ، وانتهاء إلى عاصمة الخلافة دمشق . وقد تابع الولاة الذين خلفوا موسى بن نصير على إفريقية حركة الغزو والتوغل فى أراضى الفرنجة ، وبخاصة جنوبى فرنسا ، حتى وصلوا إلى نهر الرون ، وتمركزوا فى مدينة أفينيون وهى التى يسميها العرب « أربونة » . وكانت تحركاتهم تتوقف تارة وتنبعث أخرى ، بحسب الوضع الأمنى الذى تكون عليه بلاد الخلافة اعتباراً من الشام إلى إفريقية والأندلس .

وفى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك كان الوالى على إفريقية والأندلس هو عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ، فاستعمل على الأندلس عبد الرحمن بن عبدالله الغافقى ، وكان شجاعاً مقداماً ، فغزا فرنسا ، وأوغل فى أرضها ، وأصابه

غنائم كثيرة ، فكتب إليه عبيدة يتهدده فأجابه عبد الرحمن بما نصه : « أما بعد ، فإن السموات والأرض لو كانتا رتقاً لجعل الله للمتقين منها مخرجاً » ، ثم مضى فى سبيله غازياً ، لا يلوى على شىء ، حتى قتل هو ومن معه من الشهداء سنة ١١٣ وقيل ١١٤ ﻫ ، وهذه الغزوة التى استشهد فيها عبد الرحمن هى التى تعرف بواقعة بلاط الشهداء ، وقد جرت فى سهل بواتيى بفرنسا ، بينه وبين شارل مارتيل الذى يسميه المؤرخون المسلمون « قارلة » .

وشارل هذا كان حاجباً متحكماً فى قصر الفرنجة ، وسعى فى توحيد ممالكها ، وهو جد شارلمان الشهير الذى كانت بينه وبين هارون الرشيد علاقات ودية ، وكان مقاتلا جريئاً تصدى للفتح العربى ، وانتصر على عبد الرحمن الغافقى فى المعركة المذكورة ، وطارت له بذلك شهرة عند الإفرنج ، ولقب بمارتيل ، أى « المطرقة » لشدته .

ويعتبر الأوروبيون واقعة بواتيى هذه من المواقع الحاسمة بين المسيحية والإسلام ، ويقول مؤرخهم : إنها التى أوقفت تقدم المسلمين فى أوروبا ، وأن شارل مارتيل هو منقذ المسيحية فى الغرب من اكتساح الإسلام لها ، بانتصاره فى هذه المعركة وهزيمته للعرب .

وإذا كان للمؤرخين الأوروبيين أن يقولوا ماشاءوا بدافع التعصب والإكبار من شأن هذا النصر الذى اكتسبه شارل مارتيل فى واقعة حربية عادية ، جرى قبلها وبعدها بين الطرفين كثير من أمثالها فالعجب من بعض مؤرخينا المحدثين الذين يتابعونهم على رأيهم ، ويؤكدون النتيجة التى بنوها على هذه الواقعة ، ويساهمون فى عقد إكليل الغار على رأس شارل مارتيل ، من حيث يشعرون أو لا يشعرون .

إن شارل مارتيل لم يوقف تقدم المسلمين فى أوروبا ، ولم يكن ذلك باستطاعته ، ولو حاوله ، لأن المد الإسلامى كان أقوى منه ، لقد استمر كما بدأ ، ولم يعقه ما جعله يتوقف ، ريثما تعود كلمة الإسلام إلى جمع أمر المسلمين إلى سداد .

وقد كان المسلمون يتعرضون لأزمات داخلية ، فيتوقفون ثم يراجعون سيرتهم الأولى ، ولكنهم توقفوا نهائياً لعوامل وأسباب مختلفة من حروب وفتن فيما بينهم ، أضف إلى ذلك بعد (بالضم) العاصمة ، ومركز القوى الدافعة عن مواطن القتال في غرب أوروبا.. فالخلاف بين الولاة في الأندلس وبين عناصر السكان من مغاربة وعرب ، وتزعزع كرسى الخلافة الأموية في المشرق ، ثم قيام الدولة العباسية وانقطاع المدد الحربى عن هذه الواجهة الكبيرة ، مع ما انضم إلى ذلك من ظهور الدعوة المروانية في الأندلس ، واقتطاع هذا الجزء من خلافة المسلمين في المشرق الذى انقطع بسببه أمل مواصلة الغزو في أراضى الفرنجة ، كل ذلك يجب أن يحسب له حسابه في توقف الفتح الإسلامى في فرنسا وغرب أوروبا ، وليس لشارل مارتيل في ذلك من يد إلا موافقة الظروف ، ومساعدة الأحوال في مواقعة العرب ، على حين ضعف وقلة استعداد ، وهى جولة حربية ، كان من الممكن أن تجدد على يد قائد آخر غير عبد الرحمن وتكتسب ، ويكون لها ما بعدها لولا هذه الأحداث الكبرى التى حصلت في المحيط الإسلامى ، وعاقت الغزو عن الاستمرار، ولا ننس من عوامل الهزيمة في هـــذه الواقعة ما ألمعنا إليه من مغاضبة عبد الرحمن لوالى إفريقية ، ومضيه في غزواته بدون موافقة رئيسه ، الأمر الذى يجعله غير متمتع بمساعدة السلطة العليا للبلاد ، وهذا يعنى أن قوته لم تكن بالقدر الكافى ، عدداً أو عدة ، لمواجهة خصم قوى شرس في عقر داره ، على خلاف ما يدعى المؤرخون الأوروبيون من أنها كانت تعد بعشرات الآلاف ، وهكذا يبنون من الحبة قبة ، ويضفون على معركة بواتى صفة المعركة الحاسمة بين الإسلام والمسيحية ، ويصبح شارل مارتيل في التاريخ الأوروبى بطلا خالدا ، «وأسطورة» انتصاره على العرب موضع تقدير حتى من بعض كتابنا مع الأسف .

(عبد الله كنون)

كيف ضاعت الأندلس

يصف كاتب أوربى الخسارة الفادحة التى حلت بأسبانيا وكان سببها الهوس الدينى فيقول . .

« لم يعرف الأسبان عندئذ ما كانوا يفعلون ، إذ أنهم فرحوا أشد الفرح بنفى العرب وذلك لأنهم سئموا الحياة الرتيبة ، « لوب دى فيغا » يغنى أغنيته المثيرة التى مطلعها « الحكم العادل » ولم يدروا أنهم قتلوا أوزتهم الذهبية » .

ترى كيف قتلوا أوزتهم الذهبية ؟

أترك الكاتب الاسبانى المسيو كوندو يصف مقتلها :

فى سنة ١٦١٠ م انجز فليب الثالث العمل الذى كان بدأبه والده وهو نفى زهاء نصف مليون من هؤلاء البائسين إلى أفريقية ، فأمر بإنزالهم على الساحل. أما سكان الشمال وكان عددهم لا يقل عن مائتى ألف نسمة ، وهم البقية الباقية من ذلك الشعب القوى الباسل ، فقد طردوا من غير شفقة ولا رحمة إلى فرنسا حيث اضطر من بقى منهم حياً بعد مذابح الاسبان وأهوال الطريق إلى النزوح إلى البلاد الإسلامية . وبلغ عدد الذين طردوا من أسبانيا منذ سقوط غرناطة حتى عهد الملك فيليب ثلاثة ملايين نسمة .

وهكذا اختفى من أرض الأندلس شعب ذكى مستنير شجاع بعث بجده واجتهاده الحياة فى أسبانيا التى كانت تئن تحت نير القوطيين فحول بلاد الأندلس إلى جنة فيحاء ، وحمل مشعل العلم والعرفان بينما كانت الممالك حولها تتخبط فى دياجير الجهل كما نشر الثقافة وبث المدنية ووضع أسس الفروسية بل لا نعدو الحق إذا قلنا أن الشعب العربى قد خلق أوربا الحديثة خلقاً .

والآن يحق لنا أن نتساءل عن مدى استفادة أسبانيا من طرد العرب ؟

وجواب ذلك . .

أن الأندلس الجميلة ظلت بضعة قرون موطن الثقافة ومركز العلوم والفنون تدهورت ثانية إلى حالة العقم وأصبحت علما على تدمير الثقافة والأخلاق فاكتنفتها وحشية أبدية بعد أن كان العرب قد أضاءوها بنورهم ، وفى الواقع لم تتغير الطبيعة إنما الذى تغير هو الشعب الاسبانى وديانته . . ومع ذلك فلا يزال بعض آثار العرب تعلو الخرائب التى ملأت تلك البلاد المقفرة ، ومن وسط التماثيل والخرائب الصامتة يرتفع صوت الحق ينادى بمجد وحضارة العرب المنهزمين وانحلال ، وتدهور الأسبان المنتصرين .

بعد هذه المقدمة نريد أن نعرف :

كيف ضاعت الأندلس ؟

إن القائد (براقا) قابل الاذوفونش فى رومة داخل الفاتيكان ، وجاء معهما دوق فينسيا (البندقية) .

فقال له ابن اذوفنش : « أعلم أيها البطل أن البابا قد استدعى بارونات أوربا وشاورهم فى استرجاع مملكة أسبانيا من العرب فلتكن مساعداً لنا » .

فقال : براق : (إن الأسد لا يصاد إلا بالمكر والخديعة ، وقد يستعين الصيادون بالخمر : ولا يفل الحديد إلا الحديد » .

فقال دوق فينسيا : إن جيوش البارونات تسحقهم سحقا فى أقل من لمح البصر

فقال براق :

١ — أن العرب يحافظون على دينهم وعلى حريمهم وقد تفنى القبيلة كلها محافظة على الشرف ، ولكنهم قوم كرام صادقون يأبون الكذب . فهم يخدعون بسهولة بالظواهر المموهة ، فاجعلوا بينكم وبينهم معاهدة على حرية الدين والتعليم والتجارة فهذه تفتح لرهبانكم طريقاً بها يبثون التعاليم بين أطفالهم

فان لم يتبعوا دينكم فهم على الأقل يهملون دينهم . فيفقدون الحمية الدينية التى تحببهم إلى الحرب .

٢ — فأما حرية التعليم فإنها تولد لهم غلمانا شؤما عليهم لانهم يكونون مشغوفين بحب معلميهم ، ويبتعدون عن محبة وطنهم .

٣ — فأما حرية التجارة فهى التى تضعضع شيئا فشيئا تمسكهم بأزيائهم فضلا عن تجارة الخمر ، فهى الان محرمة ، فمتى شاعت بينهم أقدموا على المنكرات بلا مبالاة ، وفقدوا النخوه والشرف وضعفت منهم العقول والجسوم وفشا بينهم الشر , وساءت حالهم ، وارتبكت شؤونهم فيساقون كالأغنام .

ولا تنس ياحضرة الدوق أن التأنق فى النعمة والبذخ والاسراف فى الشهوات ، وإهمال سير الآباء والجدود من أقوى أسباب انحطاط الممالك القوية .

فلمعت أسرة وجه ابن أذفونش بعد أن كان يلوح عليه اليأس ، وشكر براقا على إخلاصه .

وفى الصباح اجتمع البابا ودوق فنيسيا وبارونات أوربا ببراق وتحدثوا مليا وكتبوا صورة هذه الشروط وارسلوها معتمدين على أمراء الإسلام فى الأندلس فوصلت شروط طلب الهدنة إلى (مالك بن عباد) بقرطبة وقد فرغ من تحصين مدائنه وقلاعه فدعا قواده وعمال مدائنه وأمراء أشبيلية وطليطلة وبلنسية ومالقة والجزيرة الخضراء وغرناطة ، فحضروا بعد أيام إلى قرطبة وهم يختالون على خيولهم , وكان من بينهم (عدى بن أبى عامر) صاحب بلنسية يتبعه مائتا فارس نعال أفراسهم ذهب أبريز ، فنزلوا جميعا برصافة قرطبة ، وكان (مالك بن عباد) قد بنى بها قصرا فخما تحيط به الحدائق والجنان ، قد جعل فيه تماثيل من فضة بأشكال الطيور والحيوانات تخرج من أفواهها المياه ، وفيها قال ابن زيدون من قصيدة :

قصر يقر العين منه ناظر
بهج الجوانب لو مشى لاختالا

فقبلوا شروط الصلح فعارضهم قيس ابن مصعب وبقى الامراء فى ضيافة ملك ابن عباد شهرا .

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة
ونام عنها وتولى رعيها الأسد

فلما انقضت أيام الولائم رجع الأمراء إلى بلادهم إلا عدى بن عامر صاحب بلنسية فإنه بقى مع الأمير يقضيان الزمن فى اللهو والصيد والخمر وهكذا بقية الأمراء وشعوبهم يتبعونهم فانحطت الدولة بذلك وزاد فى إفسادها تلك المعاهدة فانتشر الرهبان فى أنحاء الاندلس وأخذوا يبثون تعاليمهم، وكانوا يجتمعون فى أوقات خاصة للتشاور ، وقد شيدوا ضيعة على ضفة نهر قرطبة وسط البساتين،وكانت منتزها جميلا يؤمه العظماء والأمراء لاسيما أيام الآحاد وقال صاحب التاريخ المسمى بالمعجب : لقد جددوا فى عام هذه المعاهدة أربع مدارس كبرى على نفقة (دوق فينيسيا) أحد كبارهم وجعلوا التعليم فيها عاما لمن شاء (بينما كانت مدارس المسلمين بقرطبة وغيرها تكاد تمحى إذ انقضت تعاليمها تماما إلا ما يختص بالشريعة) . فأقبل العرب على تلك المدارس ، واختلطوا بالقسيسين والرهبان وتعلموا لغاتهم وجاروهم فى عاداتهم وأخلاقهم وزاد الأمر فى بلنسية فإن المبشرين والمعلمين تدخلوا فى كل شيء . لأن نائب عدى عليها المسمى (ابن ذى الغافرى) النون أطلق لهم الحرية التامة حتى اتهمه بعض الوزراء ، بأن البابا استماله بالرشوة » .

× خيانة جندل بن حمود أمير أشبيلية :-

ولقد لعب براق بن عماد دورا مهما هنا ، ذلك أن أمير أشبيلية (جندل بن حمود) لم يمكث فى قرطبة إلا ريثما وقع على شروط الهدنة ، وأبى البقاء وعاد إلى عاصمته ، وذلك لسر خفى فى نفسه ، ذلك أن أحد معتمدى البابا الذين حضروا إلى قرطبة أعطاه خطابا من البابا وعده فيه بأنه يؤمله أن يجعله ملكا مستقلا بولايات الأندلس قاطبة ، وأن البارونات متفقون على نصرته فى أى وقت شاء .

× البطريق شيل يصبح قائدا لجيش المسلمين :

ثم أن براقا وفى بعهده لأنه عاهد البابا على أن يدخل بعض البطارقة فى قيادة الجيش ، وقد أخذ البطريق المسمى (شيل) يرافقه فى أيام الصيد وأخذ براق يمدحه عند ابن عباد بالشجاعة ثم أحضره إلى الديوان فقال (مالك بن عباد) وما بلغ من شجاعته يا براق ؟ فقال اختبره إن شئت فقال مالك لتبارزا فإن غلبته فكفاه وإن غلبك جعلته من قواد جيشنا ، فتبارزا وتظاهر براق بأنه مغلوب . فتكدر مالك بن عباد لما يعلم من مهارة براق وشجاعته وجعل البطريق قائدا وقربه منه ، فانتخب من أبناء بلاده من أراد لتدريب عسكر المسلمين على استعمال السلاح ، وصارت عواصم الأندلس محط الغرباء ، وراجت التجارة فى البلاد ولاسيما الخمر . وقد قتل عامله ، وسقطت الحرية ، وهذه أول نتيجة للمعاهدة . ولما رجع دوق فينيسيا إلى رومة قصص القصص على البابا والبارونات فأيقنوا بتفرق كلمة العرب ، وأن الوقت آن لتخريب ممالكهم وتفريق شملهم . ولقد كان عدد المبشرين بالأندلس ألفا ، وعدد المعلمين بالمدارس التى اتفق عليها البابا ٤٨٥ . وأنفق البابا من خزينته لترويج الخمر خمسمائة ألف (فلورين) .

وهكذا ضاعت الأندلس . . ضاعت حين :

١ — ساد الانحراف والترف .

٢ — وترك الجهاد فى سبيل الله .

٣ — وسمح للنصارى والمبشرين بممارسة دورهم الهدام .

وهــذه سنة هلاك الامم

إذا علا فجارها على أبرارها

إن ضياع الأندلس لم يكن مرة فى التاريخ بل كل من أندلس ضاعت والمسلمون هم السبب .

زالت الخلافة الإسلامية حين انحرف الاتراك والعرب عن رسالة دينهم وتأثروا بثقافة الغرب ، وحين سمح لأعداء الإسلام من نصارى ويهود القيام بدورهم الهدام عن طريق المناصب الحكومية التى تقلدوها .

والآن تضيع لبنان ، وتحترق ، وذلك حين استكملت عناصر الانهيار ، وما هو بالانهيار العادى ، إنما هو الدمار .

والفساد والترف يسود الناس ، والانحراف الخلقى ظاهرة اجتماعية أنظر إلى قول براق إلى الاذفونش « ولا تنس ياحضرة الدوق أن التأنق فى النعمة والبذخ والاسراف فى الشهوات وإهمال سير الآباء والجدود من أقوى أسباب انحطاط الممالك القوية » .

والتبشير يعمل فى البلاد العربية بحرية مطلقة ودون رادع ومهمته معروفة كما بينها براق « فاجعلوا بينكم وبينهم معاهدة على حرية الدين والتعليم والتجارة فهذه تفتح لرهبانكم طريقا بها يبثون التعاليم بين أطفالهم فإن لم يتبعوا دينكم فهم على الأقل يهملون دينهم ، فيفقدون الحمية الدينية التى تحببهم إلى الحرب » .

نعم . . هذه هى خطة التبشير . . والنهاية معروفة .

فهل نحن نسير إلى طريق مسدود . فما زال فى المجال متسع قبل أن يحق علينا قول ربنا فما نفعنا مالنا ولا قوتنا نقول ذلك لكى لاتقتل أوزة ذهبية أخرى . وليعتبر المسلمون بالأحداث فى واقعهم اليوم ؟

* * *

افاق البحث

صفحة

صفحة

صفحة

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٥٣٥ / ٨٣
ترقيم دولى : ٤ - ٠٥٣ - ١٤٢ - ٩٧٧